مَفهُوم العدالة الإجتماعية في الإسلام [1]

مولود قاسم نايت بلقاسم



بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الامين العام ،

حضرات السادة ،

لا أكتم السادة المؤتمرين انى ترددت عندما عرض على السيد الامين العام لهذا المؤتمر الكريم أن القى هذه الكلمة فى هذا الموضوع بالذات • لا لعدم أهميته ، ولا لتعقده ، بل بالعكس ، لبداهته وبساطته ، مما يجعله من ذلك السهل الممتنع الذى ليس فى متناول اى احد •

ومع ذلك رأيت ان أقوم بمحاولة عل الله يوفقنى فى التذكير هنا بما شدا وأشاد به اعلام مسلمون وغير مسلمين بخصوص العدالة الاجتماعية فى الاسلام مفهوما ومضمونا •

(1) نص المحاضرة التى ألقاها السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى المؤتمر الاسلامى الدولى بلندن يوم 9 ربيع الثانى 1396 (9 ابريل 1976) •

ان العدل فى الاسلام ليس فقط أساس المجتمع الاسلامى فى أصالته وعلى ما ينبغى أن يكون ، وليس ركنا من أركان الاسلام متمثلا فى الزكاة وما فى حكمها فحسب ، كما سنرى ، وليس فقط صفة من صفات الله فى قوله تعالى : « القائم بالقسط » ، ولا يدخل فقط فى مئات الاحكام الاسلامية التى هى من صميم العبادات كشرط فى صحتها ، بل هو أيضا أساس من أسس العقيدة نفسها ، متصل بصميم الايمان !

فلنتأمل قليلا فى قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » ! ولننظر الى حديث رسوله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا وجاره جائع » ! فالعدل هنا ، أو التكافل الاجتماعى عموما ، مرتبط بالايمان نفسه ، بأصل العقيدة ذاتها !

ويتضح ارتباط العدل بأصول العقيدة ، أى الايمان نفسه ، فى الايمان باليوم الآخر . وما اليوم الآخر اذا لم يكن الايمان بالبعث ، وبالحساب ، وبالثواب ، والعقاب ، أى بالله ، وكتبه ، ورسله ؟

فالايمان باليوم الآخر هو الايمان بمغزى الكتب المنزلة ، والانبياء المرسلين ، وبالبعث والنشور للحساب والجزاء ، وللثواب والعقاب ، لكل حسب عمله ، كما يقتضيه العدل الالهى ، وكما تروم ذلك حتى عدالة الانسان فى التعامل الدنيوى .

ومن ثم رأينا فرقة اسلامية ، من رجالها أمثال الزمخشرى والقاضى عبد الجبار ، تسمى حرية الاختيار ، التى لا يفهم العقاب والثواب بدونها ، نظرية العدل .

واذا كان الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين مكذبا بالدين ، وكان الذى يبيت شبعانا وجاره جائع غير مؤمن بالله واليوم الآخر ، وكان اليوم الآخر هو العدل الالهى ، فان أى مجتمع يقول عن نفسه انه مسلم ولا يحقق هذا العدل ليس له من الاسلام الا الاسم ، فضلا عن ان يكون مؤمنا !

بعد هذه المقدمة البديهية ، التى قد تبدو للبعض فلسفية ، أو عقائدية ، كما يقال اليوم ، ونحن فى عصر الصراع العقائدى ، فلنعرض الآن نماذج لهذه العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، نصا ، وروحا ، ومقاصد شريعة ، وسلوكا ، التى كانت طابع المجتمع الاسلامى

فى عهوده الزاهرة ، وكما لا تزال ، نصا وروحا ، تنتظر التحقيق ، ونظريات ومقاصد لمن يريد التطبيق ٠

ولنبدأ هذا بالتذكير بأن الاسلام ينظر الى ابن آدم ، الذى كرمه الله ، وجعله خليفة فى الارض ، على أنه كائن متألف من جسم وروح ، له حاجاته المادية ، كغيره من الكائنات الحية ، ولكن له أيضا كرامته ، وجوانبه الروحية ، والخلقية ، والاجتماعية عامة ، وبالتالى لا يقتصر فى حياته على الجانب المادى المحض ، أو الاقتصادى البحت ٠

ومن هنا فالمجتمع الاسلامى ـ كما ترسمه لنا الشريعة السمحاء ـ مجتمع متوازن يتكون من أفراد ينبغى أن يشعر كل منهم انه يكون مع الآخرين وحدة متماسكة ، متضامنة ، تقوم على التآخى ، والتكافل الاجتماعى ، والمساواة فى أصل الحقوق والواجبات ، تعمل لهدف واحد ، وينظم انشطتها الحكم العدل الذى يضمن العمل للجميع حسب الطاقة والكفاءة ، ومن منطلق تكافؤ الفرص ، ويوزع نتاج الامة فى مجموعها بالقسطاس حسب الحاجة على مجموع أفرادها على أساس التكافل الاجتماعى ٠

وهكذا فصل الاسلام أبواب الدخل ومصارفه ، ففرض حقوقا وواجبات ، وحث على البذل ، والتضحية ، وتزكية الاموال ، باسعاف المحتاج ، وهدفه فى ذلك كله تهذيب النفس ، ومصلحة الجماعة ، وحيث لم تفد وسائل التهذيب أمر بالزجر ، وحيث لا يكفى وازع الضمير الدينى ، ولا يفيد الوعظ والارشاد من عالم الدين ، يتدخل سوط القاضى وسيف الحاكم ٠

وبهذا ضمنت العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، على أساس العدالة الاقتصادية ، حقوق جميع أفراد الامة ، من قادرين على العمل وغير قادرين ، من فقراء ، وعجزة ، وأرامل ، وأطفال ، وشمل من بين العجزة المسلمين والذميين ، بل وقد ادرج فيهم حتى الحيوانات كما سنرى ٠

على ان الفقر بسبب الكسل والخمول لا تشمله هذه العدالة ، لان الاسلام لا يقرهما ، ولا يجوز لاحد التسول ، اذ يمنعه الاسلام منعا باتا ، وعلى المحتسب ان يأمر المتسول القادر بالعمل ، والا عزره ، حتى يقلع ، ولا يشجع الاسلام روح الاتكال على الغير ، والاستكانة الى الزوايا والتكايا ٠

العدالة الاجتماعية مع العمال :

والاصل فى الاسلام هو التكسب بالعمل · وقد أشاد القرآن بالعمل والفعل فيما يقرب من خمسمائة آية ، كما ورد تمجيده مرارا فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ·

والعمل هنا سواء منه الذى يقوم به الشخص فى ملكه من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وغيرها من وسائل التكسب والانتاج ، كما يقال اليوم ، أو الذى يقوم به الاجراء من موظفين ، وعمال ، ومستخدمين ، أو غيرهم من أصحاب الحرف الحرة المستقلين ·

وهناك أحاديث نبوية عديدة فى حماية أجر العامل ، من حيث كل من مبلغ الاجرة وسرعة انجازها ·

ويضيف صلى الله عليه وسلم فى حقوق العمال : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليس له زوجة فليتزوج ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة » ، ويعلق المرحوم الشيخ أبو زهرة فيقول : « وكل ذلك لا ريب من بيت مال المسلمين ، لان الراحة التى ينالها العاملون توفر خيرا يعود على الجماعة الاسلامية » ·

وهذا يتضمن مجانية الاسكان ، والمواصلات ، بل والتزويج أيضا من الدولة عند الحاجة ! فضلا عن المنح العائلية التى كانت تعطى فى وقت الرسول وأبى بكر للزوج، والزوجة ، والاولاد ·

وقد كانت تعطى فى وقت عمر بن الخطاب رضى الله عنه للابناء بازدياد مبلغها تصاعديا مع السن ، فكلما نما الولد زاده ، ولم يكن عمر يضمنها للابناء الشرعيين فحسب ، اذ كانت تشمل حتى اللقطاء ! واستمر على ذلك عثمان وعلى ومن بعدهم مدة ·

كما ضمن الاسلام للعامل راحته ، بل وللحيوانات أيضا ، وقد نص الامام أحمد على انه على المحتسب ان يمنع ارباب الحيوانات من استعمالها فيما لا تطيق ·

ولما نشر الكاتب الفرنسى Peltier ترجمته للبخارى (1) عن هذه الجوانب وغيرها من الضمان الاجتماعى الاسلامى ، أو العدالة الاجتماعية ، لحماية العمال ، اعرب عن اعجابه هو والكثيرون فى تعليقات مستفيضة ·

(1) Peltier : *Oeuvres diverses de Boukhary.*

واذا كان هذا كله لا يوجد اليوم فى العالم الاسلامى مع الاسف ، فانه لم يصل أيضا حتى اليوم الى هذه الدرجة فى أرقى الدول المتقدمة خارج العالم الاسلامى !

2) لـلأسـرة :

وهذا الذى كفله الاسلام منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للموظفين والعمال عموما ضمنه لاسرهم أيضا بعد وفاتهم ان لم يتركوا لها ارثا يكفيها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا (أى ورثة) أو كلا (أى ذرية ضعفاء) فليأتنى فانا مولاه » .

مع فئـات العجـزة عموما :

وقد شمل نظام العدالة الاجتماعية هذه ، أو التكافل الاجتماعى ، فئات عديدة من العجزة صحيا ، كالشيوخ ، حتى الذميين منهم ، مثل الحادثة المعروفة بين سيدنا عمر واليهودى المسن اذ قال له رضى الله عنه : « ما أنصفناك أن أكلنا شبيتك ثم ضيعناك عند الكبر » ! وأخذه فى الحال الى منزله فاعطاه من قوته ثم أمر له بمعاش من بيت المال لبقية أيـامه .

ونفس الترتيب وضع للفقراء والمساكين عموما ، والمرضى ، والعميان ، والمقعدين ، والمشردين ، والاسرى ، وقد ذكرنا اليتامى ، والعجزة ، واللقطاء .

وهناك أبواب كثيرة أخرى شملها هذا التكافل الاجتماعى ، مـن الغرابة واللطافة بحيث لا تكاد تصدق بالنسبة لانسان لم يعش فى بيئة اسلامية ، وخاصة منها ما يسمى بوقف الزبادى لتعويض الخدم والاطفال ما يكون قد وقع منهم وتكسر عن غير عـمد ، لتجنيبهم العقاب أو الخصم من أجرتهم ، وهناك مساعدة المدين العاجز عن التسديد ، بدفع دينه عنه من بيت المال ، وهناك ابن السبيل المعسر والبعيد عن بلده ، وكان هناك وقف خاص لتمويل العلاج النفسانى فى المستشفيات بالموسيقى ، والتمثيل الشعبى الفكاهى ، وقد اثبتت تجارب ما يسمى فى الطب الحديث ــ وان كان هذا قديما كما نرى ! ــ بالطب النفسانى الجسمانى psychosomatique ان هذه الطريقة فى العلاج على غاية من الفعالية والنجـاعة .

وبدون أن أكـون قد أتيت على نهاية القائمة أذكـر أطرفها ، التى أشرت اليها فى البداية ، وهو الوقف الخـاص بالحيوانات وبعض الطيور ، لعلاجها ، وجبر كسـرها ، وكفالتها حتى نهاية حياتها ٠

على ان هذه العـدالة الاجتماعية وهذا التكافل الاجتماعى لم يكـونا مقتصرين على الجانب المـادى ٠

فالى هذه الجوانب كلها التى تتجاوز اطار العدالة الاجتماعية لتصبح التكافل الاجتماعى أو الحنو الاجتماعى ، وهو واجب فى المجتمع الاسلامى الذى ينبغى أن يكون كالجسـد الواحد وكالبنيان المرصوص ، نجد انها قد شملت أيضا « العدالة الانسانية » ، ان جاز هذا التعبير ٠ ففى عصرنا هذا الذى لا تزال تسوده الطبقية ومظاهر التمييز العنصرى ، نجد الاسلام يسوى بين الجميع ٠

وسند تلك المساواة نجده فى الآية الكريمة : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان المسلمين سواسية كاسنان المشط » ، كما نجده أيضا فى أحاديث أخرى للرسول وأحداث وقعت فى عهد الصحابة ، نذكر بعضها بايجاز ونشير الى أخرى مجرد اشارة :

ففى مجـال المساواة بين الاجناس والالوان ، نعرف كلنا تعنيف الرسول لابى ذر الغفارى عندما عير فى لحظة غضب وانفعال بلالا الحبشى بلون أمه ، اذ قال له الرسول : « يا أبا ذر انك لامرؤ فيك جاهلية ، ارفع رأسك فانظر ، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود ، الا ان تفضله بعمل » ٠

وفى المجال القضائى نجده صلى اللـه عليه وسلم قد أقـاد مرة حتى من نفسه فى حادثة مشهورة وقعت فى جامع ، اذ اعتبر أحدهم ان الرسول ، وهو بصـدد تسـوية الصفوف ، قد آلمه ، فمكنه الرسول من نفسه ليقتص لو شاء !

وحادثة أخرى تشبهها تؤكد ذلك ، وهى عندما تدخل أسامة ابن زيد عند الرسول فى حادثة المرأة المخزومية التى سرقت ، وطلب اعيان قبيلتها الكبيرة القوية توسط اسامة ابن زيد لمكانته من الرسول ، ليقيهم من فضيحة وقوع الحـد على واحدة منها ، فغضب

الرسول وقال لأسامة : « أفي حدود الله ؟ » ثم خطب في المسلمين وقال لهم : « انما أهلك من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركــوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا الحد ، وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! » .

فالرسول طبق العدل والمساواة على نفسه ، وعلى حبه أسامه بن زيـد ، في شخص المرأة المخزومية الشهيرة ، واعلن انه مستعد لتطبيقهما على بنته فاطمة لو استوجبت ذلك، معلنا بذلك عمليا ألا طبقية في الاسـلام ، كما فعل عمر في حادثـة ابنه عبد الرحمن ، وكذلك عندما طبق قانونه « من أين لك هذا ؟ » على كبار الصحابة أمثال خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبي هريرة ، وغيرهم .

ولم يحصر الاسلام هذه العدالة بين المسلمين فحسب ، بـل جعلها واجـبـة بينهم وغيرهم من ذوي الاديان الاخرى ، كما تبرز ذلك أمثلة عديدة تدل على انها كانت القاعدة ، كحادثة ابن القبطي وابن عمرو بن العاص عندما وصلت الى سيدنا عمر رضي الله عنه ، ومثل تقاضيه هو ، أي سيدنا عمر ، مع يهودي أمام القاضي شريح ، ومثل تقاضي سيدنا علي كرم الله وجهه ويهودي آخر أمام سيدنا عمر ، مما جعل اليهودي يعلن اسـلامه في الحـــال !

واذا ما استثنينا عمر الثاني ، ابن عبد العزيز ، فهل هناك من رئيس دولة آخـر في العالم القديم والحديث ، حتى بين أكثرهم تبجحا بالديمقراطية أو الثورية في عالم اليوم غربا وشرقا ، وجد نفسه في وضع عمر عندما وقف ، وهو أمير المؤمنين ، في مسـجد الرسول ليجيب على سؤال : « من أين لك هذا الطول في ثوبك يا عمر ، وحصة كل منا في توزيع الكتان هي نصف هذا المقدار ؟ »

وسـائل العـدالـة الاجتماعية
أو
العـدالـة الاقتصـاديـة

وقد يتساءل متسائل عن الموارد التي يصرف منها على جميع أبـواب الصرف التي ذكرناها ، وغيرها مما لم نذكر ، وهي كثيرة .

وهنا نود ان نورد بضع اشارات عابرة عن تلك العدالة الاقتصادية التى هى الشرط فى العدالة الاجتماعية والمتكاملة معها ، اذ هما صنوان متلازمان ·

فالى جانب الجهود الخيرية كالاوقاف ، وقد رأينا أنها كانت تشمل بجناحها حتى الحيوانات ، والى جانب المساهمات العديدة الواجبة دينيا لصالح المجتمع ، كالنفقة على الاقارب ، والكفارات ، والوصية ، وغيرها ، التى تساهم فى تمويل التكافل الاجتماعى ، وهى تتجاوز العشرة أبواب ، نجد هناك بيت المال الذى تتمثل وسائله خاصة فيما يلى :

1) ـ الزكاة وما فى حكمها ، وهى ، كما نعلم كلنا ، الركن الثالث من اركان الاسلام ، والعمود الاجتماعى الاساسى فى البناء الاسلامى ، وليست صدقة ولا منة ، ولكنها واجب ، ومانعها عمدا كافر يقتل ، كما حدث ذلك فى حرب الردة التى حسم بها سيدنا أبو بكر ، رضى الله عنه ، الامر الذى كاد يستفحل ويعود بكثير من المسلمين الى الجاهلية الاولى ، ويقصم ظهر أمة الاسلام · وهى الى كونها عبادة ، تقرب العبد من ربه ، كسائر العبادات ، تكافل مع المجتمع ، وتربية للذات على التغلب على الأنانية ، وترويض لها على البذل والتضحية ، وطمأنينة للنفس بأداء الواجب ، ورضا للضمير ازاء الله ·

وبهذا كله فالزكاة تختلف كل الاختلاف فى طبيعتها وأهدافها عما يقابلها لدى المحدثين من الضرائب ، التى كثيرا ما يتحايلون على تأديتها كاملة بحسابات مشكوك فيها دفعت الى اتهام رؤساء حكومات فى دول أوروبية كبيرة ، والى حملات صحفية على أعلى منهم لنفس السبب ، واحيانا أدت ببعضهم حتى الانسحاب الذى هو فى الواقع عزل أكثر منه استقالة ·

2) ـ **والمورد الثانى** هو ما سماه ابن حزم « باب الحق سوى الزكاة » · وقد علق على الحديث الشريف الذى رواه الامام على كرم الله وجهه من ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم » ، بما يلى : « فرض على أغنياء كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم » ، وافتى هو وآخرون بدية من مات جوعا بين قوم ، واعتبروه قتيلا لهم عليهم ديته·(1)

(1) ابن و. م. المحلى .

وقد روى بعض المحدثين ان الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر من اصناف المال ، التى يعود بها من له فضل فيها على من ليس له فضل ، ما ذكر ، حتى رأى الصحابة انه لا حق لاحد فى فضل ! (أى فى الزيادة على الضرورى) ٠

وقد قال سيدنا عمر رضى الله عنه : « لو عشت لاخذت فضل أموال الاغنياء فرددتها على الفقراء ٠ ليس أحد أحق فى هذا المال من أحد ، وسألحق أواخر الناس بأوائلها ... »

ومن هنا يتضح ان لولى الامر العادل ان يتدخل لمنع الظلم والاجحاف ، ولتحقيق العدالة والانصاف ، بالعدالة الاقتصادية ، وبالتالى الاجتماعية ، فى الامة ، عندما تكون هناك فجوات فى وسطها ، ويكون هناك بذخ وثراء يقابلهما فقر وادقاع ٠

3) ــ **والوسيلة الاساسية الثالثة** لتحقيق العدالة الاجتماعية هى ملكية الامة ، وذلك بنزع الملكية الكبيرة عموما ، فى حالة وجودها ، لتعود للدولة ، اذا اقتضت مصلحة الامة انتزاعها ، وبمنع نشوئها ابتداء ، اذا كان فى ذلك احتكار لها ومضارة للضعفاء ، وهو ما يحدث عموما ٠

ومقصد الشريعة من هذا ، وهى التى تحترم أساسا الملكية الفردية ، وتحميها ، هو **تحقيق العدل** بمنع تكدس الثروات فى أيد قليلة من الاغنياء يعيشون فى البذخ والترف ويكون المال دولة بينهم ، أى يتداول ويدور بينهم فقط ، أمام أغلبية من فقراء يرزحون تحت الجوع ، والعرى ، والغطرسة ، مكونين بذلك جيش سخط ، وعامل تهديد وعدم استقرار للامة ، بل ووسيلة ضعف ومعول هدم لها ، والله يأمرها بأن تكون قوية ، مزدهرة ٠ ثم ان الاسلام يكره ان يكون هناك فقراء ٠٠٠ ورسوله استعاذ بالله من الفقر ، فقال : « أعوذ بالله من الفقر والكفر » ، كما قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ٠

فقد « حمى » الرسول صلى الله عليه وسلم ارضا بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيول المسلمين ، أى جعلها ملكية للأمة كلها (1) ، كما « حمى » عمر أيضا أرضا بالربذة لنفس الغرض ، ولما جاء أهلها يقولون : « يا أمير المؤمنين» انها بلادنا ، قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها فى الاسلام ، علام تحميها ؟ فاطرق عمر ثم قال :

---

(1) أورده د. مصطفى السباعى (ص 15) فى كتابه (اشتراكية الاسلام) ٠

« المال مال الله ، والعباد عباد الله ، ولولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الارض شبرا فى شبر » (1) ·

ومعنى الحمى هنا هو اقتطاع مساحة من الارض كانت ملكا خاصا لجعلها ملكا للجماعة، أى للامة ، فى أشخاص المحتاجين الى ذلك من أفرادها ·

ويتضح ذلك بدون جدال فى وصية عمر لعامله على حمى الربذة اذ قال له ما معناه : « استعمال هذه الارض مخصص للمحتاجين » ، وأضاف بصيغته ، كما توردها كتب التاريخ ، ما يلى : « ودعنى من أنعام ابن عفان وأنعام ابن عوف ، ـ وقد كانا من الاغنياء ـ فانهما ان هلكت ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ، وان هذا المسكين ـ أى الفقير ـ ان هلكت ماشيته جاءنى ببنيه يصرخ : يا أمير المؤمنين ! (أى له ان يطلب معونة الدولة لان له حقا فى بيت المال حين يفتقر) أفتاركهم أنا ، لا أبا لك ؟ الكلأ أيسر على من الذهب والورق ـ أى الفضة ـ · وانها لارضهم ، قاتلوا عليها فى الجاهلية وأسلموا عليها فى الاسلام، ـ وانهم ليرون انى ظلمتهم » (2) ويضيف انه انما فعل ذلك فى سبيل الله ! (3)

وما فعله عمر هنا تطبيق للحديث الشريف : « الناس شركاء فى ثلاث ، الماء ، والكلإ ، والنار » ، وطبقا للقاعدة المعروفة : « يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى » ·

وشبيه بهذا ما حدث فى عهد عمر أيضا ، عندما رفض توزيع أراضى سواد العراق والشام على الافراد ، بل أبقاها ملكا للامة ، وقال قولته المشهورة : « لو قسمت الارضون لم يبق لمن بعدكم شيء ، فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض قد قسمت ، وورثت عن الآباء ، وحيزت ؟ ما هذا برأى ! وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق » ؟ (4)

ويروى ان معاذ بن جبل ، الذى وافقه على ذلك مع جماعة من الصحابة ، منهم الامام على ، قال له : « انك ان قسمتها صار الريع العظيم فى ايدى هؤلاء القوم ، ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد أو المرأة » (5) ·

---

(1) د. م. سباعى : « اشتراكية الاسلام » ·
(2) و (3) نفس المرجع عن المغنى لابن قدامه ·
(4) و (5) نفس المرجع ص 102 ، عن الاموال لابى عبيد بن القاسم ·

فعوض ان يقسم هذه الاراضى الواسعة الشاسعة على جماعة محدودة العدد من الصحابة، بحيث تصبح ملكية كبيرة ، رأى سيدنا عمر وصحابة معه ، كما يقول الأوزاعى ، اقرار العدد الكبير من الفلاحين ، أهل القرى ، فى قراهم على ما كان بأيديهم يعمرونها ويدفعون خراجها ، ويرون أنه لا يصح لاحد من المسلمين شراء هذه الاراضى طوعا ولا كرها ، لما كان اتفاقهم انها لاتباع ولا تورث » (1) ٠

ويقول المرحوم الشيخ أبو زهرة فى ذلك : « ونرى عمر يبنى رأيه على ثلاثة أمور مصلحية :

1) **منع الملكية الكبيرة** ، اذ أن أراضى العراق (والشام) تعد بألوف الألوف من الافدنة ستقسم على عشرات الالوف من الناس ، وبذلك يكون احتكار للاراضى الزراعية ٠

2) ان خراج هذه الاراضى ، اذا منعت قسمتها ، يكون لصالح الدولة والجهاد فى سبيل الله ٠

3) انها لو قسمت ما كان مال ينفق منه على الضعفاء من اليتامى ، والارامل ، والمساكين ، ونراه أقام الرأى على المصلحة ، وكان له ان يحتج بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم » (2) ٠

واذا منع الاسلام الملكية الكبيرة للافراد فى صالح المجتمع ، كما رأينا فى المثلين الاولين ، ومنع نشوءها ابتداء فى الحالة الثالثة ، بعد أن أصبحت فى حيازة الدولة ، بمنع توزيعها ، فهو يمنع أيضا نشوءها ابتداء من مال الافراد اذا كان فى ذلك احتكار لها ، وبالتالى تكدس للثروة ، وملكية كبيرة ، كما يوضح ذلك الشيخ أبو زهرة اذ يقول حرفيا :

« وان الاحاديث كثيرة فى ان الاحتكار حرام ، مهما تكن الاصناف التى تكون موضوع الاحتكار ، ما دام حبسها يضر بالناس ، سواء أكانت ثيابا ، أم طعاما ، أم غيرهما ؛

---

(1) نفس المرجع ص 107 عن المغنى لابن قدامه ٠
(2) فى المجتمع الاسلامى ، ص 36 ٠

« وبذلك يعد من الاحتكـــار ان يضيق على الصغـار امتـــلاك الاراضى الزراعية ، والاختصاص فيها ، بأن يكون هناك ملاك كبار لهم الاراضى الواسعة الكثيرة ، وكلمـــا ظهرت الاراضى استولوا عليها بطريق الشراء ، فلا يستطيع صغار الزراعين ان يغالبوهم فى شرائها ، فيكون على ولى الامر التدخل » (1) ٠

هذا والشيخ أبو زهرة رحمه الله معروف بمواقفه الصلبة فيما كان يراه الحق ، ولم تسجل عليه ممالأة الحكام ، ولا التقلب حسب اهواء انظمة الحكم ، ولذا فلا يمكن ان يقال انه كتب هذا فى ظروف معينة ، وتحت ضغط معين ، وهو الذى صمد على مواقفه وعانى فى ذلك بعض الشىء ، وظل هو هو الى ان مات ، على الاقل فيما نعلم ، والله أعلم ٠

حضرات الســـادة ،

هذه لمحة عن مفهوم العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، نصا ، وروحا ، ومقاصد ، وتطبيقا فى العهود الزاهرة للاسلام ، وعن مضمون العدالة الاقتصادية التى عليها تقوم ، اذ الاولى مشروطة بالثانية التى تمـدها بالوسائل التى تعطـى مفهومها مضمونا ، وان سمحتم باستعمال تعبير لفيلسوف أوروبى ، هو ايمانويل كنط الذى قال :

« ان الادراك يتكون من عنصرين متكاملين : المفاهيم والاحساسات ، فالمفاهيم بدون الاحساسات فارغة ، لا مضمون لها ولا محتوى ، والاحساسات بـــدون المفاهيم عميـاء لا مغزى لها ولا مـدلول » (2) قلت ان العـــدالة الاجتماعية مفهـــوم ، والاقتصادية مضمونها ، ومحتواها ، وشرط تطبيقها ٠

وكيف يكون الامر غير ذلك فى الاسلام وهو الذى يؤكد ان حق الفرد مقيد بحـــق الجماعة ، ويقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ومصلحة الامة على مصلحة الفرد ، وكل ذلك بدون ان يخنق الفرد ، ويغمطه حقوقه ، ويذيبه فى المجتمع !

كيف يكون الامر غير ذلك وهو دين ودولة ، ونظام اجتماعى كامل ، أى ، كما يقول الشهيد سيد قطب ، هو « النظام فى الاصطلاحات الحديثة ، مـــع شمـول فى المدلول

(1) نفس المرجع ص 62 ٠
(2) كنط : مقدمة الطبعة الاولى لنقد العقل المجرد :
« Die Begriffe ohne Empfindungen sind leer ; die Empfindungen ohne Begriffe, blind ».

للعقيده فى الضمير ، والخلق فى السلوك ، والشريعة فى المجتمع » (1) « فكلها داخلة فى مفهوم الدين فى الاسلام » (2) ·

لقد كانت هذه العدالة الاجتماعية ، المتكاملة مع الاقتصادية ، التي تسهر الدولة على تطبيقها ، والمعززة بشبكة من أعمال خيرية شعبية متواصلة ، تشبه بساطا لا متناهيا، أو أيديا متحاذية ممدودة تحفظ كل من تزل به قدم الدهر ، وتحوجه الايام ، من ان يقع على الارض ، وكان ذلك تشريعا ، كما رأينا ، يتبعه التنفيذ · هل وجد أو يوجد اليوم شيء من هذا فى غير نظام الاسلام كما طبق بالامس ؟

بل رأينا أنه فى عهد عمر بن عبد العزيز مثلا ليس المتسولون فقط هم الذين ما كانوا يوجدون ، بل حتى من يقبلون الزكاة من الفقراء والمساكين كثيرا ما كان لا يرى لهم أثر ، مع العلم ان المسكين هو من ليس له قوت يومه ، والفقير من ليس له قوت عامه ·

وقد قال عامله على افريقيا مرة : «كنا نطوف بالزكاة على الناس لعلنا نجد من يقبلها» !

هل هناك من عدالة اجتماعية مزدهرة اكثر من هذه ؟ سموها كما شئتم ، المهم ان ينتفى بها الطغيان ، والاستغلال ، والإذلال ، وتكون شاملة ، وان تكون فيها كرامة الجميع موفورة ، والقيم الروحية مصونة ، والحريات مضمونة ، ودين الله قائما !

سموها العدالة الاجتماعية ، مع الشهيد سيد قطب (3) ، سموها التكافل الاجتماعى ، مع الشيخ أبى زهرة (4) ، أو سموها الاشتراكية مع الدكتور محمد المبارك اذ يكتب ما يلى :

« فالقول ان ليس فى الاسلام اشتراكية ينطوى على جهل بحقيقة الاشتراكية ، وعلى قصور فى فهم الاسلام ، وتعاليمه ، واهدافه ، وبعد عن معرفة احكامه المتعلقة بهذا الموضوع » (5) ، أو سموها اشتراكية الاسلام مع د. مصطفى السباعى (6) أو

(1) و (2) و (3) سيد قطب ـ العدالة الاجتماعية فى الاسلام ·

(4) أبو زهرة : المجتمع الاسلامى ·

(5) د. محمد المبارك : آراء ابن تيمية فى الدولة ومدى تدخلها فى المجال الاقتصادى ·

(6) د. مصطفى السباعى : اشتراكية الاسلام ·

سموها الاشتراكية الاسلامية مع الشهيد حسن البنا (1) ، أو بأى اسم آخر قد يبتدع ، اذا كان لنفس المدلول ، ولابد له من مدلول ، والا فهو مجرد شعار !

فالعبرة ليست بالاسماء ، والصيغ ، والشعارات ، وانما بالمضمون ، والمحتوى . فلتكن هذه العدالة الاجتماعية كما ذكرنا عنها منذ حين فى العهود الزاهرة للاسلام ، مع ضرورة اعتبار ما يستجد باعتبار مصلحة الجماعة ، أى الامة ، فى الدرجة الاولى ، بدون خنق الفرد ، وبالاستفادة من تجارب الامم ، صالحها وفاسدها ، بالاجتهاد واستعمال قواعد الاستصلاح والاستحسان ، ولتأخذ بعد ذلك هذه العدالة الاجتماعية ما تشاء من الاسماء ، بل وحتى ذلك الاسم نفسه الذى يقبل عليه كثير من شباب اليوم ، وهو الاشتراكية ، اذا اطلق عليها بالمعنى الذى ذكرناه ، فلن يكون فى مبناه ومعناه الشراك ، والشرك ، والإشراك ، بل سيفيد الاشتراك ، من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الناس شركاء ... » .

الا نرى اليوم من حين لآخر فى عواصم العالم المتقدم ، من الغرب والشرق ، أى خارج العالم الاسلامى ، متسولين حقيقيين ومن فى حكمهم ؟ بل ألم نقرأ منذ أسابيع فقط ، فى صحف غربية ، عن أناس ماتوا جوعا ، أو بردا ، أو من كليهما ، كما حدث ذلك أخيرا فى فرنسا مثلا وفى الولايات المتحدة الامريكية ؟

وفى هذه الاخيرة مات جنين فى بطن أمه لانها ظلت أياما بدون ان تذوق طعم الخبز ، كما روت ذلك جريدة لوموند الفرنسية أخيرا فى سلسلة من مقالات عن حالات الفقر فى بعض جهات الولايات المتحدة ، أغنى دولة فى الارض اليوم وأكثرها تقدما !

والعبرة ليست بعدد هذه الحالات ، وهى كثيرة جدا نسبيا حسب الجريدة ، ولكن بحدوثها فى ذاته !

ولكن هل معنى هذا ان الوضع فى عالم الاسلام اليوم أحسن مما هو فى آوروبا وأمريكا ؟ الجواب هو ، مع الاسف الشديد ، أننا لانستطيع الا أن نقول انه أسوء بكثير وبلا أية مقارنة !

---

(1) حسن البنا : فى مقدمته للكتاب : « أبو ذر الغفارى ، الاشتراكى الزاهد » لعبد الحميد جودت السحار ، (ط ٠ 4) .

فالوضع فى العالم الاسلامى وحتى فى الاغلب من أغنى جهاته حاليا ، بل وربما فى بعض هذه أكثر من غيرها ، هو ان حالات الفقر المدقع ، فى مقابلة البذخ المسرف ، وما تؤدى اليه من كوارث ، ربما ليست حالات فردية ، تذكرها الصحف بالاستغراب ، كما فى أوروبا والولايات المتحدة .

ان الهوة بين العدالة الاجتماعية ، كما شرعها الاسلام ، وحال المسلمين اليوم ، لسحيقة ، والحفرة بينهما لعميقة !

ابن قيم الجوزية كان يقول : « أينما كان العدل فثم شرع الله ! » (1) ، والشهيد سيد قطب كتب : « ان الناس فى هذا العالم الذى يطلق عليه اسم « العالم الاسلامى » تنظر فترى واقعا اجتماعيا لا يسر ، وتبصر فتشهد أوضاعا اجتماعية لا تحقق العدالة ! » (2) . وينضم اليه الدكتور محمد فاروق النبهان ، الاستاذ بكلية الحقوق والشريعة فى الكويت، ليصف الحالة فى بدء محاضرته فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى، الذى انعقد صيف هذا العام فى تلمسان بالجزائر ، معبرا عن هذا كله فى كلمات فيقول : « ويجب أن نعترف فى البداية ان واقع الشعوب الاسلامية اليوم واقع قاتم شاحب ، بعيد عن عدالة الاسلام وروحه ، وان الظلم الاجتماعى اليوم ليفرض نفسه علينا بشكل مغاير لكل القيم الدينية والانسانية » !

وأود أن أختم بالتعبير عن تخوفى ، بدورى ، وأقول ان المسلمين ، اذا استمر انعدام هذه العدالة الاجتماعية بينهم ، وفصلوا المسجد عن المزرع ، والمصلى عن المتجر والمصنع ، وكانوا بذلك يراءون ويمنعون الماعون ، فويل لهم ثم ويل فى هذه الدنيا قبل الآخرة ، حتى اذا لم يكونوا من الذين هم عن صلاتهم ساهون !

اذ لن تنفعهم فى ذلك صلاة ولا صيام ، كما كتب أخيرا الامام الاكبر الدكتور عبد الحليم محمود عن أهل الردة الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، وقد رأينا ان هناك

(1) ابن قيم الجوزية فى : أعلام الموقعين عن رب العالمين . ذكره د. صبحى الصالح فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى فى تلمسان بالجزائر .

(2) العدالة الاجتماعية ، ص 2 .

أيضا ما سوى الزكاة، كما كتب ابن حزم الظاهرى، وكما قاله قبله بقرون وفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا عمر رضى الله عنه ·

هدانا الله ، ووقى أمة الاسلام سوء الخاتمة ، ووفقها ، وهى أمة الرسالة الى سائر البشر ، لخيرها وصالح الانسانية كلها ·

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

بــــلاغ

حــول الملتقى العاشر للفكــر الاســلامى

تعلن وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية أن الملتقى العاشر للفكــر الاســلامى سينعقد من الثانى عشر الى الواحد والعشرين من رجب 1396 هـ (العاشر الى التاسع عشر يوليو 1976 م) فى عنابة .

وهو لطلاب الجامعات وتلاميذ السنتين النهائيتين من الثانوى ، وسيسمح لغير الطلبة ممن هم فى المستوى المذكور بالمشاركة فى حدود الامكان .

وقد دعيت الى الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث من الجزائر وغيرها .

وتتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى .

ويطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منــه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ، والساكنون فى عنابة .

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية والملتقيات ، نيابة الملتقيات ، وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكــر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادتين : دراسية وطبية ، وظرفا (ذا مقياس 16×21) يحمل عنوانه وطابع بريد .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو الثلاثون من ربيع الثانى 1396 هـ (الثلاثون من أبريل 1976 م) عند الارسال ، ويكون ختم البريد شاهدا على ذلك .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين فى الغرب الاسلامى ، وخاصة فى بلــدان المغرب ، وابريا ، وصقلية ، ودورهما فى النهضة الاوروبية .

2) ضرورة التصنيع فى العالم الاسلامى ووجوب اختيار أحســن الطرق لتجنب أمراض المجتمعات الصناعية .

3) الابعاد الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية للعبــادات واهميتها لكل من الأمة والفرد .

ماضي وادي الذهب والساقية الحمراء وحاضرهما

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
بالجزائر



ان هذه الناحية لها مكانة ممتازة فى تاريخ افريقية حيث لعبت أدوارا في التاريخ الحضارى والاقتصادى والثقافي بفضل موقعها ، اذ وصلت أوج العظمة والقوة لما استولت على مناجم الذهب الذى اشتهر بجودته ، حتى انه كان يفضل جميع أنواع الذهب المعروفة فى بلاد العالم ، وذلك ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، كما كان لهذه المنطقة صلة بالحضارة من قديم الزمان • أى من العهد الحجرى ، اذ عثر فيها على عدة صور شبيهة بصور طاسيلى ، وأدوات فلاحية ، وأسلحة حجرية ، وفى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد احتلتها قبائل صنهاجة ، وأجلوا سكانها الاصليين الذين كانوا ينتمون الى الحراطين والسود ، كانّ اتصال هذه الناحية وثيقا بجيرانهم سكان غانة والسودان فكانوا تارة يتبادلون معهم التجارة ، وتارة يتحاربون وقد تكونت فى هذه الناحية عدة امارات ، من بينها امارات أدرار (1) ، والبراكنة ، وقانت ، وكونته ، والحوض ، والترارزة ، وقد وصلها الاسلام مع كتائب عقبة بن نافع الفهرى فى ولايته الثانية حوالى سنة 62 هـ •

(1) المقصود هنا بأدرار الموريطانية الحالية •

بعدما انتهت من غزو المناطق الشمالية ، واشتهرت هذه الناحية ابتداء من القرن الثانى الهجرى بالغنى والرفاهية الى اواخر القرن السادس وكان سكانها ينتمون الى قبائل لمتونة وقدالة ومسوفة الصنهاجيين ، وقد عرف هذه الناحية المؤرخ الفرنسى هنرى تراس (I) فى تأليفه تاريخ المغرب (الذى كان يدرس فى الثانويات بالمغرب) عندما تعرض لتاريخ دولة المرابطين فقال : « وقد عرف الصنهاجيون بعد الفتوحات الاسلامية بالملثمين وكانوا متفرقين من غدامس الى المحيط الاطلنطى ، ومن جنوب المغرب الى السينغال والنيجر ، وفى القرن التاسع الميلادى كانت جموعهم تشمل لمتونة ومسوفة ، وكانوا يجوبون الصحراء وحينئذ اتخذوا اوداغوست قاعدة حكمهم ، وقد نظموا التجارة بواسطة القوافل التى كانت تصل الى تخوم صحراء مصر » الخ ٠٠٠ اهـ

وعرفهم المؤرخ ابوراس الناصرى الراشدى فى كتابه « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » فقال فى تعرضه لقبائل صنهاجة : « ٠٠٠ الفرقة الثانية من صنهاجة لمتونة ، وهم الملثمون ، مساكنهم بين البرابرة والسودان ، قوتهم البان الانعام ولحومها ، وتميزوا باللثام من بين الامم ، وهم بطون ، ومساكنهم ما بين البحر المحيط بالمغرب ، الى قبلة برقة ، وهم الذين يقال لهم التوارك ٠٠٠ وكان دينهم المجوسة ثم اسلموا بعد فتح الاندلس ، وكان يتلوثان من ملوكهم يركب في مائة الف نجيب، ويؤدى له الجزية عشرون ملكا من السودان» اهـ

وقد عرف البكرى فى كتابه المسالك والممالك عاصمة صنهاجة :اوداغست فقال : « وهى مدينة كبيرة ٠٠٠ بها جامع وساجد كثيرة فى جميعها المعلمون للقرآن وحولها بساتين ٠٠٠ ثم وصف سكانها فقال : « وهم ارباب نعم جزيلة واموال جليلة ، وسوقها عامر الدهر كله ، لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه ، وضوضاء أهله ، وتبايعهم بالتبر ، وليست عندهم فضة ، وبها مبان حسنة ، ومنازل رفيعة ، وهو بلد الوان أهله مصفرة ، وامراضهم الحميات والطحال ، لا يكاد يخلو من احدى العلتين احد منهم ، ويجلب اليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الاسلام على بعد ٠٠٠ وسكانها أهل افريقية وبرمجانة ، ونفوسة ، ولواتة، وزناتة ، ونفزاوة ، هؤلاء اكثرهم ٠٠٠ ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم ، وذهب اوداغست أجود من ذهب أهل الارض وأصحه ، وكان صاحب أوداغست فى عشر خمسين وثلاثمائة تين يروتان ابن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له ازيد من عشرين ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدى له الجزية » ٠ اهـ

(I) هنرى تراس كان استاذا بمعهد الرباط ثم جامعة الجزائر وهو اختصاصى فى تاريخ المغرب والاندلس وكانت له تآليف هامة فى الفن المعمارى الموحدى والاندلسى ٠

وقد ذكر بعض المؤرخين ان هذه المنطقة صار يطلق عليها بعد فتوحات الملك يوسف ابن تاشفين لبلاد المغرب والاندلس : سوس الاقصى وقسموا بلاد سوس (2) حينئذ الى ثلاث مناطق :

1 ـ سوس الادنى وقاعدته تارودانت ·

2 ـ سوس الاوسط وقاعدته تيزنيت ·

3 ـ سوس الاقصى ويشمل وادى نون ودرعة والساقية الحمراء ·

هذه لمحة من تاريخ هذه المنطقة التى كانت قبل انتفاضة المرابطين ، تنقسم الى عدة امارات مستقلة ، تعيش مع جيرانها من سكان غانة والسودان ما بين حالات سلم وحرب ، وابتداء من ظهور دولة المرابطين التى اكتسحت بلاد المغرب أمراء سجلماسة ، وبنى يفرن ، وفى ذلك قال ابوراس الناصرى فى الفصل الذى عقده لتاريخ دولة المرابطين فى تأليفه « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » فقال : ومن اشهر ملوكهم يوسف بن تاشفين ، فأول حروبهم ـ أى لمتونة ـ مع مسعود ملك مغراوة واسقطوا المغارم والمكوس، ونشروا العدل الذى لم يكن بعده مثله آخر الدهر ، وكانوا يشاورون العلامة وايجابى اللمطى تلميذ ابى عمران الفاسى ، ويقفون عند أمره ونهيه ، وكان من اعيان الاولياء ، فهلك يحيى بن عمر منهم سنة سبع واربعين ، وقدم أخوه ابو بكر لفتح السوس وماسة وتارودانت واغمات ، وهرب أميرها لقوط المغراوى ، ثم استباحوا تادلا ، وقتلوا بنى يفرن ملوكها ، وقتلوا برغواطة أهل تامسنا ، وكانوا اشد كفرا فى حروبهم ، استشهد شيخهم عبد الله بن ياسين تلميذ وايجابى سنة خمسين ، فاستمالوا برغواطة وأخذ عقليتهم زينب ، ثم ارتحل ابو بكر الى الصحراء ، واستعمل ابن عمه يوسف بن تاشفين ودعا لبنى العباس ، وقد نزل له عن زينب، لما كرهت أرض الصحراء وجاهد ابو بكر فى السودان حتى استولى على تسعين مرحلة من بلادهم ، ثم ان يوسف دوخ أرض المغرب ، وقطع ملك عطية (3) من فاس بعدما قتل منهم ثلاثة آلاف وأزيد ، وقطع ملك بنى الخير من وهران وقطع بنى وانود من صفرو وكلهم مغراوة » اهـ تبين من هذا ان هذه القبائل من صنهاجة الصحراوية كانت تقاسم بنى عمومتها من صنهاجة الشمال العداوة التى يكنونها لزناتة ·

---

(3) عطية المغراوى هو مؤسس مدينة وجدة كان من بقايا امراء مغراوة الذين قضى على دولتهم بلقين بن زيرى سنة 360 هـ والتجأوا الى ملك الاندلس فاقطع لهم اقطاعات بالمغرب هم وابناء عمومتهم من بنى يعلى اليفرنى ·

ولنرجع الى الحديث عن تاريخ هذه المنطقة التى اجمع المؤرخون والرحالون ، انها كانت فى فترات تاريخها الاول مشهورة بالغنى والازدهار ، ومن ذلك ما تقدم لنا من وصف البكرى لامارة اوداغست حيث قال : « وهم أرباب نعم جزيلة واموال جليلة ، وسوقها عامر الدهر كله ، لا يسمع الرجل جليسه ، لكثرة جمعه ، وضوضاء أهلـه وتبايعهـم بالتبر ، وليست عندهم فضة » • الخ •

وهذا الوصف متمم وموضح لما وصف به الرحالون ومنهم البكرى ، قلعة بنى حماد ، عاصمة صنهاجة بالجزائر ، بعد سقوط القيروان ، حيث قال : « وهى قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة ، وتمصرت عند خراب القيروان انتقل اليها اكثر أهل افريقيا ، وهى اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب ، وهى اليوم مستقر مملكة صنهاجية » • اهـ

وقد بلغت « قلعة بنى حماد » هذه المكانة فى الميدان الاقتصادى لان قوافلها كانت تجوب الصحراء ، مركز تجارة الذهب ، ويرى كثير من المؤرخين الاروبيين (4) ان محور الاقتصاد الاروبى فقدته أوروبا بعد سقوط روما ، وتلاه فراغ الى ان فتح المسلمون فتوحاتهم ، فخلف المسلمون الاوروبيين ، وكانت افريقية تسيطر على اقتصاد افريقيا وجزء من آسيا بسبب اكتشافها لمنطقة الذهب وتذليل الطرق للقوافل التى كانت ترد عليها كما قال البكرى « العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب » •

وقد نشر السيد احمدو محمدو دراسة قيمة عن تاريخ امارة ادرار التى كانت تشمل منطقة الساقية الحمراء ، نشرها بمجلة الجغرافية والآثار التى كانت تصدر بوهران فى عددها 53 بتاريخ مارس 1932 ، وعنوان المقال (امارة ادرار من 1872 الى 1908) • (5)

قال فيه : بين وادى نون وسانلود وبين ولاته والشاطىء الاطلنطى ، توجد ادرار التى كانت الحد الواصل بين المراكز التجارية للصحراء الغربية ، وبفضل ما حبتها الطبيعة من الخصب والمراعى والجبال ، اشتهرت ادرار هذه التى كانت تابعة لبلاد ما يسمى فى عرف المغرب الى الآن ببلاد السيبة ، أى الجهة التى لا تنالها الاحكام السلطانية لتمرد أهلها المتواصل ضد الحكومات المركزية ، كانت القبائل التى تحكم هذه الامارة تنحدر من يحيى بن عثمان ويسمون بالجعافرية ، وكان يحيى بن عثمان هذا من أهل القرن السابع عشر ، وقبائل غيلان

(4) منهم صاحب كتاب « الاسلام فى عظمته الاولى » لومبار Lombard ظهر هذا الكتاب منذ سبع سنوات •

(5) ادرار هذه غير ادرار الولاية الجزائرية المشهورة •

المنحدرة من أخ يحيى المذكور ، المسمى بغيلان بن عثمـــان والعويسيات بتاقنت ، توارث الجعافرية وهؤلاء حكموا هذه الناحية مدة قرنين ، وكانت الحروب بينهم وبين الترارزة تارة بينهم وبين أولاد دليم ثم أولاد سالم ، القبيلتين العربيتين اللتين انتقلتا الى زمور ، بعـد مفارقتهما للساقية الحمراء ودرعة اثر حروبهم مع الرقيبات » · اهـ

ان انتفاضة المرابطين اللمتونيين هى التى كان لها الاثر المحمود من حيث تهـــذيب اخلاق ، وجمع كلمة سكان هذه المنطقة ، ونشر تعاليم الدين الصحيح ، وهى انتفاضة لنشر تعاليم الاسلام ، أكثر منها انتفاضة للاستيلاء على البلاد واستعباد أهلها ، خصوصا وانـــه فى عهدهم وان أدركت البلاد كما قدمنا أوج الرفعة والازدهار الا أن أخلاق سكانها كانت لا زالت على شراستها ، فهم دائما فى نزاع واحد بينهم وقد يظهر لنا مصداق ذلك عندما نطلع على ما وصفها به ابن حوقل فى رحلته التى ابتدأها سنـــة 331 هـ · وختمها سنـــة 359 هـ وسماها « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » قال فى تعريفه ببلاد سوس : « وأهـــل السوس فرقتان ، احداهما فرقة موسويون يقطعون على موسى بن جعفر والغالب عليهـــم الجفاء وغلظ الطبع ، والفرقة الثانية ، سنية ، مالكية حشوية ، وبينهم القتال المتصل ليلا ونهارا ، والدماء الدائمة ، ولهم مسجد يصلى فيه الفريقان فرادى عشر صلوات اذا صـــلوا هؤلاء أتوا هؤلاء بعشر اذانات وعشر اقامات ، والمالكيون منهم فوق الشيعة فى الفظاظـة ، وغلظ الطبع وجباسة الاخلاق وبقدر ما لهم من مواد لذة العيش يتغالون فى الجهل والطيش · وقد ألح الروم فى وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحل بحر الروم يعنى البحر الابيض المتوسط بالغارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غياث لهم ولا ناصر ، والملك فيهـــم حقير ذليل وهو جامع مانع ، والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتى بالتأويل عـــلى ما يختـــار ، ولا يخاف معادا ولا مرجعا ، والتاجر فاجر ، لا يعاف ، ويكل ربح بلقع ، فالثغور والجزائر الى الاعداء مسلمة ، والارض الى الله من أربابها متظلمة (6) الخ » · اهـ

كانت هذه وضعية وادى نون والساقية الحمراء بداية من الفتوحات الاسلامية ، وهذا دليل على انها كانت فى أول عهدها سكنها قبائل صنهاجية لمتونة ومسوفة ، وكانت مجموعة امارات تربطها العلائق التجارية مع بعضها ، ومع جيرانها ، كغانة والنيجر والسودان ، وبعد انتفاضة المرابطين اللمتونيين ، التى كانت انتفاضة دينية مشهورة ، متفق عليها ، لهـــا برامج ، ودستور ، يعزز أحكام الشريعة الاسلامية ·

(6) يستدل كثير من الباحثين على ان الاسلام بهذه الناحية لم يتغلغل فى النفوس الا بعد ظهور دولة المرابطين اللمتونيين أى اوائل القرن الخامس ·

اتصلت هذه الناحية ببلاد المغرب الاقصى ، فى وقت كان سكانه يجهلون الحدود والقوميات ، وانما كان كل السكان ينضوون تحت العالم الاسلامى فى المغرب العربى كان يحكمه أمراء مغراوة وبنى يفرن وبنى رستم والدولة الاغلبية ممثلة الخلافة العباسية ، وعندما ظهرت دولة الشيعة ، اكتسحت البلاد ، وقضت على جميع الدول التى كانت تحكم بلاد المغرب العربى اللهم الا بلاد المغرب الاقصى ، التى كان يحكمها (7) ملوك الاندلس الامويون. وبعد قضاء دولة الفاطميين على هذه الدول بواسطة قائدها بلقين بن زيرى هاجر بقايا أمراء دولتى مغراوة وبنى يفرن الى المغرب حيث أقطع لهم ملك الاندلس ، المغرب الاقصى ، وهاتان الدولتان الزناتيتان هما اللتان قضى عليهما يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وعندما لحق بقايا زناتة بالجزائر ، وتداخل فى الخلاف بين أحفاد بلقين أى ملك بنى زيرى بالمهدية وبنى حماد بالقلعة حاربه بلقين الثانى حفيد بلقين الاول ووصل فى مسيرته الى فاس واحتلها وأعاد الكرة لمحاربة يوسف بن تاشفين ملك بجاية المنصور الحمادى ، الذى تتبعه الى تلمسان حيث هزمه فى عدة معارك ، واحتل مدينة تلمسان وأباح (8) المدينة لجيشه الى أن تقدمت اليه زوج والى تلمسان اللمتونى واستشفعت له ... صر القربى الصنهاجية فاستجاب لها وأعطى الاوامر لجيشه بالانسحاب من ...مسان وبعد سقوط دولة المرابطين على يد عبد المؤمن بن على خليفة المهدى بن تومرت وتكوينه لاعظم مملكة ، لم تكن فى عهده ولا عهد أبنائه وعماله من بعده ، نظرية الوطنية الضيقة الجدود ، اذ عبد المؤمن جزائرى الولادة والنشأة ، ولم تطأ قدماه المغرب الا بعد دخوله مع أستاذه المهدى بن تومرت ، وبعد موت أستاذه خلفه (رغم وجود كثير من أفراد عشيرة المهدى بن تومرت تتوفر فيهم جميع شروط القيادة) عبد المؤمن ولم يأنف قوم بن تومرت من مبايعته ، اللهم الا بعض الشواذ الذين لم يخل منهم زمان ولا مكان وعلى هذه الطريقة سارت دولة الموحدين اذ لما تكونت دولة بنى حفص وحكمت الجمهورية التونسية الحالية والقطاع الشرقى من الجزائر (بجاية وقسنطينة) لم يرد فى خلد سكان البلدين التعرض لملوك بنى حفص بدعوى انهم مغاربة ولا ينتمون الى الجزائر أو تونس بصلة ، واذا وجدنا فيما بعد خلافات بين ولاة الموحدين الذين استقل كل منهم

---

(7) سبق ملوك الاندلس الادارسة أن حكم الادارسة كان دينيا محضا ولهذا لم يحاربه الامويون بالاندلس بل اذنوا لشبه عمالهم كبنى خزر بالجزائر ان يسهلوا استيلاءهم على تلمسان وما جاورها .

(8) ان بلقين الثانى حارب يوسف ابن تاشفين لما اقتحم حرم البلاد وتتبع زناتة اما المنصور الذى حارب نفس يوسف فات خلاف الذى كان بين بنى حماد وبنى زيرى واستنجد بنو زيرى بابن تاشفين عندما هاجمهم روجار ملك صقلية .

بمقر ولايته كبنى مرين بالمغرب ، وبنى زيان بالجزائر ، وبنى حفص بتونس ، فمرجع ذلك الى تنافس داخلى فى اطار المذهب الموحدى ، اذ كل منهم كان يرى انه احق بوراثة الفكرة الموحدية وتمثيلها ولنرجع الى الحديث عن ماضى منطقة الساقية الحمراء ووادى الذهب فنجد ان هذه المنطقة تغيرت نوعا ما فى عهد الدولة المرينية وذلك بظهور قبائل عربية، ولنترك الكلمة للباحث المتخصص فى دراسات المدنيات الصحراوية الرائد روبير منطانى : (Ct Robert Montagne) فى تأليفه « حضارة الصحراء » ((La civilisation du désert) (طبع هاشيت 1944) قال : « فى القرن الثالث عشر (م٠) ظهر عرب المعقل بسوس فى نواحى درعة كانت تلك النواحى مسكنا لصنهاجة اقارب التوارق وكانوا لا زالوا يحتفظون بمذهبهم العقائدى ـ أى مذهب المرابطين ـ وكانت قبائل صنهاجة مشهورة باصحاب اللثام وكانوا فى خلافات وحروب متواصلة مع السود من ورقلة الى غانة وولاية ، وفى عهد المرينيين دخل عرب المعقل الى هذه الناحية أى الساقية الحمراء وكان النظام الذى احدثوه شبيها بنظام الجزيرة العربية ••• وابتداء من القرن السادس عشر كانت الساقية الحمراء مركز انطلاق للدعوة الاسلامية التى اجتاحت بلاد شمال المغرب » ثم تعرض لتاريخ استيلاء ملوك المغرب على هذه المنطقة فقال : « ان الملوك السعديين هم الذين حاولوا ضم هذه النواحى فاحتلوا سنة 1581 بلاد توات ثم اعانوا القائد جوذر سنة 1591 عند غزوه لتنبكتو ورغم امداد هذه الارسالية طوال ثلاثين سنة بنحو 25000 جندى فقد اندمجوا فى السودان ولم يخلفوا أى اثر ، اذ كانت هذه الغزوة فاشلة لم تنجر منها أية فائدة لمن قاموا بها وقد اعاد الكرة الملوك العلويون ، لكن بطرق أخرى ، حيث كانوا يعتمدون على ذوى حسن من عرب المعقل » ـ وهذه الطريقة التى كانوا يستعملونها هى التقرب الى الشعب بواسطة رؤساء الدين ـ ثم يقول : « كان فى ظاهر الامر ان المعقل هم المهيمنون على تلك النواحى ، ولكن النفوذ الحقيقى كان لصنهاجة والقبائل التابعة لها مثل التوارق ـ بنى عمومتهم ـ وقبائل الرقيبات الذين لا زالوا بوادى الذهب وكان الفضل فى هذا النفوذ الذى احتفظ به السكان الاصليون يرجع الى القيادة الروحية التى حافظوا عليها اذ كان التكوين الروحى تحت سلطتهم وكثيرا ما كانت السلطة الروحية تتغلب وتتفوق على سلطة السيف والعصبية القبلية ، ومن آثار هذا التفوق الجلية هو عندما أعلن الشيخ ماء (9) العينين الثورة فى

(9) يقصد بهذا الدعوة التى قام بها ماء العينين عندما احتلت الجنود الفرنسية سنة 1909 قطعا من الصحراء جلى اهلها الذين كانوا من اتباع ماء العينين واستنجدوا به وبايعوه على الجهاد فخرج بهم الى نيزنيت اجابة لرغبتهم وفارق الساقية والسمارة •

أوائل القرن العشرين مناديا بالجهاد فاستجاب لندائه كل سكان موريطانيا الزرق عـــرب وبربر وتوجهوا كلهم الى بلاد سوس المغربى ثم التحق بهم سكان جبال الاطلس الذين كانوا تابعين لرؤساء دنيويين . والفصل الذى ختمت به هذه المسيرة هـــو عندما اعلن الهيبـــة ابن الشيخ ماء العينين (المذكور) الثورة على الملك عبد العزيز العلوى الذى ثار عليه أخوه مولاى عبد الحفيظ الذى كان يمثله بمراكش وتزعم حركة الجهاد لما ساءت تصرفات اخيه الذى اثقل كاهل البلاد بديون جسيمة وفتح ابواب المغرب للمطامع الاوروبية واحتلـــت معظم مواقع البلاد الحربية امكن لعبد الحفيظ ان يحصل عـــلى تأييد علمـــاء مراكش (IO) الذين افتوا بخلع الملك عبد العزيز فعندئذ استنجد مولاى عبد الحفيظ بالشيخ الهيبة بن ماء العينين الذى جدد له البيعة قومه ، واتباع والده فنادى بالجهاد ولكنه وهو فى اثناء مسيرته الى فاس كان عبد الحفيظ حصل على تخلى اخيه عبد العزيز بعد واقعة القلعة التى هـــزم فيها جيشه وخلفه هو فابرم معاهدة الحماية التى فرضها ممثلو الدول الاوروبية الذيـــن وقعوا معاهدة الجزيرة المشهورة سنة 1906 اذ امكن لممثلى هذه الدول وفى طليعتهم فرنســا واسبانيا وايطاليا وانكلترا والمانيا امكنهم ان يتقاسموا مناطق نفوذهم داخل بلاد المغرب وخارجه وحينئذ تغيرت نظرية الملك عبد الحفيظ ومنع بواسطة واعانة الكولونيل مانجان Mangin الشيخ الهيبة من مواصلة مسيرته اثر معركة سيدى بوعثمان فى سبتمبر 1912 فلم يسع الشيخ الهيبة الا الانسحاب الى مدينة مراكش وقد برر الملك عبد الحفيظ موقفـه مع الشيخ الهيبة انه كان يخشى عليه من مكر الفرنسيين ... الا ان الرأى العام المغربى خصوصا سكان سوس وحاحة لم ينخدعوا لمزاعم الملك عبد الحفيظ بل انتصروا للشيخ الهيبة كما سنبين ذلك بما قاله المرحوم المختار (II) السوسى (وزير التاج والاوقاف بالمغرب) .

وقد بين بمزيد من التوضيح المـــؤرخ الفرنسى كورنفان Cornevin فى تأليفه : « تاريـــخ افريقيا من بـــدايتها الى ايامنـــا هـــذه » (نشـــر بـــاريس 1966) قـــال بعد ان تعرض لاحداث استيلاء الفرنسيين على المغرب قال : « ان هذا التدخل الفرنسى خصوصـــا احتلال بوذنيب كان سببا فى تجمع عصابات اللصوص بالساقية الحمراء ووادى درعة حتى

(IO) نشر هذه الفتوى عبد الرحمن بن زيدان فى اتحاف اعـــلام الناس بجمال حاضرة مكنـــــاس .

(II) المختار السوسى عالم مؤرخ متخصص فى تاريخ سوس ورغم ولايته للعرش العلوى كان نزيها فى كتابته موضوعيا فى بحوثه وقد خلـــف كتاب المعسول فى 20 جـــزء وايليغ وغيرهما فى غاية الدقة والتفاصيل .

ان أهل ماء العينين الذين كانوا بمواشيهم فى مضيق نواحى السمارة اعلنوا الجهاد وبايعوا شيخهم ماء العينين ملكا وقد ارادوا ان يجددوا تجربـــة العلويين عندما اطاحوا بالملـــوك السعديين الذين تورطوا بموالاتهم للبرتغاليين . الا ان هذه المرة كان الجنـــرال الفرنسى Moinier موانى بالمرصاد فاوقف مسيرته بتادلا فى 23 يونيو 1910 » . اهـ

ان هذه المنطقة أى الساقية الحمراء ووادى الذهب بل بلاد سوس الادنى والوســـط والاقصى الى السودان وما كانت تسميه الحكومة الفرنسية افريقيا الغربية كان ابتداء من وفاة الملك المنصور الذهبى فى بداية القرن الحادى عشر يخضع لنفوذ الطرق الصوفيـــة أو الاسر الشريفة وكانت أهم هذه الطرق القادرية التى تفرعت منها الطريقة الكنتيـــة المنسوبة للشيخ المختار الكنتى (1143 ـ 1226 هـ) والطريقة البكائية المنسوبة لحفيده أحمد البكاى المتوفى سنة 1282 هـ ثم ورثها الشيخ محمد المصطفى الفاضل والد الشيخ ماء العينين الذى كان يقيم بالساقية الحمراء بداية من سنة 1884 الى ان فارقها سنة 1909 عندما احتلت فرنسا عدة مراكز صحراوية بالجنوب فنادى بالجهاد وبايعه انصاره والقى عصا التسيـــار بتيزنيت ومحمد المصطفى هذا هو الذى اختط مدينة السمارة وقد خضعت له جميع الطرق التى كانت تتقاسم نفوذ هذه النواحى كأولاد سيدى أحمد بن موسى ومولاى بوعزة والكنتيين، وجل المؤرخين مجمعون على ان هذه القبائل كانت لا تخضع للحكومة المركزية فكانت تتمتع باستقلال داخلى . وكان يطلق عليه فى المغرب ببلاد السيبة . وهذا باعتراف ملوك المغرب انفسهم . ففى عدة تقارير وظهائر (12) أرسلوها الى عمالهم كانوا يذكرون القبائل المتمردة التى لا تخضع لحكمهم داخل مناطق نفوذهم . اما المنطقة الصحراوية موضوع دراستنا فقـد تحدث عنها كثيرا العالم المؤرخ الشيخ المختار السوسى واعترف بانها كانت لا تخضع لاحكام السلاطين قال فى تأليفه : « ايليغ قديما وحديثا » (نشر المطبعة الملكية تحقيق وتعليـق محمد بن عبد الله الروداني الرباط 1386 هـ ـ 1966 م) قال فى حديثه عن بـلاد سوس ص 11 : « لما كان لها بعض استقلال عن العرش المغربى فلا تخضع له الا خضوعا أدبيا دينيا من بعيد » وقال فى موضع آخر من نفس التاليف يذكر فيه ثورة الشيخ الهيبة ابن ماء العينين فى عهد الملك عبد الحفيظ قال فى ص . 305 فى ترجمة أحمد الهيبة : « وكانت الغاية من قيامه أولا هى انقاذ المغرب وتحريره من الحماية الاجنبية ولما ظهر أمره طمعت المانيـا ان

---

(12) قد نشر الكثير من هذه التقارير والظهائر مؤرخ الدولة العلوية الشيخ عبد الرحمن ابن زيدان حفيد الملك مولاى اسماعيل الذى كان يملك وثائق هامة فى خزانته الخـــاصة وقد استوعب جلها كتابه اتحاف اعلام الناس المطبوع سنة 1930 فى خمسة اجزاء .

تستغله فى محاربة الفرنسيين فى المغرب بواسطة بعض القواد المحليين ـ ذكرهم باسمائهم ـ ثم قال : « اما السوسيون فكانوا ازاءه فرقتين فرقة انضمت اليه وهى الاكثرية ، وفرقة تجنبته خوفا ان لا يتم أمره فيتوارطوا وكانت الحماية قد تمت اذ ذاك فسهل قبول الدعاية السيئة ضد المولى عبد الحفيظ واتهامه بأشنع الاعمال ولم يكن هم كل من انضم الى الهيبة من السوسيين الا الجهاد فى سبيل الله وحتى أولئك الحاحيون أنفسهم لا غرض لهم سوى محاربة الحماية وبعد اقبال وادبار واقدام واحجام اجتمع عليه أهل ناحية تيزنيت من السوسيين وعلى رأسهم العلماء فتبعهم من سواهم . فانتصب الشيخ أحمد الهيبة ملكا على عرشه تتلى أمامه القصائد ويخاطبه الشاعر الفحل المرن الاستاذ الطاهر الافرانى بامارة المؤمنين وبالخلافة الخ » . اهـ

وقد ذكر البحاثة المتخصص فى الشؤون الدينية جورج دراق (George Drague) فى كتابه « نبذ من التاريخ الدينى بالمغرب » (نشر بيرونى Peyronnet باريس ج 2) ص . 96 قال أثناء حديثه عن تولية مولاى الحسن الاول مكان والده محمد الثانى سنة 1873 قال « وفى سنة 1874 كانت اسبانيا تطالبه بتنفيذ البند الثامن من معاهدة تطوان فعينت لذلك لجنة مغربية ـ اسبانية امتطت الباخرة الاسبانية بلاصكو دو قارى Blasco de Gary التى اقلتهم الى شاطىء سوس قرب مصب وادى درعة . الا ان الوفد المغربى رابه لما شاهده من اتصال بعض التجار الانكليز بالشيخ حساين أو الهاشمى رئيس قبيلة تزروالت وقبائل أيت باعمران فبلغوا ما شاهدوه الى الملك الحسن الاول فخشى ان ذلك الاتصال كان هدفه تزويد تلك النواحى بالسلاح فجهز الملك الحسن المذكور قوة تشمل نحو 40 ألف مقاتل منها 17500 مدربا ومعها ثلاثون مدفعا فوصل بسهولة الى تيزنيت الا ان وجوده لم يرهب الشيخ حساين ولهذا لم يقابله وانما ارسل اليه ولده وتحصن هو فى رباطه بايليغ فحاصر الملك الرباط ولما قاطعه السكان وخشى نفاذ الزاد أمر جنده بالرحيل وكل ما فعله لاظهار غضبه هو هدم اسوار القصبة المخزنية القديمة لتيزنيت وكان سبق له أى للملك الحسن الاول عندما كان وليا لعهد والده بمراكش انه سمع بان الشيخ حساين هذا نفسه يدعو سكان سوس للتمرد على السلطان فجهز جيشه وقصد الشيخ الى تيزنيت فتعرضت له قبائل جزولة انصار الشيخ حساين ومنعوه من الوصول الى تيزنيت ، فرجع من حيث أتى وهذان الحادثان بهما (من جملة ادلة أخرى) على عدم خضوع سكان القبائل ومن جملتهم سوس الى السلاطين ، ثم غير الملك الحسن الاول رأيه وسلوكه مع الشيخ حساين اذ نجده فى سنة 1886 ارسل جيشه الى الناحية بعد ان حصل رضا الشيخ حساين المذكور وبادله المراسلة والهدايا واظهر له انهم

يتعاونون على المصلحة العامة وعلى هذه الطريقة سار الحسن الاول مع كثير من ذوى النفوذ الـــدينى ٠

وقبل الختام نذكر ان منطقة الساقية الحمراء ووادى الـذهب كانت تتمتع بالاستقلال الداخلى وكان رؤساؤها الحقيقيون يتمتعون بتاييد السكان اذ لم يتخلف هؤلاء السكان عـن مبايعة الشيخ ماء العينين عندما أجتمعت لديه قبائل تاقنت وادرار وواحات شنقيط اثـر احتلال الجنرال قورو Gouraud فحينئـذ سنة 1909 لمنطقتهم على رأس الجنود السنقاليين لم يسع الشيخ الا مغادرة الساقية الحمراء ومدينة السمازة بعد ان أقـــام بالساقية الحمراء بداية من سنــة 1884 واختط مدينة السمارة اثناء مدة اقامته أى من سنة 1884 الى سنــة 1909 وقد التحق به الى تيزنيت التى ألقى فيها عصا التسيار قبائل كنته والرقيبات وعريب وتجكانت وأولاد دليم بعدما بايعوه واعلن الجهاد وارتحل نهائيا بصحبتهم الى تيزنيت حيث ادركه المنون سنة 1910 تستخلص من جميع ما ذكرناه ان هذه المنطقة أى الساقية الحمــراء وما قاربها كانت لا تنالها أحكام السلاطين وانما كان رؤساؤها متصلين ببعض الملوك اتصالا دينيا ادبيا من بعيد كما ذكر ذلك صاحب كتاب « ايليغ قديما وحديثا » وقد ايد هذا شاهد له وزنه هو رئيس الجمهورية الفرنسية السابق رايمون بوانكارى الذى كان عـــند ابرام معاهدة الحماية سنة 1912 رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها قال فى تاليفه : « فى سبيل خدمة فرنسا » (مذكرات تسع سنوات بعد احداث اقادير سنة 1912) ذكر بعد ان تعـرض للاحداث التى تقدمت معاهدة الحماية وتاخير الملك عبد العزيز وتعيين أخيه عبد الحفيظ ثم تاخير عبد الحفيظ وتعيين أخيه مـــولاى يوسف وقام بذلك كله الجنـــرال ليوطى قـــال بو انكارى (13) فى 12 أوت عندما كنت سانتيتر سبرق(St Petersbourg) لينيقراد الحالية مولاى حفيظ غادر الرباط على ظهر الباخرة Duchayla الى مرسيليا فالمقيم العام الذى صار صانع الملوك اهـــتم بالتفتيش عن مـــلك جديد الخ ، وهذا اصـــل النص بالفرنسية :

« Le 12 août, alors que je me trouvais à St Petersbourg, »

وبعد ان تكلم على تولية مولاى يوسف واجتماع العلماء والاعيان بجـامع القرويين للبيعة ، وكان هذا الاجتماع تحت رياسة الوزير الاكبر والصدر الاعظم واذيعت البيعة قال وقـــد بقيت لنا عقبات وهنا تعرض للدعى الجديد وهو أحمد الهيبة قال : « فى 18 أوت ظهر الدعى

(13) ان بـو انكـــارى الذى خصـــص كتابـــه هـذا المشهـــور ذكــــر فى شبه مذكرات جميع احداث المغرب ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر بمزيد من التفاصيل ودور كل أحد من الساسة الفرنسية والضباط والاحزاب ثم ما دار فى الكواليس من ممثلى الدولة الاوروبية ٠

الهيبة الذى احتل مدينة مراكش انه ولد الفتان ماء العينين المرابط المقدس ، اخوته يتمتعون بنفوذ قوى فى الصحراء التابعة لصحرائنا الغربية » اهـ

فالصحراء الغربية بعد ابرام معاهدة الحماية وتولية الملك مولاى يوسف كانت تابعة للصحراء الغربية التى عبر عنها الرئيس يوانكارى بصحرائنا • اذ كان سبق احتلالها بالجيش السينيغالى تحت قيادة الجنرال قورو سنة 1909 وبسبب هذا الاحتلال غادر الشيخ ماء العينين الساقية الحمراء والسمارة وقد بين الرئيس يوانكارى ان خطر الهيبة على المملكة امكن القضاء عليه بعدما تقلدت فرنسا مقاليد الحكم وقضت كامل عهد الحماية فى قمع القبائل المغربية وتطويعها للعرش •

مُغامرة الحماية التونسية على وهران
- سنة 1831 -

عبد الجليل التميمي

نشرت « المجلة التاريخية المغربية » الصادرة بتونس فى عددها الاخير هذه الدراسة لمديرها الدكتور عبد الجليل التميمى عن تواطؤ باى تونس حسين باشا وولديه مع الغزو الفرنسى منذ البدء فى وهران سنة 1831، تحت قيادة الماريشال كلوزال.

وقد اذن لنا السيد المدير صاحب الدراسة بنشرها فى « الاصالة » تعميما للفائدة والحاقا بما جاء فى عدد 29 من الاصالة عن مغرب الشعوب.
« الاصالة »

من الاحداث السياسية التى وقعت اثر عملية الاحتلال الفرنسى للجزائر، تلك الحادثة السياسية الغريبة التى تمت بين باى تونس حسين باشا باى والجنرال كلوزال (Clauzel) الحاكم الفرنسى العام للجزائر والتى كانت تهدف ظاهريا الى تعيين بايين تونسيين احدهما على بيلك قسنطينة والآخر على بيلك وهران .

وقد لعب القنصل الفرنسى بتونس دولسبس (De Lesseps) دورا هاما فى انجاح هذا المشروع واقناع باى تونس بقبول ذلك « لاعتقاده بصلاحية ذلك لفرنسا ومن شأنه أيضا أن يسرع بتمدين هذه المناطق » (1)

ونتيجة لقبول باى تونس مبدأ تفويض أمر وهران وكذلك قسنطينة الى أفراد عائلته أرسل الى الجزائر بعثة يرأسها ضابط القصر محمد شولاق وحسونة مورالى حيث استقبلا بكل عناية واكرام من طرف الجنرال كلوزال . وقد أجريت مباحثات سياسية بين الطرفين استعمل فيها الحاكم الفرنسى لهجة اثارت مستمعيه عندما اعلن لهم بأن : « دولة الفرنسيس ما صنعت هذا الامر مع دولة ومكنتها من قسنطينة وعمالتها الا مرادها انها بعد مدة تمكنها بجميع عمالة الجزائر وما احتوت عليه من البلدان بعد الاتفاق بينهم على ما يتراضوا (كذا) به ، واسمع منى يقينا وصدق به انه اثناء العامين من هذا الوقت لا بد تكون جميع عمالة الجزائر فى قبضة ملك تونس لما بينهم وبين دولة الفرانسيس من المودة » (2) كما صرح أيضا : « خذ منى يقينا واعلم به الجناب العلى ، انه لا يتم العام حتى يكون باشه (كذا) تونس مستوليا على جميع مملكة الجزائر » (3) .

---

* استندنا فى هذا البحث الى دور الوثائق التالية :
ا. د. ت = (ارشيف الدولة التونسية ـ دار الباى) تونس .
A.E. = ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس .
A.M.G. = ارشيف وزارة الحربية بفنسان بباريس .
A.O.M. = الارشيف الوطنى لما وراء البحار باكس اون بروفنس (فرنسا) .
F.O. = ارشيف الخارجية البريطانية بلندن .

(1) *A.E., Tunis N° 1* : من تقرير دولسبس الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 19 نوفمبر 1830 .

(2) **ا. د. ت الفهرست التاريخى ، القسم الاول وثيقة رقم 411** ، تقرير باللغة العربية من وضع حسونة وردياني باشا بتاريخ 26 جمادى الاولى 12/1246 ديسمبر 1830 .

(3) ا. د. ت ، **القسم الاول ، وثيقة رقم 410** ، تقرير باللغة العربية بتاريخ 17 جمادى الاولى 13/1246 ديسمبر 1830 . راجع ايضا الترجمة الفرنسية لهذه الوثيقة :
Mzali, M.S., « La cession de Constantine et Oran à des Princes Tunisiens », in *Revue Tunisienne*, N°s 1 et 2, 1948, pp. 1 - 39.

دغدغت هذه الوعود من مسؤول يدعى أنه يتكلم باسم فرنسا ، حسين باشا دى وكذلك الوزير الاكبر شاكير صاحب الطابع ، ولم يصدقا الامر وكانا يعتقدان ان فرنسا لا تستطيع لاسباب كثيرة ان تواجه الجزائر ولا ان تحكمها ، اذ أنها حققت ما كانت تطمح اليه وهو الانتقام من داى الجزائر حسين باشا ، وهذا ما تم لها بسهولة .

وقد صرح حسين باشا بأن فرنسا لا تستطيع المحافظة على الجزائر « وأن هاته البلاد سوف تعهد الى وأصبح الحاكم المطلق على ولاية الجزائر » (4) . وهذا هو السبب الحقيقى الذى جعل شاكير صاحب الطابع وحسين باشا يقبلان المعاهدة المقترحة عليهم ، تلك المعاهدة التى لا تعنى فى نظرهم سوى « بيع هاتين الولايتين بمبلغ يتراوح بين 15 و 20 مليون فرنك على أن يتم تسديد مليون كل سنة ، وبالنتيجة يصبح باى تونس السيد المطلق والملك الوحيد للتراب الجزائرى وان فرنسا لن يكون لها اى تدخل فى ذلك » (5) .

تلك هى العوامل الحقيقية التى حفزت حكومة الباى لقبول المعاهدتين دون أخذ بالاعتبار المناخ السياسى العام الذى كان يسود فرنسا ووزارة خارجيتها على الخصوص ، ولا طبيعة القضايا المعلقة والناتجة عن الاحتلال الفرنسى للجزائر والتى احدثت فى داخل الحكومة الفرنسية بعض التضارب والاختلاف حول مصير الجزائر . على أن قبول المعاهدة قد جابه من طرف أعضاء الديوان معارضة وقد نصحوا الباى خاصة بالتخلى عن المشروع المتعلق بوهران (6) لبعد هذه الولاية عن تونس . وقد تردد الباى فى قبول المعاهدة بادىء الامر خاصة وان شاكير صاحب الطابع الوزير الاكبر كان متغيبا عن الحاضرة ولكنه تحت الحاح قنصل فرنسا الذى طالب بالجواب فورا ، قبل حسين باشا باى بنود معاهدة وهران (7) على الرغم مما يلحق الولاية من « ضرر كبير علينا » (8) .

أما هدف الجنرال كلوزال فهو العمل على تجنب تنظيم حملة ستكون سيئة العواقب لاحتلال بيلك قسنطينة وكذلك وهران ، هذا فضلا عن ان الجيش الفرنسى لا يمكنه القيام بذلك ، ومن رأيه « ان بهذه الطريقة سيكون شرق الجزائر وغربه تحت سلطة بايين تونسيين ، وحيث ان مصلحتنا الحيوية

---

(4) *A.E., Tunis, N° 1* من تقرير وضعه هودير (Huder) وارسله الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 8 جويلية 1837 .

(5) **المصدر نفسه** .

(6) ابن أبى الضياف ، أحمد ، **اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان** ، ج 3 ، ص 176 ـ 177 ـ تونس .

(7) **ا. د. ت ، القسم الاول ، وثيقة رقم 420** ، كتب حسين باشا باى الى وزيره شاكير صاحب الطابع رسالة نقتطف منها ما يلى : « فاننا فى يوم التاريخ اجتمعنا بقنصل الفرنسيس وطلبنا منه تاخير قضية وهران وشقة الشوفار الى ان تقدم لنا كما اخبرناكم فى الجواب الذى وجهناه لكم امس . فقال اما شقف الشوفار فاننى نوخره لكم قدر عشرة ايام ، واما قضية وهران فلا بد من الجواب فيها فى الحين ، اما بالقبول أو بعدمه . فراودناه على التاخير مرارا فابى وصمم على طلب الجواب عاجلا فعند ذلك قبلناه منه وهران وعملها ... »
رسالة بتاريخ 19 رجب 3/1246 جانفى 1831 .

(8) **ا. د. ت ، وثيقة رقم 434** : رسالة من حسين باشا باى الى الجنرال كلوزال بتاريخ 23 رمضان 2/1246 مارس 1831 .

هو العمل على ان يبقيا اصدقاء فرنسا بل حلفاء لها فى المستقبل وان فرنسا ستربح ولا شك من هذا التحالف » (9) .

وبذلك لم يعلم الجنرال كلوزال الحكومة الفرنسية بامضاء المعاهدة الذى تم بتاريخ 18 ديسمبر 1830 ، معتقدا ان هـذه المسألة ادارية وذات طابع داخلى محض وهو الموقف الـذى سيترتب عنه معـارضة الحكومة الفرنسية فيما بعـد .

ودون ان نتعرض الى ولاية قسنطينـة والملابسات التى حفت بذلك ثـم الاجراءات التى تم اتخاذها بتونس بالتعاون مع السلط الفرنسية بالجـزائر ، نركز اهتمامنا لكل ما يتعلق ببيلك وهران والمعاهدة (10) المتعلقة به ، وهـو موضوع بحثنا هنـا .

ان الدارس لروح بنود هذه المعاهدة يلاحظ مدى استقلال الباى فى ادارة ولايته وان الدولة التونسية تعهدت بدفع 800.000 فرنك سنويا تسدد كـل ثلاثة أشهر ، وأن أحمد باى الذى عين بايا على وهران سيحمى جميع الرعايـا من كـل ما يمس مختلف أنشطتهم التجـارية والفلاحية وغيرهـا فضلا عـن تخصيص احد البنود للتاكيد على عدم تدخل الجنود الفرنسيين فى وهران بل يسمح لهم فقط بالاحتماء والاحتفاظ ببرج مرسى الكبير . وأن حسين باشـا باى ، والى تونس هو الذى يولى من يشاء من عائلتـه فى حالة شغـور منصب باى وهـران .

لقد اقتنع باى تونس بصدق نوايا الجنرال وأرسل لامضاء المعـاهدة الى الجزائر الوزير صاحب الطابع وسليمان كاهية (11) . وقد كتب الى كلـوزال « بأننا قبلنا ولايـة وهران لابن أخينا وابننا السيد احمد بـاى بانشراح قلب

(9) A.M.G., H 5 رسالـة من كلوزال الى وزير الحربيـة بتاريخ 1830/12/16 . وفى نفس هذه الرسالة يذكر كلوزال ان باى تونس الذى يسعى ان يستحق حماية فرنسا هو الذى اوحى للقنصل الفرنسى بتونس - اذا ما رغبت فرنسا اخضاع هذه الولاية ، تكليف احد افراد العائلة التونسية بالقيام بذلك ... وهذا تاريخيا غير صحيح ، ذلك ان المبادرة كانت من الجـانب الفرنسى حسبما تؤكده عديد الوثائق بباريس وتونس ، وليس هـذا التغليط هو الاول من نوعه والصادر عن الحاكم الفرنسى العام بالجزائر !

(10) ا. د. ت ، وثيقة رقـم 407 ، وتنص على شروط معاهدة وهران وهـى :

الشرط الاول : ان باشا تـونس هو الذى يدفع لزمة وهـران وعملها برا وبحرا بعـد ان يستولى عليها وعلى عملها استيلاء الحكام على محل ولايتهم وقدر اللزمة ثمانماية فرنك فى العـام .

الشرط الثـانى : ان هذه الدراهم المذكورة تدفع على اربع كرات بعد كل ثلاثة اشهر دفعة ومجموع الاربع دفعات هو القدر المذكور اعـلاه ربما فى المستقبل ينقص من هـذا القـدر المذكور حين تصير المكالمة والتدبير على ذلك .

الشرط الثـالث : ان جميع مداخيل وهران وعملها من اى جهـة كانت برا وبحرا وسهـلا وجبلا تكون للاسعد احمد باى وهران .

الشرط الرابـع : ان تجار الفرنسيس بوهران وعملها يؤدون اربعة فى الماية قمرقا وبقية الجنوس يؤدون قمرقا ثمانية فى المائة .

الشرط الخـامس : ان باى وهـران يلتزم ان يحمى جميع طوايف الافرنـج الذين ياتـون لوهران لاجل السكنى والمتجر والفلاحة وغير ذلك .

الشرط السـادس : ان عساكر الفرنساوية لا تاتى لوهران الا باذن الباى ما عدا المـرسى الكبيرة (كذا) فان البـرج يبقى فى يـده فقط ولا يتعرض لشىء من مداخيل البـلاد ولا غيرهـا .

الشرط السابـع : ان باشا تونس يولى فى وهران من شاء من نسله او اصهاره ويعلم به الجنـرال .

وزيادة مودة وحب .... ونحن متحققون مودة الدولة الفرنساوية فينا ومرادنا ان تكون قلوبنا متعاضدة وأنفاسنا متواردة ومحبتنا دايما متزايدة ، وبعد ايام نوجه رجلا من كبار دولتنا بمائتى نفر للجزائر ... خليفة عن حاكم وهران ومن الجزاير يتوجه الى وهران ونوجه له الف عسكرى من بلادنا ، ولما يخبرنا الخليفة باستقرار الامر واستقامة الاحوال يتوجه ابننا السيد احمد باى الحاكم بالف عسكرى أخرى لان محبتنا فى الفرنسيس ثابتة الاركان وثيقة البنيان فأحببنا ان نظهر سر ذلك للعيان » (12) .

واثر توقيع المعاهدة طالب الجنرال كلوزال من أحمد باى بالتحول مباشرة الى وهران وفى أقرب فرصة ممكنة لاستلام سلطته ذاكرا له فى رسالة كان قد وجهها اليه : « لقد وافقت على التسويات المتعلقة بتعينكم على بيلك وهران ، ثم ان قنصل فرنسا العام بتونس قد كلف بتبادل وثائق الاتفاق ، وعندما يتم هذا الاجراء ، آمل ان تسرعوا فى تولى سلطتكم ولا يسعنى الا توصيتكم بابحاركم فى أقرب فرصة ممكنة . ان وصولكم الى وهران يهم فرنسا وتونس وخاصة الشعوب (كذا) التى أنتم مدعوون الى ممارسة سلطتكم عليها » (13) .

ونتيجة لتعدد هذه الاجراءات السياسية والتزام الحكومة التونسية باستلام ادارة وهران كلف الباى القائمقام خير الدين اغا بالتوجه الى وهران رفقة مائتين وخمسين جنديا لدراسة الوضع وتقديم تقرير عام عن ولاية وهران وتهيئة ظروف قدوم أحمد بای . ويعكس هذا التصرف الذى تبناه الباى ومن ورائه شاكير صاحب الطابع مدى الحذر الذى لازم الحكومة الفرنسية خاصة اذا كان الامر يتعلق بصرف مبالغ ضخمة فى ظرف كانت ولاية تونس تعيش أزمة اقتصادية تمتد جذورها الى سنة 1815 (14) .

وقد وصل خير الدين اغا صحبة الجنود التونسيين الى الجزائر فى 24 جانفى 1831 واستقبل القائمقام من طرف الجنرال الذى طمأنه على الوضعية العامة وأنه سوف يجد الولاية هادئة تماما وان جميع البدو سينقادون لسلطته بل سيجد القائدين مصطفى بن اسماعيل ومورصالى فى انتظاره لتسهيل امر اقامته وتوليته السلطة (15) .

وبالفعل وصل خير الدين الى وهران بتاريخ 9 فيفرى 1831 ونزل مرفأها صحبة جنوده وحيث توجه مباشرة الى « البرج الاحمر الذى هو محل الحاكم والعسكر الذى معنا كله فى البرج المذكور ... » (16) .

---

(11) Ageron, Charles-Robert, *Le Gouvernement du Général Berthezène à Alger en 1831*, p. 99, thèse complémentaire, encore manuscrite.
يرى المؤلف ان المعاهدة وقعت من طرف مصطفى باى ، وهذا غير صحيح .

(12) ا. د. ت ، القسم الاول من الارشيف التاريخى ، وثيقة رقم 421 ، رسالة بتاريخ 20 رجب 4/1246 جانفى 1831 .

(13) *A.M.G., H 6* رسالة بتاريخ 8 فيفرى 1831 .

(14) Cherif, Mohamed, « Expansion européenne et difficultés tunisiennes de 1815 à 1830 » pp. 714-745, in *A.E.S.C.*, mai - juin, 1970.

(15) Demontès, Victor, « Un essai de protectorat tunisien à Oran (9 février - 22 août 1831) » p. 251-288, in *Revue de l'Histoire des Colonies Françaises*, t. XV, Paris, 1923.

(16) ا. د. ت ، وثيقة رقم 429 ، رسالة من خير الدين اغا الى حسين باشا باى بتاريخ 3 رمضان 15/1246 فيفرى 1831 .

ما هى الوضعية السياسية والاجتماعية لبيلك وهران بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر مباشرة وكيف كانت مدينه وهران حين دخلها التونسيون ؟

كان على رأس بيلك وهران حسن بى ، وكان رجلا مسنا ، وقد تظاهر بعد الاحتلال بتاييد الفرنسيين ، وهاج الناس فى وهران وتلمسان وعبروا عن سخطهم لموقف الباى المتخاذل وتحققوا من ميله « الى ملة الكفر ورضاه بالوقيعة فى دينه وخشوا تراكم الفتن واختلاف الآراء ... » (17) ، بل ذهبوا حتى الى محاصرة قصره بزعامة مصطفى اغا ، متهمين اياه بالتعاون مع الفرنسيين خاصة بعد احتلال الجيش الفرنسى المرسى الكبير . وقد عبر المفتى هو الآخر عن تخوفه من الوضع معلنا أن سلطته أصبحت لا أثر لها وسط هذه الفوضى الادارية مهددا بمغادرة البلاد الى المغرب الاقصى » (18) .

وعلى هذا الاساس لم يعد بمقدور الباى أن يرعى المواطنين ولا أن يفرض عليهم سلطته وأصبحت المدينة بل البيلك كله يعيش وضعا سياسيا لم تعرفه المدينة من قبل ، وطبق قانون الغاب وقد خشى الناس المصير خاصة بعد هيجان الاتراك (19) الذين طالبوا بمغادرة البلاد الى الاناضول اذا لم تتوفر لهم وسائل الرزق . وقد عجز الباى حسن عن القيام بتسديد رواتبهم بل اضطر الى بيع أغراضه الشخصية لمواجهة الموقف ، ولكن بدون جدوى ، يضاف الى كل هذه العوامل استيلاء المغاربة على تلمسان ومناداة مولاى على ملك عليها . بل ان هذا الاخير وجه رسالة الى حسن باى يذكره فيها انه الوحيد الذى قبل العيش تحت سيطرة الفرنسيين و « أنكم اذا غادرتم الصف الفرنسى حالا ووليتم وجهكم نحونا ، فاننا نضمن لكم الامان التام ، وعلى أية حال ستكونون مجبرين على الانصياع تحت سلطة قوانيننا كبقية العرب والقبائل ، سلموا مدينة وهران الى لأقيم بها حكم ملك المغرب ، واذا رفضتم الانقياد ، سوف أهجم عليكم واستولى عنوة على مدينة وهران » (20) .

ونتيجة لهذا الوضع الخطير والمتأزم ، قرر حسن باى مغادرة البلاد مصطحبا معه 175 شخصا متجها ، على متن سفينة فرنسية ، الى مدينة كرتجان (Carthagène) باسبانيا (21) وحاملا معه ما أمكنه حمله من أمتعته وثرواته الشخصية ، تاركا البيلك كله فى وضع فوضوى غير مأمون من الفرنسيين وهجمات البدو على حد سواء .

وقد استغل الفرنسيون الوضع عندما أمر الجنرال دمرمن (Damrémont) باحتلال مدينة وهران نظرا لشغور منصب الباى وقد تم له ذلك بسهولة . وقد جابه دمرمن مدينة لا حياة اقتصادية ولا تجارية فيها وقد كتب الى حاكم الجزائر يطلب منه ارسال الحطب واللحم لمختلف وحدات الجيش وانه يأمل « ان لا يضطر الى تحطيم المنازل للحصول على لوحها للاشتعال » . (22)

---

(17) *A.E., C.D., Maroc N° 3, 1830-1832* : رسالة من ملك المغرب الاقصى الى اهل تلمسان بتاريخ 1830/1246 ـ 1831 .

(18) *A.M.G., H 5* : رسالة من قائد السفينة الراسية بوهران الى حاكم الجزائر العام بتاريخ 9 اكتوبر 1830 .

(19) **المصدر نفسه** ، يذكر ان عدد الاتراك بلغ فى شهر اكتوبر 1830 ، حوالى 800 انكشارى.

(20) *A.M.G., H 5* : من محتوى الرسالة التى وجهها مولاى على الى حسن باى وحيث وجهها هذا الاخير الى الحاكم الفرنسى العام بالجزائر بتاريخ اوت ـ سبتمبر 1830 .

(21) *A.M.G., H 6* : رسالة من قنصل فرنسا بكرتجان الى وزير البحرية والمستعمرات بتاريخ 16 جانفى 1831 .

(22) *A.M.G., H 6* : رسالة بتاريخ 1831/2/3 .

وقد استمر الوضع غامضا طوال صيف وخريف 1830 ، وقد التجأ الناس الى تلمسان وقرر جمعهم مناشدة سلطان المغرب لحمايتهم والانضواء تحت سلطته وطاعته ، بل ان فريقا من أعيان المدينة يتزعمهم مصطفى بن اسماعيل والحاج بن الخضر وابن أخيهما المازرى وجميع أعيانهم ، توجهوا الى السلطان لاقناعه ببسط حمايته عليهم » (23) .

والواقع ان سلطان المغرب كان هو الاخر غير مرتاح للاتراك بتلمسان . وكان يرى ان اجتثاثهم من بيلك وهران سيسهل عليه هو الاخر ضم تلمسان اليه وربما بيلك وهران كله ، وهذا ما يبرر سرعة استجابة السلطان ووزيره محمد بن ادريس لأهل تلمسان حيث رد عليهم بأنه « ورد على حضرتنا العلية بالله أعيان أهل تلمسان وقبايل جوزها راغبين فى دخول فى طاعتنا أو مستبحرين لولايتنا طالبين منا الكون (كذا) من رعيتنا لنحميهم ونذب عن حوزتهم ونجمع كلمة (كذا) لما رأوا اندثار دولة الترك واستيلاء العدو الكافر على قاعدة ملكهم ردها الله (الى) دار الاسلام . ولما حققوا (كذا) ميل باى وهران الى ملة الكفر ورضاه بالوقيعة فى دينه وخشوا تراكم الفتن واختلاف الآراء فاجبنا داعيهم ورجونا بحول الله وقوته حفظهم ورعيتهم (كذا) وجمع كلمتهم مع المسلمين غيرة على الاسلام وأهله وحفظا للدماء والاعراض والاموال ووجهنا محلتنا السعيدة صحبة ابن عمنا الفقيه الارضى مولاى على أصلحه الله ووفقه ... فان العدو الكافر دمره الله منتظر للفرصة فى المسلمين وتفريق كلمتهم فمهما رءا (كذا) ثلمة بادر اليها وغرة اعتمد عليها وأى شىء يجب على عدو الدين للمسلمين فارغموا أنفه وافعلو (كذا) ما يسوءه من اجتماع كلمتهم مع اخوانكم لان المؤمنين أخوة ... » (24) .

وبالفعل توجه مولاى على الى تلمسان التى استولى عليها باسم سلطان المغرب ، ذلك أن أهل تلمسان فى نظر حكومة السلطان « مسلمون أحرار (25) ولما عبروا عن رغبتهم فى الدخول الى ايالته وقف للسلطان عارهم وقبلهم ولا مضرة فى ذلك لجنسكم (الفرنسيين) اذ كان مرادهم الجزاير فقد ملكوها واستولوا عليها والترك انما هم غاصبون لملك تلك النواحى وقاهرون لأهلها وقد أخرجهم الله من رقهم وكل واحد اختار لنفسه ما يصلحه ولا غضاضة فى ذالك (كذا) ولا لومة (كذا) وليس فيه ما يكدر المحبة » (26) .

وقد اثار استيلاء المغاربة على تلمسان واللهجة التى استعملها مولاى على مع حسن باى ، استياء وغضب الجنرال كلوزال الذى سرعان ما أرسل انذارا خطيرا من تلقاء نفسه وبدون مشورة الحكومة الفرنسية شانه فى ذلك شأن المعاهدة التى عقدها مع التونسيين ، وقد طالب فى هذا الانذار من سلطان المغرب ، انه اذا لم يحصل خلال الاربع والعشرين ساعة الترضية التى يطالب بها ، فانه سوف يحمل على أرضه فيلقا من الجيوش ، يغادر اليوم وهران

---

(23) *A.M.G., H 5* : رسالة سرية من قنصل فرنسا دولابرت (Delaporte) بطنجة الى سيدى محمد بن ادريس بتاريخ 1830/10/29 .

(24) *A.E., C.D., Maroc N° 1* : رسالة بتاريخ 1830/1246 (ما بين شهر اكتوبر ونوفمبر 1830) .

(25) **المصدر نفسه** ، رسالة من محمد بن ادريس الى قنصل فرنسا بطنجة بتاريخ 5 جمادى الاول 22/1246 اكتوبر 1830 .

(26) **المصدر نفسه** .

وسوف يلحق بولاياته نفس الاضرار ويأخذ ثاره وبالتالى سوف يضرب حصارا على موانئـه » (27) .

وتبدو لنا جليا اذن الاسباب الحقيقية التى دفعت الجنرال كلوزال أن يلح على التونسيين فى امضاء المعاهدة والاسراع بالقدوم على وهران لشعوره أن الوضع العام للبيلك متدهور جدا ، هادفا بذلك ضمان استمرار السلطة الفرنسية بهذه المنطقة والعمل على ادخال للخزينة العامة نفس المبالغ التى كان يسددها الباى الى الداى ، وبأقل الاجراءات التعسفية على المواطنين كما كان الحال بالنسبة للحكومة السابقة (28) .

تلك هى المعطيات العامة للظروف الدقيقة التى وصل فيها التونسيون لاستلام السلطة بوهران ، وقد أخفى الفرنسيون عنهم حقيقة الوضع ، بل لقد غرروا بهم موهمينهم بأن الامن يسود البلاد تماما وأن أسواقها محط تجارة كبيرة . غير ان القائمقام خير الدين اغا عندما وصل الى المدينة ، التى لم يتجاوز عدد سكانها الثلاثة آلاف ساكن (29) لم يجد سوى « قدر خمسمائة يولطاش (30) وعسكر الفرنسوية واليهود لا غير وشىء يسير من المزابية والعربان كلها تفرقت » (31) و « ان هؤلاء الناس لا أمان لهم بحيث أن المحلة من النصف فى رمضان رميناها وليس لنا رجالا (كذا) بما نعارضوا (كذا) الفتن الواقعة فى البلدان كتلمسان وغيرها بين العسكر والبلدية ، والعربان أيضا الضعيف يفاتنه القوى ... » (32) و « أن الديار التى بها حيطانها موجودة لا غير وأن السقوفات والبيبان (33) كسرها الفرنسيس لاجل الشعول وجميع سكان البلاد وجميع العربان كلها توجهت الى الشريف الذى بتلمسان » (34) .

كانت البلاد تعيش فوضى سياسية وكان الجيش الفرنسى بقيادة لوفول (Lefol) قائد الحامية الفرنسية بوهران ، هو الحاكم الفعلى والمطلق للبلاد ، أما الشعب فإن طبقته الواعية قد غادرت المدينة والتجأت الى تلمسان لرفضها مبدا الخضوع لحاكم غير مسلم و « العربان يقولون لا ندخلوا (كذا) لبلد فيها النصارى » (35) وانعدمت بذلك الطمأنينة الاجتماعية وهذه نتيجة حتمية

---

(27) *A.M.G., H 5* : رسالة من كلوزال الى قنصل فرنسا بطنجة بتاريخ 1830/12/9 . غير ان القنصل الذى استغرب استعمال هذه اللهجة ، لم يجرؤ على مبادرة السلطان بذلك ، حتى يطلع راى وزير خارجيته الذى سرعان ما ادرك خطورة الموقف الصادر عن كلوزال ، وان لا ياخذ بالاعتبار اوامر الجنرال ، بل يطلب ولكن بلطف من ملك المغرب تعويض الخسائر واخذ رايه فى الموضوع ، راجع : *A.M.G., H 6* : رسالة بتاريخ 1831/1/1 .

(28) *A M.G., H 5* : رسالة من كلوزال الى وزير الحربية الفرنسية بتاريخ 1830/10/25 .

(29) *A.M.G., H 4* : تقرير موجه الى حاكم الجزائر العام بتاريخ 1830/9/28 .

(30) من الكلمة التركية يولداش اى الانكشاريون .

(31) **ا. د. ت ، القسم الاول من الوثائق التاريخية ، وثيقة رقم 415** ، تقرير خير الدين اغا الى حسين باشا باى بتاريخ شهر فيفرى 1831 .

(32) **ا. د.ت ، القسم الاول من الوثائق التاريخية ، وثيقة رقم 389** ، رسالة خير الدين اغا الى الوزير الاكبر التونسى شاكير صاحب الطابع بتاريخ 10 ذى القعدة 4/22/1246 1831 .

(33) اى السقوف والابواب .

(34) **ا. د. ت ، وثيقة رقم 429** ، رسالة من خير الدين اغا الى حسين باشا باى بتاريخ 3 رمضان 15/1246 فيفرى 1831 .

(35) **ا. د. ت ، وثيقة رقم 437** ، رسالة خير الدين اغا الى شاكير صاحب الطابع بتاريخ 28 شوال 1831/11/1246 .

لمختلف الارتجاجات السياسية والاجتماعية التى كانت بلاد الجزائر برمتها مسرحا لها ، هذا فضلا عن انعدام تعاطى اسواق المدينة حركة البيع والشراء ، وهذا ما جمد أبسط مظاهر الحياة بالمدينة ، بل ان خير الدين اغا لم يجد ما يقر لديه العزم على مجابهة المصاريف اليومية المرتفعة خاصة اذا كان الامر يتعلق برواتب الجنود التونسيين والاتراك . وما يتطلبه تنشيط الحياة السياسية والاقتصادية من موارد ضخمة تعجز ميزانية البيلك فى هذه الظروف عن القيام بها خاصة اذا علمنا ان خير الدين لم يجد شيئا يذكر بالخزينة .

لم يشجع هذا الوضع خير الدين على البقاء ، بل طالب الحاكم الفرنسى العام بالغاء هذه المعاهدة والعودة حالا الى تونس ، معتقدا أن الفرنسيين غالطوا الحكومة التونسية تماما بادعائهم أن الامن مستتب بالبيلك ما عدا تلمسان (36) . الا أن رد كلوزال كان شديد اللهجة مؤكدا ان قصر المدة التى قضاها لا يمكن أن تكون حكما على الوضع ومذكرا فى نفس الوقت بالمنافع التى سيحصل عليها التونسيون من هذه المعاهدة (37) .

وفى هذا الظرف وصل الى علم الحكومة التونسية وخير الدين اغا ان الحكومة الفرنسية لم توافق على نص المعاهدتين المتعلقتين بقسنطينة ووهران ، ذلك أن وزير الخارجية الفرنسية الذى استاء من موقف كلوزال فى قضية الانذار لسلطان المغرب ، واجه قضية أخرى لا تقل أهمية وخطورة ، وقد ثار ضد سلوك الجنرال الخارج عن العرف السياسى عندما أخذ المبادرة بالتفاوض مع دولة أجنبية وليس له أية سلطة تنفيذية للقيام بذلك وهذا ما يبرر طبيعة الموقف المعارض لروح هذه الاتفاقية . وقد كتب الى وزير الحربية منددا بهذا العمل : « وجب على أن الفت انتباهكم الى المضار التى ستنجر عن هذه المعاهدة ومن ذلك الاسراع فى هذه المسألة ومعرفة ما اذا سنقرر البقاء نهائيا فى الجزائر أم لا ؟ وفى حالة بقائنا ، فاننا سنعمل بالتأكيد على الاحتفاظ بثمرة نصرنا ... اننا لو درسنا بنود هذه المعاهدة فسنلاحظ تنازلا كاملا لحقوقنا لفائدة تونس .. » (38) .

وقد ترتب عن هذا الموقف ان طلب الجنرال كلوزال اعفاءه من منصبه والتحاقه بفرنسا حيث وافقت الحكومة الفرنسية على ذلك فى الحين ليتم تعويضه بالجنرال برتزين (Berthezène) الذى وصل الى الجزائر مع أوائل شهر فيفرى . غير ان كلوزال ما فتىء يدافع بحرارة عن مشروعه ، محاولا اقناع وزير الحربية بذلك : « ان التسويات المتعلقة بولايتى قسنطينة ووهران ليس لها أى طابع سياسى ويجب ان ينظر اليها على أنها اجراءات ادارية داخلية ... ان رغبة استعمار الجزائر كلها الآن واقامة مراكز عسكرية فى المناطق الحساسة وادعاء الاستحواذ والاحتفاظ من اليوم بكل شىء تحت سلطتنا المباشرة هو فى رأيى مشروع خيالى وحتى لو حاولنا ذلك ، فاننا سنعرض نجاح مراكزنا بافريقيا الى الخطر ونضطر الى مصاريف باهظة ومشطة . ان قراركم بتعديل اى تغيير او الغاء ما قمت به يتوقف عليكم فقط ،

---

(36) راجع نص رسالة خير الدين اغا الى كلوزال بتاريخ 1831/2/16 بـ :
Demontès, *op.cit.*, pp. 256 - 257.

(37) المصدر نفسه .

(38) *A.O.M., Serie E - liasse 164* : رسالة بتاريخ 31 جانفى 1831 ، قارن ايضا :
A.M.G., H 6 :

لكن المستقبل سيكون كفيلا بتأكيد تقديراتي وسيضطركم الى اعادة ما بنيته متجشمين مصاريف كبيرة » (39) .

ولدى وصول برتزين الى الجزائر ، عمل على فهم الاوضاع السياسية المعلقة آنذاك ودرس عن كثب أبعاد معاهدة وهران ومدى صلاحيتها وتطبيقها بالنسبة لفرنسا ، ومن الوجهة العملية ، كان يرى أن الجنرال كلوزال كان يهدف بتعيينه بايا تونسيا هو اجراء اتفاق سياسي وهي عملية مالية لفائدة الخزينة (40) ، ونظرا لعدم وجود أي شخص بالايالة يوفر له الضمانات الكافية لتسديد هذا المبلغ ولا المحافظة على البلاد ، ارتأى تعيين أحد التونسيين ، وبالاستناد الى عدد من الاعتبارات كان الجنرال برتزين يؤيد الموافقة على هذه المعاهدة « على أن عكس ذلك سوف يضر موقفنا ويحول رعايا الولاية وكذلك ولاية تونس الى اعداء لنا » (41) ، بل ان الجنرال ذهب الى اكثر من ابداء الرأى حول المحافظة على نص المعاهدة وتطبيقها بل الدفاع عنها عندما كتب الى وزير الحربية منبها اياه : « ان السبب الرئيسى الذى أثاره وزير الخارجية (لرفض المعاهدة) وهو الحكم مسبقا على مسالة الاحتلال أم لا، تبقى فى نظرى هامة ولكنها غير ثابتة ، ان لنا الحق فى ادارة البلاد التى فتحناها ، وماذا يهم بالنسبة للدول الاوروبية الكبرى اذا عينا تركيا أو جزائريا أو تونسيا لادارة البلاد » (42) وقد نجح الجنرال برتزين فى اقناع حكومته بالاستمرار فى تأييد بنود المعاهدة وتنفيذها فى الظروف الراهنة . وكانت الحكومة ترى ، بعد هذه المساعى ، المحافظة على الاتفاقية المبرمة وتنفيذها دون الزج بالجيوش الفرنسية فى حلبتها (43) .

اما الحكومة التونسية فلم تحتج الى جهد كبير لادراك موقف الحكومة الفرنسية ، التى لم توافق بادىء الامر على نصوص المعاهدتين ، ولكنها فوجئت بذلك وأصيبت بخيبة عميقة خاصة وأنها تحملت مصاريف ضخمة لالتزامها بالمعاهدة ، وعلى الرغم من هذا فان التونسيين « لثقتهم المطلقة فى العدالة والامانة الفرنسية ، فانهم سيستمرون فى تجهيزاتهم الحربية » .

وقد طالب حسين باشا من الجنرال كلوزال العمل على التدخل لدى حكومته لاقناعها بقبول شروط معاهدة وهران (44) ، وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على عدم ادراك الواقع السياسى العام الفرنسى وضعف المخابرات التونسية لفهم الملابسات العامة ، فضلا عن عدم تتبعها لما تنشره الصحافة

---

(39) A.N., F80, N° 1670 (الارشيف الوطنى بباريس) : رسالة بتاريخ 1831/6/14 .

(40) ذكر الجنرال برتزين فى تقرير له لوزير الحربية الفرنسية ان كلوزال قد أسر اليه ما يلى : « عندما تم تعيين تونسيين على راس البيلك لم يكن الهدف من ذلك عقد اتفاقية سياسية ، بل هى قضية مبلغ مالى لفائدة الخزينة ، قارن :
Berthezène, Général, *Dix-huit mois à Alger*, pp. 182-183, Paris, 1833.

(41) *A.M.G., H 6* : رسالة من برتزين الى وزير الحربية بتاريخ 1831/2/21 .

(42) *A.M.G., H 7* : رسالة من برتزين الى وزير الحربية بتاريخ 1831/3/8 .

(43) *A.M.G., H 7* : تعليمات من وزير الحربية الى الجنرال برتزين بتاريخ 1831/3/11 .

(44) ا. د. ت ، **وثيقة رقم 434** ، كتب حسين باشا إلى كلوزال بتاريخ 23 رمضان 1831/3/7/1246 :
« لقد قبلنا منكم وهران وعملها بالشروط التى وجهتم الينا (كذا) وان كان فيه ضرر كبير لا ترونه الينا ... وانتم بمقتضى المحبة تبذلون غاية الجهد فى اتمام شروط وهران مثل شروط قسنطينة ... فالمرجو منكم ان تبذل الجهد فى فرانسة على اتمام ما وقع بيننا من الاتفاق ... » ، راجع ايضا *A.M.G., H 7* : رسالة بتاريخ 7 مارس 1831 .

الفرنسية آنذاك ، وخاصة الصحافة المعارضة التى شجبت المعاهدة وجردتها من كل نجاح عملي .

ونظرا لقبول حسين باشا باى المعاهدة والتزامه بجميع بنودها وخاصة البند المتعلق بتسديد مائتى الف فرنك كل ثلاثة أشهر وان الدفعة الاولى قد وعد بها (45) للفرنسيين ، طالبت الحكومة التونسية خير الدين اغا أن يقف « على ساق الجد فى ضبط المحصولات التى تتحصل فى العمالة ... ومعلومكم ان دفع الكرة الاولى من المال قرب وقته ومقصدنا أن يكون المال من محصول العمالة وكذلك المصاريف ولما يحل وقت دفع المال نأذنك تدفعه ... فعليك ابننا بضبط القمارق ورد البال من السراحات » (46) .

لم يكن حسين باشا ولا وزيره شاكير صاحب الطابع يتصوران حقيقة الوضع بوهران ولا المخاطرة التى قاما بها وزجا فيها الجنود التونسيين ، ولا طبيعة المشاكل والفراغ السياسى والادارى والاقتصادى للبيلك فى هذه الظروف . وقد كان رد خير الدين حاسما ومخيبا للآمال عندما نقل صورة أمينة للوضع ، ولم يتردد فى القول مخاطبا الوزير الاكبر : « قول سيادتكم نبين لكم محصول العمالة ، تعلم يا أخى أننا الآن ليس بصدد هذا الامر ولا يمكن يصدر منا لأحد ، لان الناس كلها فارة ولا وجدنا من نطالب ونحن ليس لنا مدخولا (كذا) الآن الا من القمرك فقط ونلفقوا (كذا) فىاحوالنا بما أمكن واما غير القمرك فلا تظن درهم (كذا) واحد » (47) . وفى رسالة أخرى يذكر خير الدين كيف أنه لم يجد شيئا يذكر بالخزينة ولا بمخزن الذخيرة وان الذى « وجدناه فى الخزينة فانه أمر لا ينبغى ذكره ... (48) وخل وبعض دوزان وجانب سكرة وأصحنة وصناديق فارغة ومخزن به ثلاثة عشر خابية سمن منها اثنين مملوءين (كذا) والبقية للنصف وأقل من النصف وزوج خوابى زيتا وبقية زيت واثنين وعشرين بغلة لاكن (كذا) عند الفرانسيس يخدمون عليهم (كذا) ضرورينهم ولاكن (كذا) مرجعهم الينا ومائة وأربعة وثمانين بردعة وستة أحصنة ... » (49) وكما « وجدنا بزمام حسن باى فصل به ستة الاف ريال وليس ثلاثون (كذا) الف كما جاء فى رسالتكم وان من كتبها كذب على سيادتكم » (50) .

كان على خير الدين اغا بادىء الامر ان يواجه الانكشاريين الاتراك البالغ عددهم 465 نفرا ، وكانت سياسة خير الدين تعمل على جلبهم بزيادة رواتبهم الشهرية فأصبحوا يستلمون 4 ريالات بوجو فى كل شهر عوضا عن ثلاثة

---

(45) ا. د. ت ، وثيقة رقم 418 ، وصل بتاريخ 1831/1/19 .

(46) ا. د. ت ، وثيقة رقم 436 ، رسالة من حسين باشا الى خير الدين اغا بتاريخ 3 شوال 1831/3/7/1246 .

(47) ا. د. ت ، وثيقة رقم 389 ، رسالة من خير الدين اغا الى شاكير صاحب الطابع بتاريخ 10 ذى القعدة 1831/4/22/1246 .

(48) كلمة غير مقروءة فى النص الاصلى للوثيقة .

(49) ا. د. ت ، وثيقة رقم 415 ، تقرير خير الدين اغا الى الحكومة التونسية بتاريخ 1831/2/9 .

(50) ا. د. ت ، وثيقة رقم 389 ، رسالة من خير الدين اغا الى شاكير صاحب الطابع بتاريخ 10 ذى القعدة 1831/4/22/1246 .

(51) وفى وثيقة أخرى يذكر خير الدين انه يسلم بالاضافة الى 4 ريالات بوجو كل شهر « ياخذون الخبز يومى (كذا) وقمح وسمن وزيت مونة (كذا) كل شهر » ، راجع هذه الوثيقة بـ

ا. د. ت » رقم 429 ، رسالة بتاريخ 1831/2/15 .

كما كان سابقا (51) ، بالاضافة الى خمسين ريالا كل ستة أشهر وكذلك تسديد راتب اضافي عند حلول شهر رمضان ، وقد تم لهم ذلك . ومع هذا طالب الانكشاريون من خير الدين اغا تسديد مبلغ 50 ريالا لكل واحد منهم في الشهر الموالي . ولما رفض لهم هذا الطلب ثارت ثائرتهم : « ولم يبيتون (كذا) تلك الليلة بالمحلة. وأرسلنا لافتكاك سلاحهم وهي الماتين (كذا) مكحلة صنداد الذي اخذنا (كذا) من عند الفرانسيس وخاطبناهم بأن البحر ليس لهم قدره (كذا) على التوجه فيه والبر فان العربان يقتلونهم قتلا شنيعا . فلما تحقق عندهم خطابنا رجعوا على بعضهم بعضا » (52) . كما وزع عليهم كعادتهم عند حلول شهر رمضان « 25 انفار قمح . ثلاثة فنيقات قمح قدره ستة ويبات تونسي وقدر قلتين سمنا وقلة زيت وعادتهم يأخذون أكثر مما ذكرنا وفرقناهم في الابراج والظاهر منهم الفرح والسرور » (53) .

غير أن الاتراك الذين عودتهم الظروف على الهيجان واعلان العصيان ، اتفقوا مع العرب : « بأن يوصلوهم الى تلمسان ، ووقع منا غيظ كبير الى ان أردنا تسييب (اطلاق) المدافع على القهوة المجتمعين بها ، ثم رجعوا » (54) ويعكس هذا مدى الاضطراب النفسي الذي كانت تعيشه الجالية العثمانية ببيلك وهران ، خاصة وقد وجدت نفسها بين عشية وضحاها اتباعا للفرنسيين تارة وللتونسيين طورا آخر ، بعد ان كانوا اسياد البلاد .

وقد تحول اهتمام خير الدين آغا الى نشر الطمانينة بين الرعايا وجلب أعيان البلاد اليه وكسب ثقتهم والعمل على تشجيع توافد اعراب المنطقة على وهران لتنشيط التبادل التجاري والخروج بالبلاد من وضعها الحالي ، ذلك أن « تلمسان ومستغانم وأم عسكر يتفاتن كل عسكر بالبلدان المذكورة مع البلدية والعربان الذي بازاء كل بلدة والناس أكلت بعضها بعضا ولا وجدنا رجالا نمانعو (كذا) هذه الفتن ... وليس بوهران الا البعض من الدواير والزمالة وقلوبنا ليست مطينة (كذا) بهم ولا بالعسكر المذكور لانهم أناس ظاهرهم شيء وباطنهم شيء ... » (55) .

وقد تركزت خطة خير الدين على مكاتبة رؤساء العرب والقبائل واحاطتهم علما بوصوله وتقليده أمر البيلك وقد وفد عليه عدد كبير من الرؤساء وعلى رأسهم عدة بن محمد قدور « الذي أظهر لنا النصيحة وطلب منا الكتب لأناس عديدة فكتبنا له ولبسناه برنوسا ملفا عمارته فضة وحرير على عادة بلادهم ، واتفق معنا على انه يجمع أهل الزمالة كلها وينزل بنواحي البلاد » (56) ، كما وصل الى وهران اخو مصطفى بن اسماعيل ، كبير الدواير بالمنطقة وتحادث معه حول الوسائل الفعلية باطلاق سراحه من شريف تلمسان الذي سجنه .

وقد حقق خير الدين اغا ما اقترحه عليه الوهرانيون أن يعين « قاضيا ملكيا (كذا) لان البلاد ليس بها الا قاضيا حنفيا (كذا) لان الاحباس كلها ضاعت ، فوافقنا على ذلك واعلمنا عن رجل فقيها (كذا) كان قاضيا وطلب منا الكتب اليه فكاتبناه » (57) . ثم ورد على خير الدين اغا اعيان البلاد شيئا فشيئا وقد

---

(52) ا. د. ت ، وثيقة رقم 390 ، رسالة بتاريخ 1831/4/22 .
(53) راجع مصدر الملحوظة رقم 49 .
(54) راجع مصدر الملحوظة رقم 52 .
(55) المصدر نفسه .
(56) راجع مصدر الملحوظة رقم 49 .
(57) المصدر نفسه .

طلبوا اليه تنظيم حملة على تلمسان والعمل على ارجاع هذه المدينة الى بيلك وهران واطلاق سراح الحاج البراسيلى ومصطفى بن اسماعيل اللذين بهما تستقيم البلاد ... وقد تكلمنا مع الرجال المذكورين بأن عساكرنا قادمة من تونس المحروسة عن قريب ونحن نترقبوا (كذا) فيهم كهلال العيد ولم يظهر لنا من سيادتكم شيئا (كذا) حاصله سيدى أن مثل هذا الامر لا ينبغى فيه التغافل والتراخى لان العسكر ليس عندنا الا الذى ذكرناه ... فالمطلوب من سيادتكم ارسال العساكر والمونات (58) (كذا) من بشماط وزيتا وزيتونا (كذا) وخل ... » (59) كما طلب بارسال بنادق حديثة وبرانيس تونسية لاعيان مدينة وهران (60) . وقد مده حاكم الجزائر العام بـ 200 جندى و 250 بندقية (61) .

لم يخف خير الدين اعجابه بوهران والموقع الاستراتيجى الذى تتمتع به المدينة فضلا عن القلاع الضخمة التى تحيط بالمدينة « وان البلاد فى غاية الحصن والابراج بها من كل ناحية » ولكنها مجردة من المدافع وأن البيلك فى رأيه « مملكة عظيمة » و « بلاد نظيفة » وانه اذا قر قرار الحكومة التونسية الاستمرار فى تنفيذ المعاهدة ، فان واجب الحكومة التونسية مساعدته على حكم البلاد ليتسنى له تنشيط الحياة الاقتصادية وارجاع الثقة الى نفوس الاهالى ، وقد أعطت سياسة خير الدين اغا بادىء الامر ثمرتها ، فقد أخذ الناس يتوافدون عليه وقد « اتتنا العربان بالاسعاى » (62) وبجميع الاثمار وبالقمح والشعير .

وقد تحسن الجو السياسى العام عندما شاع الخبر بأن الحاج البرسيلى ومصطفى بن اسماعيل أطلق سراحهما حاكم تلمسان وان القبائل عبرت عن كبير ارتياحها لهذا الحدث ، وقد قدمت على وهران معلنة خضوعها الى خير الدين . يضاف الى هذا قدوم 300 جندى تونسى (63) الى وهران مما زاد فى تعزيز شوكة خير الدين لدى الاعراب الذين أخذوا يتوافدون على المدينة بكثرة منشطين حياتها الاقتصادية . وقد أصبحت وهران من كثرة الواردين عليها فى هذا الظرف معرضا وليست سوقا ، وقد وصل القمح بكميات كبيرة كما حمل الاعراب انواعا مختلفة من البضائع وحتى الفحم والحطب فقد وجدا بكميات كبيرة ولم يشاهد مثل هذا الامر من قبل .

ونتيجة لهذا الانتعاش الاقتصادى بالمنطقة ، وفراغ الخزينة من جهة أخرى وعدم وصول أى نجدة من تونس لمواجهة المصاريف المختلفة والمتعددة اضطر خير الدين ان يبيع الى اليهودى بعض الرخص لتصدير منتوجات البلاد الى الخارج وهذا طبقا لروح المعاهدة التى خولت لباى وهران حرية التصرف فى ولايته دون تدخل السلط الفرنسية . وقد أكد خير الدين

---

(58) اى المؤونة .

(59) راجع مصدر الملحوظة رقم 49 ، يذكر خير الدين ان العسكر الذى معه ياخذ الخبز من الفرنسيين .

(60) **ا. د. ت ، وثيقة رقم 447** ، ارسلت الحكومة التونسية بتاريخ 1831/3/21 ثلاثة قطع قماش طولها على التوالى 35 ، و 35 و 34 ذراعا ، و 14 كسوة مفضضة و 30 برنوسا و 4 ازواج برانس و 5 افراد برانس .

(61) *A.M.G., H 7* : رسالة من برتزين الى وزير الحربية بتاريخ 1831/3/17 .

(62) مفردها فى اللهجة التونسية سعى أى فريق من الغنم .

(63) Demontès, *op.cit.*, p. 272.

ذلك فى تقاريره الى تونس من انه « وقع البيع والشراء والوسق (64) أى القمح والشعير والبقر ، نسئل الله ان يصلح الاحوال » (65) .

على أن استمرار هذا الوضع أو عكسه رهين بالسياسة التى انتهجها خير الدين ومدى العلاقة التى حاول أن يقيمها مع الرعايا ويكفى ان ترتكب أقل الهفوات لتقضى تماما على هذا الهدوء النسبى المغلف بالنظام بالطاعة والولاء للسلطة المحلية . وقد حدث استنادا الى التقارير الفرنسية وحدها ما عكر هذا الجو وقضى على هذا الهدوء تماما ، بل قد اثار حقد الاعراب ضد التونسيين ومفادها أن خير الدين اغا قد أمر الانكشاريين والتونسيين للقيام بجولة داخل البلاد ، وكان الهدف من ذلك التظاهر امام القبائل ورؤساء العرب والذين أخذوا يشتكون من جمود التونسيين وعدم قيامهم بأى عمل لاسترجاع تلمسان .

وبالرجوع الى تقرير قائد الحامية الفرنسية بوهران لوفول مع صمت الوثائق التونسية تماما عن هذا الموضوع ، نظمت حملة بتاريخ 28 افريل خارج مدينة وهران وكانت نتائجها سيئة للغاية حيث قام جنود الحملة بتقتيل النساء والاطفال والشيوخ واستحوذوا على خمسمائة رأس من الحيوانات (66) . ولا شك ان الجو العام الذى كان يعيشه انكشاريو وهران وعدم ارتياحهم لوضعهم الاجتماعى والسياسى ثم سنوح الفرصة من الخروج من وهران وتنظيم هذه الحملة كان له الاثر فى اطلاق عنانهم تحت نظر وسمع التونسيين للقيام بهذه الفضائع . ومن الطبيعى ان يستاء المواطنون وان يقاطعوا سوق وهران بل وان يحملوا على التونسيين والانكشاريين معا . وكان رد الصحافة الفرنسية عنيفا .

أما الحكومة الفرنسية فقد عبرت عن طريق حاكم الجزائر العام عن دهشتها لاقتراف هذه الفضائع ، وقد زاد هذا الموقف من اقتناع الحكومة الفرنسية بالغاء هذه المعاهدة تماما والعمل على تهجير التونسيين من وهران.

اما خير الدين فلم يزده ذلك الا حيرة ويأسا خصوصا وانه لم يتصل من الحكومة التونسية بشىء طوال أربع أشهر لاستحالة تبنى خطة معينة وواضحة فى هذا الموضوع فضلا عن أن الحكومة التونسية التى سعت جاهدة بتجهيز جيش مدرب على الطريقة الاوروبية لاحتلال قسنطينة قد تخلت عن المشروع فى اللحظات الاخيرة . وكان على خير الدين ان يواجه المشاكل اليومية فى البيلك خاصة لكل ما يتعلق بتسيير شؤونها المالية والادارية فى جو يكتنفه الفوضى بسبب وجود الحامية العسكرية الفرنسية وعدم ارتياح قائدها الى سلوك التونسيين (67) وكذلك الى الوضع الغامض الذى خلفه حسن باى ببيعه عددا من المنازل الى أحد المواطنين البريطانيين قبيل سفره واعطائه حق التصدير لعدد آخر من المواطنين الاجانب . وعندما رفض خير الدين الاعتراف بهذه الامور ، هدده القنصل الانجليزى بالجزائر سان جون

---

(64) اى التصدير .

(65) راجع مصدر الملحوظة 49 .

(66) *A.M.G., H 7* : رسالة من لوفول الى الجنرال برتزين بتاريخ 1831/5/8 . الغريب اننا لم نعثر ولو على اشارة لهذه الحملة فى مختلف التقارير التى حررها خير الدين اغا والمرسلة الى الحكومة التونسية .

(67) كان لوفول يرى ان خير الدين صالح لادارة قصر الباى وليس بيلك وهران ، راجع : Demontès, *op.cit.*

باستعمال القوة (68) ، وكان يرى بانه بالاستناد الى المعاهدة ، فهو صاحب البيلك وأنه الوحيد الذى يمكنه تسليم هذه الرخص وبيعها ، وهذا هو السبب الذى جعله فى آخر لحظة يأذن ببيعها .

وبالاستناد الى وثيقة بارشيف الدولة التونسية نستطيع ان ناخذ صورة عن مداخيل مدينة وهران ومصاريفها خلال الستة أشهر من اقامة خير الدين اغا فيها :

شهر	المدخول	المصاريف
فيفرى	20922	9534
مارس	16256	7046
افريل	35965	15910
ماى	22711	5972
جوان	17539	6494
جويلية	12644	4996
اوت	8227	2826 + 4170

بحيث ان جملة المداخيل بالريال بوجو 131440 . اما جملة المصاريف فتقدر بـ 77307 ريال بوجو (69) .

ليست لنا أى فكرة عن الطريقة التى اتبعها خير الدين لجمع الضرائب وعلى أى أساس كان ذلك ، ولا عن اسعار البضائع المحلية وعن الكميات التى تم تصديرها من القمح والشعير والاغنام الى الخارج فى هذه الفترة ، اذ أن الوثائق الفرنسية والعربية ضنينة تماما عن طرق هذا الموضوع ، كما نلاحظ صمت الوثائق على عدد آخر من الاهتمامات الاخرى التى كانت تشغل بال الناس . على أننا نلاحظ حيرة الرعايا من أمرهم واضطراب أحوالهم الداخلية ووصول التونسيين لم يكن ليهيىء لهم ظروفا جديدة ، وهذا ما يفسر مدى الغليان الذى كان يعيشه أصحاب الطرق الدينية وتطلعهم الى تصفية الفرنسيين والتونسيين معا وتعاونهم مع شريف المغرب الاقصى الذى لم يكن يتعاون مع « الكافر » ، بل يبدو ان التونسيين الذين لم يكونوا يعرفون ماذا يعملون قد زادوا المشاكل تعقيدا . ولم يكن بالمدينة لا حكومة ولا ادارة وان سلطة الباى على القبائل أصابها الفتور ، بل ان القبائل كانت تعيش فى استقلال تام وطبق قانون الغاب نتيجة عدم وجود حكم مركزى يفرض نفسه ويوجه البلاد . على أن سلطة خير الدين اغا فى بعض الاحيان لم تتجاوز حدود مدينة وهران . وهذا ما جعل الحكومة الفرنسية تفكر فى صيغة جديدة لهذه الاتفاقية ولكن على أساس جديد من التبعية التونسية لفرنسا . غير ان الحكومة التونسية صرحت : « بان ذلك به ضرر علينا من وجوه عديدة يطول

(68) *F.O., 3/33.* : رسالة من سان جون الى خير الدين بتاريخ 1831/4/13 وجاء فيها :
« I trust you will give me full satisfaction on these points, as I shall be sorry to have to refer to England and to the British Consul General at Tunis to seek redress from the Bey about it; but you must be aware that the British Government is not be consulted with impunity and that as long as you have the authority at Oran it will look to you for production and justice for its subjects ».

(69) أ. د. ت ، وثيقة رقم 446 .

شرحها والخيرة فيما يختاره الله ونحن ودولة فرنسا حال واحدة حاجتنا حاجتها وهى كذلك لاتصال محبتنا معهـا ... ونطلب منكم تبعثـوا (كذا) لنا خيـر الدين اغا ومن معه من عساكرنا ... » (70) وانه « منذ خمسة أشهر ، وافقنا على الرغم من انها كلفتنا مصاريف باهظة وضد مبادئنا ومشاعرنا الدينية على معاهدة وهران . ومنذ ذلك الـوقت والمصاعب ما فتئت تتضـاعف كل يـوم ووسائل التنفيذ بعيدة المنال . اما اليوم فان هذا المشروع اصبح مستحيلا على الباى : ان جلالته جد قلقا (كذا) لجو الهيجان الذى يسود ولايته فضلا عـن تفكيره لاخضاع شعوب أخرى ... وانـه فى الاخير لا يستطيع ان يوافـق على اية تسوية مع فرنسا بخصوص ولايتى وهران وقسنطينة ، وان صيغة التولية الجديدة لا يمكننا قبولهـا » (71) .

ومن جهـة أخرى كتب حسونة المـورالى ، أحد المفاوضين الذين أمضـوا المعاهدة بالجـزائر ، كتب الى الجنرال كلـوزال : « انى أهنـىء نفسى بالغـاء المعاهدتين ، ذلك انى أعتقد بعدم فائدتهما لحكومتى خصوصا بعـد المصاريف الضخمة التى قمنا بها دون ان نتحصل على أى نفع ما . ان امضاءنا المعاهدتين لم يتم الا بتدخل دى لسبس أو بالاحرى وجب القول : لنكون احباء للحكومة الفرنسية ولم يكن لاهداف توسعية أو نفع خاص » (72) .

ونتيجة لذلك أصبح الطرفـان فى حل من بعضهما البعض . أما فـرنسا فقد تبنت مبدا احتلال البـلاد شيئا فشيئا واقرار الغـاء المعاهدتين بصـورة نهائية ، ولم يبق على التونسيين الا مغادرة البلاد . وقد حرص الفرنسيون ان يتم ذلك دون مس للنظام العام أو للروابط التى تجمع فرنسا بتونس « وجب عليكم تسهيل مهمة سفرهم بأمان تام وبجميع أفراد الجالية . احموا انسحابهم ضد كل العوائق أو الاهانات الصادرة عن المواطنين ، على أن لا يأخذوا معهـم الا الاشياء التى أتوا بها والتى هى ملك للحكومة التونسية » (73) .

وقد تـم انسحاب الجيـوش التونسية من وهران بتاريـخ 1831/8/26 لتطوى صفحة غريبة لهذه التجربة الفاشلة والمغامرة الخـاسرة ، والتى طبعت العلاقات بين الجزائر وتونس بطابع معين .

عبـد الجليل التميمـى
كليـة الآداب ـ الجامعة التونسية

---

(70) **ا. د. ت ، وثيقة رقـم 433** ، رسالة من حسين باشا الى برتزين بتاريخ 2 جويلية 1831.

(71) *A.O.M., Serie I E, liasse 16*[8]. :
من تصريـح محمد بلخوجـة ، وزير الحربيـة التونسية الى العقيـد هوديـر (Huder) الذى كلف بالتفاوض من جديد مع الحكومة التونسية .

(72) *A.M.G., H 7* : رسالة بتاريخ 17 مـارس 1831 .

(73) *A.M.G., H 8* : تعليمات وزير الحربية الى قائد الحامية بوهران بتاريخ 1831/7/12 .

دور قبائل المخزن فى

تدعيم الحكم التركى بالجزائر

ناصر الدين سعيدونى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر



ظلت الدراسة التاريخية المتعلقة باوضاع الريف الجزائرى أثناء الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ، يكتنفها الاهمال ويحيط بها الغموض ، مع أن التعرف على حياة سكان الريف تعتبر بمثابة حجر الزاويه الذى كان يقوم عليه البناء الاجتماعى للايالة الجزائرية، فضلا عن أن علاقة هؤلاء السكان بالحكام الاتراك كانت تمثل القاعدة الاساسية التى يرتكز عليها التطور السياسى والوضع الاقتصادى للجزائر العثمانية ٠

ولعل هذا ما شجعنى على أن أتناول نوع هذه العلاقة من خلال الدور الذى لعبته قبائل المخزن فى تدعيم الحكم العثمانى وطبع الريف الجزائرى بطابع خاص ٠

فقد كانت قبائل المخزن حلقة الوصل بين الاهالى والحكام ، ورابطة متينة شدت المحكوم الى الحاكم ، وأبقت تماسك الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك نظرا لمهام هذه القبائل الادارية والعسكرية المنوطة بها ٠

فقبائل المخزن هذه كما سنرى من حيث نشأتها وتطورهـــا وصلاحياتها كانـــت انعكاسا صادقا وتطبيقا عمليا لسياسة الاتراك مع الغالبية الساحقة من الجزائريين (1) ؛ هذه السياسة التى أبرزت قبائل المخزن بالخصوص فى شكل مجموعات سكانية تعميرية لها صبغة فلاحية وعسكرية وادارية ، استمدت منها تماسكها ·

فهذه الصبغة الخاصة التى اتصفت بها قبائل المخزن جعلتها تتميز عن بقية القبائــل الاخرى التى تعتمد فى تدعيم كيانها وجمع شملها على رابطة الاصل المشترك والنســب الواحـــــد ·

فقبائل المخزن بهذا المفهوم كانت عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية متمايزة فى أصولها مختلفة فى أعراقها ، فمنها من أقره الاتراك بالاراضى التى وجدت عليها ، لتكون سندا لهم ، ومنها من أعطيت لها الارض لتستقر عليها ، ومنها من استقدم كافراد مغامرين او متطوعين من جهات مختلفة (2) ، ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية ·

وبفعل الانتساب والاستقرار والنشأة على أراضى البايليك اكتسبت هذه المجموعات البشرية المعروفة بقبائل المخزن كيانا مستقلا متمايزا ، ولم تعد تعرف من أنسابها القديمة ومواطنها الاصلية الا ما علق بتسمياتها الجديدة كقبائل : الصحارى والغرازلة وهاشم والعبيد والعثامنة ، فى حين اتخذت الغالبية الكبرى من قبائل المخزن تسميات محليــة وألقابا خاصة بها استمدتها من مواطنها الجديدة ، أو اشتقتها من الوظائف التى كانت تمارسها والمهام التى كانت تقوم بها أو استعارتها من نوع السلاح الذى كانت تحمله ·

فمخزن الزواتنة عرفوا بهذا الاسم لتوطنهم على ضفتى وادى الزيتون (3) رغم كونهم كراغلة · ومخزن المكاحلية عرف بذلك لنوع السلاح الذى اشتهـــر بـــه فرســانه ·

(1) حسب الوثائق والمصادر المتوفرة ، كان سكان الارياف الجزائرية فى الفترة العثمانية يقدرون بـ 94 ٪ من مجموع السكان ، فى حين لم يكن يتجاوز سكان المـدن والحواضر فى أحسن الاحوال 6 ٪ ·

(2) M. Pouyanne, *la propriété foncière en Algérie,* Imp. A. Jourdan, Alger 1900, p. 291.

(3) يقع واد الزيتون على الضفة اليسرى لوادى يسر ، جنوب شرق الجزائر العاصمة ، بين قبيلتى الخشنة وبنى جماد ·

والمجموعات المخزنية من عزارة ومخازنية وزمول (جمع زمالة) ودوائر ، (جمع دائرة) ؛ عرفوا بهذه الاسماء نظرا للمهام التى كانوا يمارسونها والتنظيم العسكرى الذى كانوا يخضعون له والحيز الادارى الذى استقروا ضمنه .

على ان قبائل المخزن على اختلاف مواطنها وألقابها ، لم يكتمل تبلور كيانها الاصطناعى واستكماله مقومات القبائل المتلاحمة ، الا بفضل سياسة مرسومة دأب الاتراك على اتباعها والاخذ بها ، وبفعل أحداث تاريخية وظروف خاصة عاشتها البلاد الجزائرية أثناء الحكم التركى .

وتبرز هذه السياسة وما أحاط بها من ظروف خاصة من خلال نوعية التأثير الذى أحدثته علاقة الاتراك بسكان الريف .

ومما يميز هذا التأثير أنه مر بمراحل ثلاث متمايزة من حيث النوعية والنتائج ؛

فالمرحلة الاولى : تبتدىء بحلول الاتراك بالبلاد (1516) وتستمر طيلة القرن السادس عشر ، وأثناء هذه المرحلة كان الحكام الاتراك أمام خيارين ، اما الاستعانة بالمتطوعين من فرق زواوة وجموع العشائر المحيطة بالمدن مع اللجوء ان أقتضى الحال الى طلب النجدة من الوجاق مباشرة ، واما الاعتماد على قبائل حليفة تقدم لهم العون وتوفر لهم فرق الفرسان الضرورية مقابل ما تناله من منافع ومزايا .

لكن الاتراك حسب ما نستنتجه من الحوادث التاريخية فضلوا الخيار الثانى ، واعتمدوا على فرق الوجاق وما انضم اليها من المتطوعين ، وذلك لانعدام التجربة وقلة الخبرة بالنسبة لهم فى هذا الميدان ، فلم ينتفعوا بخدمات القبائل الحليفة ، ورغم أن الاستعانة بهذا النوع من القوات المحلية كان تقليدا معروفا فى الجزائر منذ أوائل الفترة الاسلامية ، وقد شاع أستعماله بالخصوص فى دولة بنى عبد الواد والدولة الحفصية ، حتى أصبح رؤساء هذه لقبائل الحليفة آنذاك يجردون الحملات العسكرية لجمع الضرائب فى المناطق الخاضعة لهم دون الرجوع الى الدولة الحاكمة وكأنهم حكام مستقلون .

على ان الاتراك فى هذه الفترة لم يحاولوا جديا استغلال هذه القوة المحلية ، وبذلك اقتصر تأثيرهم طيلة القرن السادس عشر على تنصيب قواد اتراك على الاراضى الخاضعة

لهم ، والتى نادرا ما تتجاوز نطـاق المدن وفحوصها حيث تتمركز الحاميات العسكرية ، ولم يعد لقبائل المخزن دور يذكر فى الامور الادارية والعسكرية للبلاد ٠

وهذا عكس المرحلة الثانية لتأثير الاتراك فى الارياف ، التى تستغرق القرن السابع عشر باكمله ، وترتبط بتصرفات الباشوات (1587 ـ 1659) ٠ هذه التصرفات الـتى تسببت فى استنزاف موارد الريف الاقتصادية ٠

ويفسر تصرف الباشوات هذا حاجتهم الى الاموال الطائلة والثروات الضخمة ليضمنوا لانفسهم حياة الرفاهية ، ويعوضوا ما دفعوه من أموال مقابل الحصـــول عـــلى منصب الباشوية ، بعد ان حددت مدة حكم كل واحد منهم بثلاث سنوات ، وأنقصت صلاحياتهم بفعل أمتيازات الطائفة التركية بالمدن ٠ فلم يجد هؤلاء الباشوات لتلبية رغباتهم منفذا سوى البوادى يجردون عليها الحملات العسكرية ويفرضون عليها الضرائب الثقيلة ٠

وحتى تكون هذه الحملات الحربية مجدية اتخذت شكل محلات (1) فصلية تنطلق مع كل فصل ربيع وخريف من مراكز البايليك بقسنطينة والمدية ووهران ومعسكر والجزائر متجهة الى الارياف تتقدمها فرق الانكشارية ويحف بها فرسان المخزن المشهورين بباسهم وقوة شكيمتهم ٠

وقد ازداد الاعتماد على قبائل المخزن فى هذه الفترة عندما برهنت أثناء المعارك على كفاءتها وفعاليتها ، حتى أصبحت العثود الفقرى لهذه الحملات ٠

وبفعل هذا الدور الرئيسى الذى لعبته قبائل المخزن تعرض الاهالى الى ضغوط متزايدة تسببت فى اتلاف مواردهم وذهبت بثرواتهم ودفعتهم الى الثورات والانتفاضات ، تلك الانتفاضات التى رفعت فى أغلب الاحيان شعارات دينية وتسترت فى كثير من المـرات وراء مطالب عشائرية ، وان كانت فى حقيقة الامر تعبر عن مدى سخطها وعدم رضاها عن الاوضاع الاقتصادية ، مثل سلسلة الانتفاضات التى حدثت طيلة الفترة الممتدة مـن سنة 1590 الى 1647 م ٠ (4)

---

(4) Boyer, (P) Beys et Bey Liks, in Hatti del congresso internazionale di studi nord-africani Cagliani 1962, p. 172.

أما المرحلة الثالثة لتأثير الحكم التركى فى سكان الارياف فتبتدىء بمستهل القرن الثامن عشر وتنتهى بالغزو الفرنسى عام 1830 ·

وفى هذه المرحلة زاد اهتمام الاتراك حكاما وجنودا بداخل البلاد نتيجة ضغوط خارجية واحتياجات مادية ملحة ، بعد أن شحت موارد الاتاوات وتناقصت غنائم القرصنة ، ولم يعد الاسطول الجزائرى قادرا على المحافظة على تفوقه فى مياه المتوسط · فى وقت زاد فيه تكالب بعض الحكام من الاتراك على جمع الثروات لاشباع جشعهم وارضاء مطالبهم ونزواتهم ·

وقد ترك هذا التحول التدريجى آثاره واضحة على أهالى الارياف وعلى أسلوب الحكم التركي بالبلاد الجزائرية ، وذلك بفعل الدور الحاسم الذى كانت تقوم به قبائل المخزن ، فلم يعد دور هذه القبائل أثناء هذه المرحلة مقتصرا على المشاركة فى المحلات كما كان الشأن بالنسبة لفترة الباشوات ، وانها أصبحت الساعد الايمن والوسيلة الفعالة لتدعيم الاجراءات الادارية والحربية التى كانت تستوجبها ظروف تلك الفترة ، حتى ارتبطت بها أنظمة الحكم ، واصبح امتداد نفوذ الدولة داخل البلاد يقاس بمدى نشاط هذه القبائل ·

وهكذا يتضح لنا الدور الحاسم الذى لعبته قبائل المخزن ، بحيث جعلت الحكام الاتراك ينظرون الى الاهالى على اختلاف أوضاعهم لا على كونهم رعايا خاضعين وانما باعتبارهم اصنافا ومجموعات بشرية متفاوتة من حيث الواجبات والحقوق ·

فحسب هذه النظرة التى نتجت عن دور قبائل المخزن ، نجد عدة أصناف من السكان ، فهناك صنف خاضع مستغل من طرف الدولة وحلفائها ، وصنف ثان ظل مستقلا أو ممتنعا يعيش منعزلا فى أراضي الجنوب والمناطق الجبلية · وصنف ثالث متعاون ومتحالف مع الاتراك ، مع العلم أن قبائل المخزن تنتمى الى هذا الصنف الاخير من السكان ·

على أن هذا التطور الذى عرفته قبائل المخزن أثناء هذه المراحل الثلاث يرتبط بالاسباب والدواعى التى جعلت الاتراك يستخدمونها ويعطونها صلاحيات ومميزات دون بقية السكان ·

فمن أهم هذه الاسباب : ما يتصل بالوضع الديمغرافى للاقلية التركية الحاكمة فى الجزائر :

اذ ان ضآلة العنصر التركى دفع الحكام الاتراك الى استخدام قبائل المخزن لتكون لهم سندا داخليا وقوة حليفة ، بعد ان عجزوا عن تجنيد أكثر من اثنى عشر ألف رجل من أتراك وكراغلة فى أوقات الحرب (5) ، وبعد ان انخفض عدد الجيش الانكشارى فى الاوقات العادية الى أقل من أربعة آلاف رجل ، وحتى عشية الاحتلال أى سنة 1829 لم يكن يتجاوز عدد هذا الجيش فى الواقع 3661 رجلا . (6)

فى حين ان الاستعانة بقبائل المخزن تعزز الجيش التركى فيصل عدد أفراد الفرق المتحركة منه الى 30 ألف رجل (7) ، ويضع تحت تصرف البايليك 15000 محارب موزع على مختلف انحاء البلاد (8) ، فضلا عن توفير قوة فعالة من فرسان قبائل المخزن تكون موضوعة فى حالة احتياط .

ويمكن ان نتعرف على هذه القوة الاحتياطية لقبائل المخزن من خلال ما توفره بعض هذه القبائل من فرسان ، فقبيلتا الدواير والعبيد بالتطرى تستطيع ان تساهم عند الحاجة بـ 1200 محارب (9) ، زيادة عن 600 (10) فارس تشارك بها القبيلتان فى الاوقات العادية بغية حفظ الامن وجمع الضرائب وحراسة الطرق ومعاقبة الجناة . كما ان دواير ميلة كانت قادرة على تجنيد 1000 فارس عندما يتطلب الامر ذلك ، وكذلك الحال بالنسبة لدواير جميلة وواد الزناتى (11) .

أما السبب الآخر الذى شجع الاتراك على استخدام قبائل المخزن فيتعلق بالوضع المادى الممتاز الذى كان يعيشه أفراد الطائفة التركية ، فهذا الوضع هو الذى دفع الاقلية

(5) Emerit M., *les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX*e *siècle* - Annales Economies S.C. N° 1, 1966, p. 44.
(6) Devoulx, Tachriffat, Alger, 1853, p. 34-36.
(7) Perrot, Alger, *Esquisse topographique et historique du Royaume et de la ville d'Alger*, Paris 1830, p. 55-56.
(8) نفس المصدر ص 53 — 54 .
(9) URBAIN I., *Notice sur l'ancienne province du Titteri*, *R. A* (1843) p. 400-403.
(10) Boyer (P), *l'évolution de l'Algérie Médiane de 1830 à 1956*, Paris 1960, p. 31
(11) URBAIN, op. cit. p.400-403.

التركية على ان تحافظ على امتيازاتها ومصالحها الخاصة ، وذلك بالتقليل من عدد الجيش المرتزق وعدم الاكثار من جلب المجندين من الاناضول لان عملا مثل هذا يضطرهـــم الى صرف أجور كثيرة ومصاريف اضافية تنقص من ثرواتهم ومواردهم الخاصة .

ولهذا التجؤوا الى قبائل المخزن يعوضون بها القوة العسكرية الضرورية لحفظ الامن ويوفرون عن طريقها تلك المصاريف والنفقات التى هم فى غنى عن انفاقها .

وبالاضافة الى هذين السببين هناك سبب آخر يتصل مباشرة بحفظ الامن وفـرض سيادة الاتراك على الارياف .

ويظهر هذا السبب واضحا فى كون حكومة الاتراك فى الجزائر اضطرت أن تعتمـد كثيرا على قوة قبائل المخزن القادرة على التحرك والمتهيئة للقتال فى كل وقت ، بعـد أن لم تعد تتلقى هذه الحكومة التركية فى الجزائر أى دعم مادى أو بشرى من مركز السلطة العثمانية .

فبفضل قبائل المخزن استطاع الاتراك ان يفرضوا سيطرتهم ويمدوا نفوذهم عـلى جهات متباعدة من الايالة الجزائرية . (12) ، وأن يحافظوا على الحاميات المتمركزة بالقرب من الاسواق المهمة والحصون الاستراتيجية والمواصلات الحيوية ، وأن يتمكنـــوا مـــن استخلاص الضرائب واخضاع الثائرين .

هذا بغض النظر عن أن تواجد قبائل المخزن فى النقاط الاستراتيجية من البـــلاد ساعد بصورة محسوسة على ابعاد خطر القبائل الجبلية والصحراوية والحد من عصيانها ومنع انسيابها نحو السهول الخصبة بعريب وبنى سليمان ، ومتيجة وغريس وتلمسان وفرجيوة وغيرها .

وبذلك تمكن الاتراك من حكم الجزء الاهم والاكثر غنى من الايالة الجزائرية ، بصفـة مستمرة وبطريقة ملائمة وفعالة ، بينما ظلت القبائل الجبلية الشديدة المراس بمناطـق

(12) Warnier et Carette, *Description et division de l'Algérie,* Hachette, Paris 1847, p. 49.

(13) الحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقرانى الراشدى ، كتاب القول الاوسط فى اخبار بعض من حل بالمغرب الاوسط ، مخطوط ، ص 9 .

جرجرة والبابور والاوراس وبنى مناصر والونشريس وبنى سنوس وطرارة منعزلة فى مواطنها الفقيرة لا تجسر على الاقتراب من مواقع فرسان المخزن ، وان هى اضطرتها الحاجة الى النزول نحو السهول الخصبة طلبا للرزق ارغمت على الانخراط ضمن فرسان قبائل المخزن ، وهذا ما تؤكده تقاييد منسوبة لبعض حذاق المؤرخين ، اذ تنص هذه التقاييد على « أن انقياد برابر جبال جنوب تلمسان ، وشمال الظهرة للحكم العثمانى كان بالاسم فقط ، وكذلك الضاعنون من العرب ، ما عدا أعراش قليلة مستخدمة فى المخزن لكونها قريبا من رمية مدافع الحصون » . (13)

أما السبب الاخير فهو يكمن فى محاولة الحكومة التركية التقليل من عداء بعض القبائل لها ، وذلك بادراجهم ضمن قبائل المخزن واعطائهم الحق فى القيام بمهمة مراقبة المنطقة التى شهدت ثوراتهم .

فبهذا العمل الذكى أمن البايليك ثورات القبائل المشاغبة ، وتخلص من المشاكل التى كانت تثيرها ، بل وانتفع رجال البايليك بنشاطها الجديد عندما أمكن لهم مراقبته وتوجيهه لاخضاع بعض المناطق الجبلية أو الصحراوية .

وهناك أمثلة عديدة لهذا العامل الذى أوجد كثيرا من قبائل المخزن فى الاراضى الجبلية والسهبية ، ففى الجهات الجنوبية الشرقية من بايليك التطرى أصبح أولاد سيدى عبد الله ينتمون الى قبائل المخزن بعد أن اصبغ البايليك على لصوصيتهم صبغة شرعية وأوكل لهم مراقبة المنطقة الممتدة بين سيدى عيسى وبوسعادة . (14)

وفى السرسو جنوب الونشريس سمح الاتراك لعشيرة أولاد عياد وعلى رأسها عائلة فرحات أن تمارس نفس مهام قبائل المخزن وأن تراقب نيابة عن الحكومة قطاع أولاد عنتر وأولاد هلال ، ونفس الشىء حدث جنوب التطرى ، اذ اصبحت قبيلة أولاد مختار مهيأة للقيام بدور قبائل المخزن ، رغم منافسة قبائل بوعياش وأولاد شايب لها ولو أنها لم تتلق الاذن الرسمى من السلطة التركية على ذلك . (15)

---

(14) Arch, du gouvernement de l'Algérie 21 / H. 19, notice des tribus de la subdivision d'Aumale.

(15) Boyer, (P), l'évolution, p. 25

هذه بعض الاسباب التى جعلت مصالح الحكومة التركية بالجزائر ترتبط أساسا بالخدمات والمهام التى كانت تقوم بها قبائل المخزن ·

وبالتالى أصبح لزاما على الحكومة التركية ان أرادت تدعيم حكمها وتقوية نفوذها ان تحافظ جاهدة على ولاء والتزام تلك القبائل ، وهذا ما دفعها بالفعل الى اصباغ بعض الامتيازات واقرار بعض الحقوق لقبائل المخزن دون بقية الاهالى ·

فمن هذه الامتيازات : الاعفاء من الضرائب الاضافية والاكتفاء بدفع واجب الزكاة والعشور ، فى حين الزمت قبائل الرعية الخاضعة مباشرة للبايليك بتقديم الضرائب الاضافية بجانب أداء رسوم الزكاة والعشور ·

وقد كانت هذه الضرائب الاضافية لا تتعدى فى بأدىء أمرها ضريبة الخراج الاسلامية التى كانت تفرض على أهل الذمة فى الفترة الاسلامية ، ثم تطورت مع الزمن حتى أصبحت فى الفترة العثمانية تتضمن عدة أنواع من الالتزامات المالية الثقيلة كالغرامة والمونة والقادة (16) · وهى المعروفة عادة عند قبائل الرعية باسم اللزمة · والغرامة فى بايليك التطرى وبايليك الغرب ، وبأسم الحكور والجبرى والغرامة والمونة فى بايليك قسنطينة ·

مع الملاحظة بان هذا الاعفاء من الضرائب الاضافية الذى حظيت به قبائل المخزن ، وميزها عن بقية السكان ، لم يكن قاعدة عامة ولا حكما شاملا ، اذ نجد هناك بعض الاستثناءات التى استوجبتها وضعية بعض الجهات ، واصبح معها لزاما على بعض القبائل المخزنية أن تساهم بقسط من الواجبات المالية ، وان كان هذا القسط لم يصل فى كميته ومقداره حدا يجعله نوعا من الضرائب الاضافية الثقيلة ·

فهذه المساهمات المالية لم تكن تنقص فى الواقع من امتيازات قبائل المخزن ، ما دامت لم تتجاوز سدسى المحصول (17) ولم تتعد تقديم حصان واحد وبعض الخرفان (18) ، فى

(16) Pouyanne, p. 220.
(17) Pouyanne, p. 293.
(18) Rinn, *le Royaume d'Alger sous le dernier Dey.* R. A. 41/1897, p. 128.

وقت كانت فيه الخيمة المتوسطة الحال من قبائل الرعية يستخلص منها 115 فرنكا أى ما يعادل 28 خروفا سنويا ، زيادة عن الزكاة والعشور · (19)

مع العلم بأن ما تقدمه قبائل المخزن من زكاة وعشور وبعض المساهمات المالية كان يدفع فى شكل انتاج عينى من نوع المحصول ، أما ما تقدمه قبائل الرعية من ضرائب اضافية فكان يتم على شكل مبالغ نقدية (20) ، مما يضطر تلك القبائل الى بيع محاصيلها بثمن بخس لتحصل على النقود اللازمة لتسديد الضرائب ، وهذا ما يزيد فى استنزاف مواردها ويجهد طاقتها الانتاجية ·

أما المنطلق الذى يعتمد عليه هذا التمايز بين قبائل الرعية والمخزن ، والهدف الذى تسعى الدولة آنذاك لتحقيقه من وراء ذلك ، فيكمن حسب ما نستنتجه من أوضاع الملكية العقارية فى تلك الفترة ، فى أن العشور والزكاة باعتبارهما ضريبة اسلامية شرعية تحق على المسلمين ، كانا بمثابة رمز لتحالف وتعاون قبائل المخزن ، أما الحكور والغرامة واللزمة وغيرها من الضرائب الاضافية ، فكانت عبارة عن رسوم مالية مقابل حق كراء الاراضى واستغلالها عوضا عن البايليك ، وبالتالى تكون الاراضى التى يحق عليها العشور والزكاة ، أو التى يفرض عليها الحكور والغرامة ملكا للدولة والبايليك ، لانها فى الحالة الاولى تقدم بدون كراء كامتياز تحظى به القبائل الحليفة حتى تبقى على اخلاصها وتعاونها، وهى فى الحالة الثانية تقدم مقابل كراء متعارف عليه لتزيد بذلك الدولة تحكمها فى القبائل الخاضعة والمغلوبة على أمرها ·

ولعل عدم التفريق بين الحالتين ـ حالة المنح بدون مقابل وحالة الكراء ـ هو الذى جعل السيد رين (21) ، عندما أراد أن يصنف المجموعات السكانية فى الجزائر أن يدخل فى عداد قبائل المخزن بعض قبائل الرعية ، متناسيا بذلك الهدف من نظام الضرائب وما يترتب عليه ·

(19) Emerit, *la situtiion économique de la Régence d'Alger en 1830*, p. 171.
(20) Carette et Warnier, description, p. 48.
(21) Rinn, op. cit., p. 331 et sq.

أما الجانب الآخر من الامتيازات التى حظيت بها قبائل المخزن فيمس الحالة النفسية والوضعية المعاشية لهذه القبائل · اذ كانت العائلات التى تنتمى الى المخزن كثيرا ما تتمتع بالامن والحماية ، وتعيش فى مأمن من الغارات والتعديات التى تكاثرت فى أواخر الفترة العثمانية ، وتنعم بحياة كريمة بما تدره أراضيها الخصبة من انتاج وفير ، وبما تتسلمه من مبالغ نقدية هامة من قبائل الرعية المجاورة ·

وبالفعل أصبح هذا المورد المالى الذى كان يتحصل عليه فرسان المخزن من قبائل الرعية يشكل دخلا محترما ودعما ماليا لا يمكن التقليل منه ، لا سيما فى أواخر الفترة العثمانية عندما أصبح للمجموعات المخزنية نفوذ خاص وتأثير ملموس على مناطق شاسعة من الايالة الجزائرية (22) ، كما هو الحال فى الاراضى المعروفة باليعقوبية الواقعة جنوب معسكر ، والممتدة حتى الشط الشرقى (23) ، حيث كانت قبائل الدواير والزمالة المستقرة فى الجهات الشمالية ، تمارس سلطة خاصة على القبائل الرعوية المقيمة فى هذه الجهات ، وتتقاضى منها رسوما مالية لا يصل منها الى يد البايليك سوى الجزء اليسير ·

وكما هو الشأن بالنسبة لقبيلة أولاد خليف المنتمية لنظام المخزن ، اذ كان شيخها يفرض على كل القبائل الرعوية من شعانبة ، وسعيد عطية ، والارباع ، وأولاد يعقوب والزرارة والمخادمية مبلغا من المال يعرف برسم العسة (24) ، مقابل اختلافها الى الاسواق وترددها على المراعى الواقعة تحت تصرفه ·

وبجانب هذا المورد المالى الذى ساعد بصورة محسوسة على تحسين الظروف المعاشية لقبائل المخزن ، هناك الكثير من المنح التى تقدمها الدولة لفرسان هذه القبائل ، كالفرس والسلاح وأدوات العمل الفلاحية دون مقابل ، مع اعطاء أجور مؤقتة للمحاربين منهم تماثل الاجرة التى كانت تصرف لافراد الجيش الانكشارى ، هذا بغض النظر عما ينتفعون به من الغنائم والاسلاب التى كانوا يتحصلون عليها اثناء مشاركتهم فى المحلات العسكرية ولنا أمثلة حية تشهد على ذلك ، مثل تلك التشجيعات التى قدمها الحاج أحمد آخر بايات

(22) A. Bernard, M. Lacroix, *l'évolution du nomadisme en Algérie,* Paris, 1906, pp. 27-28.
(23) Boyer, l'évolution, p. 31.
(24) Carette et Warnier, notice, p. 151.

قسنطينة (1826 ـ 1837) لفرسان المخزن عندما أراد الانتقام من قبيلة عبد النور ، والتى تتلخص فى اعطاء 30 ريالا (60 فرنكا) لكل فارس يستظهر برأس من رؤوس الاعداء ، ومنح 10 ريالات (20 فرنكا) لكل من يغنم بندقية للعدو ، مع الاحتفاظ بكل ما يتم الاستيلاء عليه من الامتعة والملابس (25) ·

ولعل الشيء الذى ساعد على تدعيم امتيازات قبائل المخزن ولا سيما النوع الاخير منها والمتمثل أساسا فى الانتفاع بالموارد المالية المستخلصة من مناطق قبائل الرعية الخاضعة ، يكمن فى أهمية الامكنة الاستراتيجية والمواقع الحصينة والنقاط الحيوية المكلفة بحراستها والمحافظة على هيبة الحكومة بها ·

ففى هذا الصدد نجد أن قبائل المخزن كانت تتمركز فى الاماكن والنقاط التالية :

1 ـ حول الابراج والحصون التى كانت تقيم بها الحاميات التركية الصغيرة ، وفى هذه الحالة يكون فرسان القبيلة على أهبة الاستعداد لحمل السلاح وخوض المعارك اذا طلب منهم قائد الحامية التركية ذلك (26) ·

ومن أشهر القبائل التى كانت تقيم حول هذه الاماكن : هاشم ببرج بوعريريج ، وعمراوة ببرج ساباو ، وأم نائل ببرج يسر ، والخشنة ببرج ثنية بنى عائشة ·

2 ـ بالقرب من الخوانق الجبلية والممرات الصعبة وعند الجسور والقناطر الرئيسية ·

ومن أهم الممرات والفجاج الجبلية التى استقرت بالقرب منها تلك القبائل : ممر سور الغزلان حيث قبيلة عريب ، وممر الكنتور بين سطورة وقسنطينة وتحرسه قبيلة أولاد ابراهيم المخزنية ، وممر رأس العقبة بين قالمة وقسنطينة وتحرسه دائرة الزناتية ، وكذلك مضيق وادى يسر « الاخضرية » فبالقرب منه حرشاوة والزواتنة ، ومضيق وادى الجر المراقب من طرف مخزن بوحلوان ، ومضايق وادى مينا وتراقبه مجموعات مخزن المكاحلية ·

أما القناطر والجسور الهامة التى كانت تستقر حولها مجموعات المخزن ، فنذكر منها قنطرة يسر حيث مخزن الخشنة ، وقنطرة الشلف الكبرى غرب مليانة وبجوارها مخزن أولاد الصحارى ·

---

(25) Féraud, (L), notice historique sur Ouled Abdennour, Constantine, 1864, p. 151.

3 ـ بجوار الاسواق الرئيسية الاسبوعية منها والفصلية ، كسوق عين اللوحة بالقرب من تاهرت ، ومنه يراقب مخزن أولاد خليف تحركات أولاد سيدى الشيخ التى كثيرا ما كانت تقلق الباى على بن شنوف (27) ، وسوق الاربعاء جنوب التطرى ، تراقبه قبيلة أولاد مختار الخليفة وسوق العثمانية غرب قسنطينة وبالقرب منه دائــرة الصحراوية ومخزن بوصلاح .

ويضاف الى هذه الاسواق ، تلك المستودعات الرئيسية لخزن الحبوب وحفظ المحاصيل الزراعية المعروفة بمطامير البايليك ، وكذلك الطواحين المائية .

وما دامت هذه المستودعات والطواحين تقع فى الغالب بالقرب من المراكز العسكرية أو عند مخارج المدن (28) ، فان مهام قبائل المخزن انحصرت فى مساعدة الجيش الانكشارى على حراستها والتعرف على الاهالى المختلفين اليها قصد مراقبتهم وفرض الضرائب عليهم .

4 ـ عند محطات القونان KONAQ المقامة عادة عند نهاية كــل مرحلة من مــراحل الطريق ، وهذه المحطات كانت عبارة عن مجموعة من الخيام تقيمها قبائل المخزن لتكون مأوى ومكانا أمينا تحط به القوافل رحالها وتستريح عنده فرق الاوجاق المتوجهة مــن الجزائر أو اليها من احدى مراكز البايليك ، والحاملة للضرائب السنوية والفصلية المعروفة بالدنوش الكبرى والصغرى ، كما تستخدم هذه المحطات أيضا لتوقف حاملى البــريد والضرائب (29) وبعض المسافرين للاستراحة من عناء الطريق واتعاب السفر قبــل مواصلة الطريق .

5 ـ على مقربة من طرق المواصلات الرئيسية والمسالك المهمة ، وبالخصوص الطــرق المعروفة آنذاك بالطرق السلطانية ، والتى كانت تربط مراكز البايليك فى مدن قسنطينة والمدية ومعسكر ووهران بمركز السلطة الحاكمة فى الجزائر .

فاذا تتبعنا مثلا طريق السلطان الرابط بين الجزائر وكل من مدينتى وهران ومعسكر نجد العديد من قبائل المخزن مستقرة حوله ؛ فمن الشرق نحو الغرب نجد على التوالى :

(26) Warnier et Carette, description, p. 47.
(27) A. Bernard, N. Lacroix, pp. 27-28.
(28) Emerit, la situation économique, p. 170.
(29) Rinn, op. cit., p. 133.

مخزن بوحلوان بالقرب من مليانة ـ ومخـزن أولاد الصحارى الى الغـرب من مليانة ، ومخزن بنى يحيى على وادى الروينة ، زمالة البغدادى على وادى الفضة ، مجموعتين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادى اسلى بالشلف ، عزارة وزمالة الحاج المدة عند ملتقى وادى رهيـو بالشلف ، ثم نجـد مجموعتين آخريين من قبائل الزمالة عند ملتقى وادى مينـا بالشلف فمخزن الصحارى عـلى وادى الهليـل (30) ثـم مجموعات الدواير والزمـالة المنتشرة بين وهران ومعسكر .

أما اذا سرنا مع الطريق السلطانى الواصل بين الجزائر وقسنطينة ، فهناك العديد من هذه القبائل : مخزن الزواتنة ، مخزن حرشاوة عند بنى هارون على وادى سفلات أحد روافد يسر ، العريب على وادى الاكحل ، هاشم بالبرج ، الغرازلة الغربية بعين الترك ، العثمانية بسطيف ، دائرة وادى الذهب بنواحى العلمة ، دائرة بوصلاح والصحراوية بنواحى قسنطينة (31) .

هذا ولم تقتصر حراسة قبائل المخزن على الطرق السلطانية فقط ، بـل تعدتها الى مراقبة الطرق الثانوية الرابطة بين مراكز البايليك وباقى المدن الاخرى ، مثل طـــريق قسنطينة تونس التى كانت تحرسها زمالة بنى مراد ، وطريق قسنطينة القل (32) التى كان يراقبـها مخـزن أولاد ابراهـيم والمعـاوية ، وطـريق قسنطينة عنـــابة ، التى كانت تتحكم فيها دائرة الزناتية ، وطريق المدية الاغواط التى كان يشرف عليها مخزن البرواقية المكون من العبيد والدواير (33) .

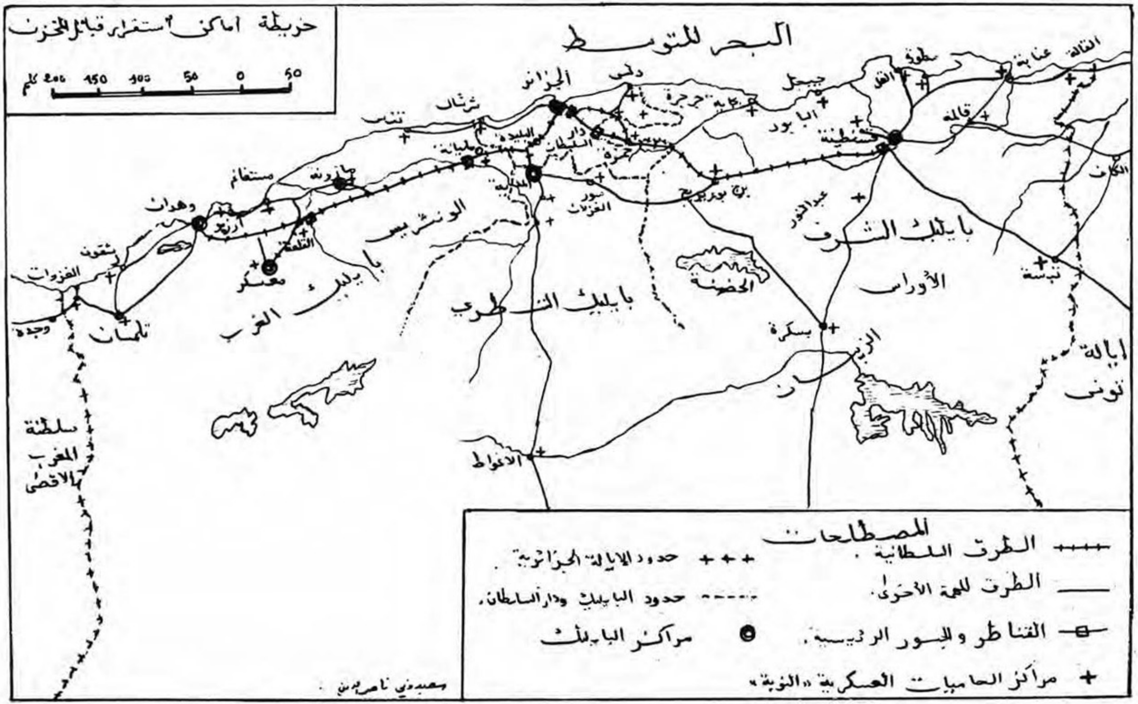
6 ـ فى النقاط التى تمر بها المحلات الفصلية عند قيامها بمهام جمع الضرائب ، او عند خروجها لمعاقبة الثائرين ، وكذلك فى الاماكن التى تتكرر فيها الثورات والهجومات على موظفى الحكومة ، وهذا ما يقدم لنا جوابا كافيا على الهدف من استقرار دوائر المخزن فى الاماكن التالية : نواحى ميلة وجميلة وساباو وبوغنى ويسر والخشنة وعين بوسيف والبرواقية وبوغار . لان البايليك استطاع بفضل قبائل المخزن هذه أن يبقى قبائـل

(30) Warnier et Carette, description, p. 49.

(31) Warnier et Carette, description, p. 50.

(32) كانت القل تعتبر الميناء الطبيعى لقسنطينة طيلة الفترة العثمانية .

(33) أنظر : خريطة أماكن استقرار قبائل المخزن الملحقة بالمقال .



خريطة أماكن استقرار قبائل المخزن
50 0 50 100 150 200 كلم
البحر المتوسط
الجزائر
دلس
شرشال
تنس
جيجل
القل
سطورة
عنابة
القالة
قالمة
قسنطينة
البليدة
مليانة
المدية
مستغانم
مازونة
وهران
أرزيو
القلعة
معسكر
تلمسان
وجدة
الغزوات
الونشريس
سور الغزلان
برج بوعريريج
الحضنة
الأوراس
بسكرة
الأغواط
تبسة
الكاف
بايلك الشرق
بايلك التيطري
بايلك الغرب
الزيبان
إيالة تونس
سلطنة المغرب الأقصى
المصطلحات
الطرق السلطانية.
حدود الإيالة الجزائرية.
الطرق للجهة الأخرى.
حدود البايلك ودار السلطان.
القناطر والجسور الرئيسية.
مراكز البايلك
مراكز الحاميات العسكرية «النوبة»

جرجرة والتطرى فى هدوء وسكينة مدة طويلة ، كما استطاع صالح باى ومن بعده أحمد باى قسنطينة أن يقمع ثورات الاوراس والهضاب العليا الشرقية باسكان قبائل الزمول فى الهضاب العليا وسفوح الاوراس الشمالية بعد طرد قبائل عبد النور واحلافها من تلك الجهات .

7 ـ فى المواقع الحساسة ، والمهددة بهجمات الاسبان وغارات المغاربة باستمرار كالسهول الوهرانية ، التى عرفت استقرار قبائل المخزن من زمالة ودوائر على ثلاث فترات متعاقبة ، تحكمت فيها الملابسات التى عاشتها الناحية الغربية :

ـ الفترة الاولى : تعود الى الثلث الاول من القرن السادس عشر ، وقد تمكن أثناءها الاتراك من مصادرة أراضى قبيلة الامحال بالسهول الخصبة الممتدة من البحر الى سفوح الاطلس التلى ، ومن وادى صالادو الى نهرى الشلف ومينا ، بما فى ذلك مدينتى آرزيو ومستغانم حيث لا زال برج الامحال يحمل اسم هذه القبيلة العتيدة .

وقد استقرت مجموعات المخزن فى الاراضى المصادرة ، وبذلك أمكن التقليل من الخطر الاسبانى ، ووضع حد نهائى لمقاومة قبيلة الامحال ، وان بقيت ذكراها عالقة باذهان الرواة الى القرن الماضى لشدتها وضراوتها ، واجبرت الفلول المتبقية منها على الانعزال فى أراضى مجيرد الواقعة الى الغرب من نهرى الشلف ومينا (32) .

ـ أما الفترة الثانية التى استقرت فيها قبائل المخزن بالسهول الوهرانية ، فتمت فى نهاية القرن الثامن عشر ، واعقبت طرد الاسبان من وهران للمرة الاولى سنة 1709 م ، ومصادرة أراضى القبائل المساندة لهم من عشائر بنى عامر وفليتة ، عقابا لها على مساندتها للاعداء الاسبان ، وبذلك استطاع الباى مصطفى بوشلاغم توطين الزمول والدوائر من جديد بالسهول القريبة من وهران ، سعيا منه للحيلولة دون اية محاولة أخرى قد يقوم بها الاسبان والمغاربة .

ـ الفترة الثالثة ، ارتبطت بطرد الاسبان من وهران سنة 1792 م للمرة الثانية والاخيرة ، وقد بادر الباى محمد الكبير اثناءها الى اقرار مجموعات الدواير والزمالة

(33) Bache (P.E.) *la Propriété Arabe en Algérie avant* 1830 *in, Revue Algérienne et coloniale,* T. III, (1860), pp. 694-695.

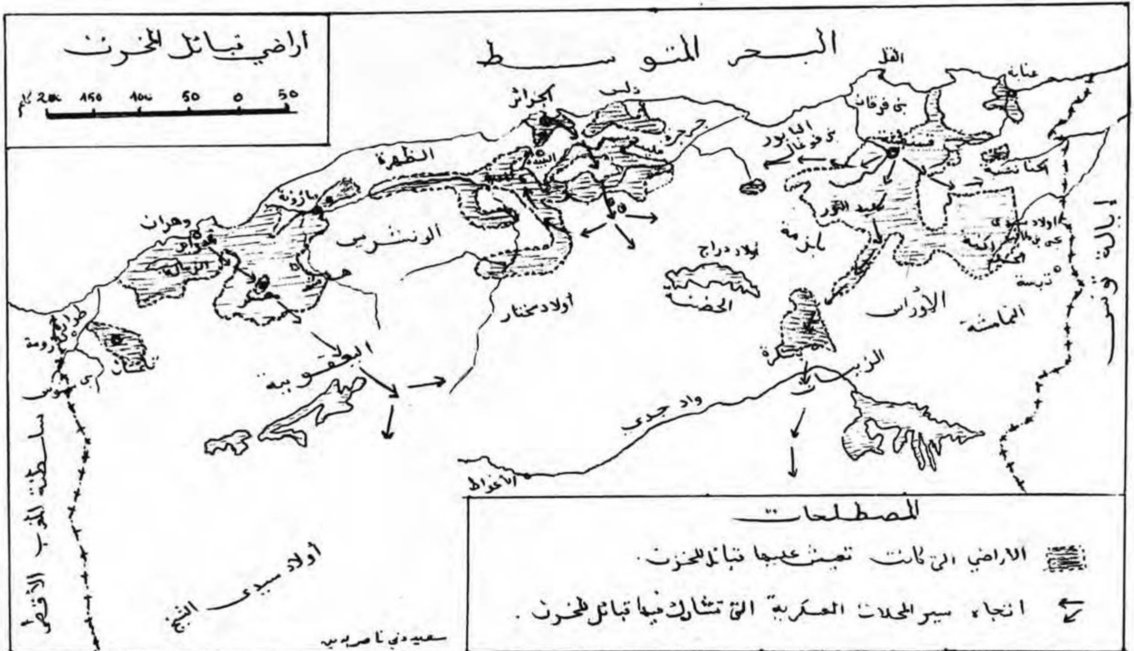
بالجهات المحيطة بوهران مباشرة ، بعد ان أحس بالحاجة الى خلق قوة محلية تشد ساعده فى صد هجمات درقاوة ودسائس المغاربة ، فضلا عن أن هذه القوة تكفل له القضاء على شوكة المتعاونين مع الاسبان من العرب المسالمين las Moros de Paz من عشائر حميان وقبائل بنى عامر وفى مقدمتهم أولاد عبد الله وقيزة المشهورين باخلاصهم للاسبان (34) .

وهكذا تم توطن الدوائر والزمالة بالجهات الوهرانية ، وبذلك اكتمل دور قبائل المخزن فى تدعيم سيادة الاتراك بالايالة الجزائرية ·

على أن هذا الدور يدفعنا الى التساؤل عن الآثار والنتائج التى ترتبت على تواجد قبائل المخزن ، والخصائص والمميزات التى طبعت بها المجتمع الريفى الجزائرى ، والنظام الاقطاعى الذى انبثق من دور المخزن الادارى والعسكرى والفلاحى ، وهذا ما نتمنى ان نواصل الكتابة حوله فى مقال آخر ان شاء الله ·

---

(34) عبد القادر المشرفى الجزائرى ، بهجة الناظر فى اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الاعراب كبنى عامر ، تحقيق ، محمد بن عبد الكريم ، مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ ، ص 26 ــ 30 ·


أراضي قبائل المخزن
50 0 50 100 150 200 كلم
البحر المتوسط
القل
عنابة
بني فرقان
الجزائر
دلس
جرجرة
البابور
الظهرة
مازونة
وهران
الونشريس
أولاد دراج
الحضنة
أولاد مختار
الأوراس
النمامشة
الحنانشة
تبسة
بسكرة
الزيبان
واد جدي
الأغواط
اليعقوبية
ندرومة
تلمسان
أولاد سيدي الشيخ
سلطنة المغرب الأقصى
إيالة تونس
المصطلحات
الاراضي التي كانت تعيش عليها قبائل المخزن.
اتجاه سير المحلات العسكرية التي تشارك فيها قبائل المخزن.
سعيدوني ناصر الدين

كيف تم التعريب فى وزارة العدل

د . بوعلام بن حمودة
وزير العدل وحافظ الاختام



ان الاهداف الاساسية للثورة الجزائرية اقتضت انشاء لجان خاصة تدرس وتناقش وتقترح أنجع الطرق لبلوغ تلك الاهداف وتضمن استمرارية المجهود والتجنيد .

ففى هذا المضمار شهدنا ميلاد اللجنة الوطنية للثورة الزراعية واللجنة الوطنية للتسيير الاشتراكى للمؤسسات واللجنة الوطنية للتشريع واللجنة الوطنية للتعريب التى ينبغى أن ترسم مثل أخواتها .

وقد استطاعت هذه اللجنة الاخيرة ان تجند المناضلين فى القاعدة وفى القمة وان تفسح المجال للعمل البناء ، وان تستقطب انتباه الرأى العام الوطنى وان تهيىء الظروف المادية والمعنوية لعقد هذه الندوة وهى حاملة معها الدراسات التحليلية والاقتراحات الموضوعية لاعطاء اللغة العربية مكانتها الطبيعية فى وطنها وفى ضمير شعبها الذى لم يتشكك يوما ما عن عروبته وعن اسلامه .

(*) محاضرة القيت فى الندوة الوطنية الاولى للتعريب . قصر الامم بالجزائر من 14 ـ 19 ماى 1975 .

لقد اتت اللجنة بوثائق تناولت مسائل نظرية وتطبيقية معا لان الحديث عن التعريب ليس كافيا ان لم تمنح اللغة العربية وجودا فى كل مرافق الحياة ٠

والتجربة دلت على ان النظرية تبقى جامدة أو صورية اذا نقصها التطبيق الذى لا تؤكد الا به ولا تصحح ولا تكمل الا على ضوئه ٠

فالمسألة هذه بقيت فى اذهاننا راسخة ونحن نشرع بدون انتظار وبدون تردد فى تعريب القضـــاء ٠

وبما اننا نعيش السنة الرابعة من تطبيق التعريب فى وزارة العدل طلبت منا اللجنة الوطنية للتعريب أن نفيد الندوة بالحديث عن الطريقة التى انتهجناها وعن النتائج التى حصلنا عليها وعن الصعوبات التى لاقيناها ٠

فى أى اطار اتخـــذنا القـــرار :

المنشور الاول الذى امضيناه فى 15 سبتمبر 1971 والذى يأمر بتعريب المحاكم والمجالس تعريبا كاملا شاملا لم يأت بصفة ارتجالية بل أخذ بعين الاعتبار المسائل التالية :

1) علاقة القضاء بالجمهور وارتباطه بالسيادة الوطنية التى حصلنا عليها بعد كفـــاح مريـــر ٠

2) التعريب هدف من أهداف الثورة فلا يعقل أن يفصل عن الاهداف الاخرى وهـــو نتيجة طبيعية من نتائج الاستقلال الوطنى٠ ونذكر بأن كل وثائق الثورة مـــن برامـــج وخطب تؤكد على ضرورة استرجاع اللغة الوطنية ٠ فالقرار الذى اتخذناه فى وزارة العدل منسجم تماما مع محتوى ثورتنا المجيدة ٠

3) الامر الرئاسى الذى صدر فى 26 أفريل 1968 يفرض على الموظفين معرفة اللغـة العربية معرفة كافية ٠

4) صحة ايماننا بمقدرة الانسان فى التكيف مع الظروف الجديدة وعلى الاجتهاد السريع أمام هذه الظروف ولا سيما اذا شعر بانه لا مكان ولا حيلة للرجوع الى الوراء ٠

فالمقصود من التطرف فى قرارنا ومن المفاجأة هو « رمى الناس فى البحـــر ليتعلموا السباحة » وارغامهم على ممارسة اعمالهم باللغة الوطنيـــة ايمانا منا بان الممارســـة هى الطريقة الوحيدة التى تخطو بالتعريب خطوات عملاقة ٠

5) تأثير عدة عوامل موضوعية تخدم التعريب فى الجزائر وكثيرا ما يغفل عنها الناس وهى : توسع التعليم المعرب • تطور امكانيات الطبع والنشر • دخول الكتاب العـــــربى وقد كانت الابواب مغلقة امامه قبل الاستقلال • نشاط وسائل الاعلام امكانيات هائلـــة منحناها الوسائل العصرية من مسجلات ومخابر لغات واقلام واسطوانات • فكل هذه الوسائل الناجعة تخفى على من يعيش فوق الارض وهو لا يعى ما يجرى حوله الا ما له علاقة بقوته وسلامتـه •

6) تجربة التعريب الكامل فى مجلسى بشار وورقلة منذ 1966 نفعتنا باطلاعنا على العقبـــات •

عمليـة التعريب •• وكيف جـــرت :

بعدما أخذنا بعين الاعتبار كل الوسائل المذكورة آنفا اصدرنا فى 15 سبتمبر 1971 منشورا يأمر باستعمال اللغة العربية فى الجلسات والمرافعات وباتخاذ الاحكـــام المعربـة وبرفض مذكرات المحامين ان لم تكن مكتوبة باللغة الوطنية •

والملاحظ أن الامر كان صارما ولكنه اختصر فى التطبيق الحديث وحتى الكتابة بالعربية الدارجة لان المهم كان عندنا المرور من عهد الفرنسية الى عهد العربية ونحـــن نعلـم أن الممارسة وحدها هى التى تصحح الالسن وتصقل الاقلام وتحث عن البحـــث عـن تدقيق المصطلحات وتحض على توحيدها فى مستوى البلد أولا ثم فى مستوى الوطن العربى ثانيا •

ولسد الطريق أمام كل من يريد الاعتماد على نقص الوسائل ليعارض عملية التعريب اسرعنا الى تزيد القضاة والمحامين بمطبوعات قانونية تساعدهم فى اعمالهم والى تنظيـــم الدروس فى كل محكمة والى انشاء مركز لاعادة التكوين متمتع بمخبر اللغات وبمكتبة غنية•

وتجدر الاشارة ان كل مطبوعاتنا مشكولة وذلك لتجنب اللحـــن وللتعجيل بحفـــظ المصطلحات ولتسهيل الفهم على المواطنين •

وقد تغلبت التقنية على صعوبة الطباعة المشكولة والكتابة المشكولة على الآلة الراقنة فلماذا نتردد فيما يخص اعادة الشكل الى لغتنا والاسباب التى تدعو اليها اليـــوم أشـــد الحاحا من تلك دعت فى زمن الخليل بن أحمد الفراهدى •

ومن المعلوم ان الاستمارات اذا كانت مكتوبة بالعربية والفرنسية تغوى كثيرا من الناس على ملئها بالفرنسية ولهذا كانت الاستمارات التى طبعناها مكتوبـــة بالعربية وحدهـا للارغام على التفكير والتحرير باللغة الوطنية وحدها • ونعتقد ان الازدواج اللغوى ان كان مفيدا للثقافة الشخصية فانه يصبح عائقا اذا اعتمدناه في الاستعمال •

« تصحيح العمليـــة وتوسيعهـا »

بعد أن مضى على عملية التعريب سنتان ونصف تقريبا وبعد أن اطلعنا من خلال تجوالنا واجتماعاتنا المتكررة على ما قطعنا من مراحل بدأ لنا ان نضع الاسس المتينة والنهائيــة للقضاء الجزائرى المعرب تعريبا كاملا وذلك يوجد فى منشور 2 ماى 1974 الذى كان أوسع وأدق من المنشور الاول لسنة 1971 ·

فان منشور 2 ماى 1974 موجه لكل الهيئات التابعة لوزارة العدل لاننا اكتشفنا أن بعض المصالح اعتبرت انها غير معنية بالتعريب فذكرنا فى المنشور هذه المصالح باسمائها : الادارة المركزية والمحاكم والمجالس ومكاتب التوثيق ومؤسسات اعادة التربية ومركــز اعادة التكوين وديوان الاعمال التربوية وهيئة المحامين ، ووضحنا لها ما هو المطلوب منهـا من أجل تعريبها تعريبا كاملا ·

فالعملية اصبحت اذا أكثر شمولا تحت دفع حريتها وأحسن تكييفا تحت اثر مكاسبها ·

فالتعريب كما قلنا فى المنشور لا يهم المرافعات والاحكام فقط بل لابد أن يغزو جميع أنواع النشاطات الادارية من مكالمات هاتفية واجتماعات وحوار مع الجمهور ورسائــل وقرارات ونصوص تنظيمية وقانونية ورخص مختلفة وعقود توثيق ، وتوصلنا فى المنشور الى رسم صورة التعريب الكامل ·· ان كل ما يصدر من وزارة العدل ومن المصالح التابعة لها يجب أن يكون بالعربية وحدها أما الترجمة فهى غير اجبارية اى تتماشى مع حاجيــات المحيط الادارى الخارج عن وزارة العدل فالغينا الترجمة الاجبارية نظرا للخطر الذى تحدثه فى مسيرة التعريب اذا أننا علمنا ان بعض الموظفين والقضاة ينطلقون من النص الفرنسى الى النص العربى ومن جهة أخرى لاحظنا أن كثيرا من المحاكم والمجالس والمكاتب التوثيقية أصبحت تعمل بالعربية فلم نحملها مشقة الترجمة اذا كانت هذه غير لازمة ·

فانظروا كيف تخلق العملية منطقها الخاص بها وترغم المسؤولين على الذهاب الى ابعــد مما خططوا ·

ان عملية التعريب تحدث تفاعلات متسلسلة تؤدى فى النهاية رغم الاضطراب الذى يصحبها تؤدى الى حتمية شمولية التعريب وحتمية اضمحلال العمل بالفرنسية ·

النتـــائـج :

مــن النتائــج ما هــو نفســانى :

ان القرار المتطرف الذى اتخذناه أحدث صدمة سارة عند البعض ودهشة عند البعض الآخر ولكن الناس سرعان ما تخلوا عن الذهول وحاولوا ان يتكيفوا مع الوضع الجديد وهذه نزعة طبيعية عند البشر ينبغى استغلالها ·

فانكب القضاة المحامون على تعلم اللغة العربية والكثير منهم لاول مرة منذ الاستقلال ·

والجلسات العلانية خلقت جوا ساعد على تعود المصطلحات القانونية وأشعـر الشعب أكثر فاكثر بمعنى الاستقلال الوطنى ·

ومن ناحية أخرى قضى التعريب الكامل على التمييز بين الجنوب المعرب والشمـال المفرنس ·

فان اعتمدنا فى أول العملية على القضاة المزدوجى اللغة المكونين فى الجزائر بالمدارس « الفرنسية الاسلامية » وعلى الاخوان المجاهدين والمناضلين الذين تكونوا فى الشرق تحت رعاية جبهة ألتحرير الوطنى فاننا الآن نعتمد أيضا على عناصر أخرى تتألف من الشبـان المتخرجين من الاقسام المعربة ومن القضاة والكتاب الذين كانوا لا يعملون الا بالفرنسيـة وحصلوا في زمان قصير على رصيد لغوى جعلهم في صف العاملين والقائمين على التعريب فهذه النتيجة مهمة للغاية ·

ـ هناك , بجانب النتائج النفسانية نتائج متعلقة بالتعليم : فالقرار الذى اتخـذناه لتحقيق التعريب أدى الى تنظيم دروس اجبارية فى كل المحاكم والمجالس والى فتح مركـز الدار البيضاء الذى يدرس بصفة مكثفة اللغة العربية والمسائل الفقهية ويعلم الضرب على الآلة الراقنة واستعمال المطبوعات الجديدة , وتحرير الاحكام والمركز معرب تماما , وقـد تخرج منه عدد من القضاة والكتاب وكانوا مدة ثلاثة أشهر لا يسمعون الا لغـة الضـاد وينتفعون بمخبر اللغات الذى زودنا به المركز·

وفى آخر سنة 1975 سنفتح ان شاء الله فى تيزى وزو مدرسة وطنية للحراس تسعى الى تكوينهم العام فى مهنتهم الحراسية والتربوية باللغة العربية ·

ـ فالمدرستان المذكورتان لهما هدفان : رفع المستوى المهنى وتعريب ما تبقى مـن الموظفين والقضاة لاننا جعلنا حدا منذ أول مارس 1975 للامتحانات والمسابقات باللغـة الفرنسيـة ·

فالخطة التى رسمناها متماسكة والنجاح حليفها اذ أننا قطعنا المرحلة الصعبة الامـر الذى سمح لنا بغلق باب التوظيف بالفرنسية وبفتح باب التكوين بالعربية للذين يوجدون

فى القضاء ولم يستطيعوا مسايرة الركب منذ التعريب الكامل والشامل ، فغلق بـــاب التوظيف بالفرنسية يحصر عندما هو عليه الآن عدد المتأخرين فى اللغة العربية ويسهـــل لنا مواجهة التكوين الذى يتعقد اذا استمرت أفواج الموظفين الجدد المفرنسين ٠

ـ ومن نتائج ما هو متعلق بالعمل الادارة المركزية تعمل الآن بالعربية وفى اجتماعاتها ومراسلاتها وفى معالجة ملفات الموظفين وفى حركتها التشريعية والتنظيمية ٠

كما ان الجلسات والمرافعات تقع باللغة الوطنية وحدها فى المحاكم والمجالس ٠

والاحكام والقرارات ينطق بها عربية وتحرر بدون ترجمة فرنسية ٠

ومن بين 160 مكتب للتوثيق 130 يعمل باللغة العربية ، أما المكاتب التى ما زالت تعمل باللغة الاجنبية فقد زودناها شيئا فشيئا بالكتاب المعربين ٠ وقد تم أيضا تعريـب ادارة السجون ٠

والنتائج المتعلقة بالعمل اليومى تتمثل كذلك فيما طبعنا من استمارات ونماذج أحكام ونماذج رسائل وأنماط العقود ، فمنذ بداية عملية التعريب فى آواخر 1971 سحبنا 500 نوع من المطبوعات المكتوبة بالعربية وحدها و 10 مدونات القانونية مطبوعة صفحـــة عربية مشكولة تقابلها صفحة فرنسية وفى الايام القادمة ستصدر أول مجموعة الاحكـام الرئيسية تغطى 10 سنوات قضاء (1962 ـ 1972) ٠

وبلغ عدد المطبوعات المسحوبة والموزعة 45 مليون نسخة ، والعملية مستمرة لان المطبعة التابعة لوزارة العدل مخصصة لتلبية حاجيات المصالح بصفة دائمة ٠

وعربنا أيضا مجلة القضاة الدورية ونصحنا منظمة المحامين باضافة قسم عربى فى مجلة المحاماة وقد عملت بهذه النصيحة ٠

ومن المتوقع أن تصدر عن قريب مجلة قانونية أخرى معربة أيضا عن الجمعية الفتية ، جمعية الحقوقيين الجزائريين ٠

ومن المؤكد أن هذه المجلات ستساهم فى تعريب المحيط القانونى وفى تغذية الحقوقيين بدراسات متنوعة تشحذ الاذهان وتنبىء بما يصدر فى الجزائر من تشريع وأحكام وبما يجد فى مجال الفقه المقارن ٠

ومن الطبيعى أن نتساءل أين بقى المشكل الآن ؟ ٠

ان الصعوبات التى ما زالت تعرقل مسيرتنا محصورة فى مسألتين : مسألة ما يأتينـــا بالفرنسية من المصالح الخارجية عن وزارة العدل ـ رسائل وتقارير وأوراق رسميـــة ـ

وقد واجهنا هذا المشكل باتخاذ موقف واقعى : فاننا نقبل هذه الوثائق ونخذها بالاعتبار بدون اللجؤ الى ترجمتها ·

والمشكل الثانى هو مشكل فردى : فالتعريب لا يتعثر فى مصلحة من المصالح الا والسبب يعود الى وجود شخص لم يتمكن بعد من ان يحرز مستوى لغوى يؤهله للتطبيق السريع . والحل لهذا المشكل يكمن فى التكوين المستمر وفى غلق باب التوظيف لمن لا يحسن اللغة العربية نطقا وتحريرا ·

استخلاص العبر من تجربتنا

استنتجنا من تجربتنا هذه دروس يمكن للغير ان يستفيد منها وهى كالآتى :

1) ينبغى اشعار الناس ان التعريب أمر لا رجوع فيه . وذلك لا عن طريق الكلام والكتابة بل عن طريق وضع الناس أمام الامر الواقع ·

2) الشروع فى العمل هو وحده الذى يخلق الظروف الملائمة للتعريب ·

3) لابد ان يستعمل اسلوب الاكراه الذى لا يعنى رفع العصا بل هو غير مباشر وهو عبارة عن خلق الظروف التى ترغم الموظفين والمواطنين على التفكير والتحرير باللغة الوطنية ·

فاليكم انواع الاكراه التى مارسناها :

– اجراء الجلسات العلانية بالعربية حث الكثير على الاسراع بتحسين مستواهم فى اللغة لكى لا يكونوا عرضة للتهكم ·

– الغاء المطبوعات الرسمية المكتوبة بالفرنسية اجبر الموظفين على تعود المصطلحات المستعملة فى المطبوعات التى توزعها الوزارة مكتوبة بالعربية فقط ·

– اجراء الامتحانات والمسابقات بالعربية ·

قصد التوظيف فى مصالح وزارة العدل جعل الناس يولون أهمية لتعلم لغتهم وجعل الفرنسية لا تصلح كلغة القوت فى ميدان القضاء ومهنة المحاماة . فهذا السلاح الذى استعملناه أصدق انباء من الخطب . فى ناره الحد بين الجد واللعب لانه لا ينفع ان نشكو غزو اللغة الفرنسية وان نبكى على مصير اللغة العربية بل الامر يقتضى الشجاعة والاقدام ·

– والشمولية تعتبر نوعا آخر من الاكراه الغير المباشر لانها لا تترك مجالا للتهرب : فلو عربنا قسما دون آخر لرأينا المعربين فى جهة والمفرنسين فى جهة وهذا يعرض طبعا

لمخاطر الانشقاق بين الموظفين ، ويترك للمفرنسين عذرا لتأجيل تعلمهم اللغة الوطنية الى أجل غير مسمى ٠

ـ ولا اخفى عليكم انني استعملت في بعض الحالات الشاذة الاكراه المباشر الذى تمثل في تهديد بعض القضاة كتابيا وشفاهيا بالاقصاء ان لم يسرعوا بتطبيق تعليمات الوزارة الخاصة بالتعريب ، وهذا الموقف ليس تعسفيا لان قانون الوظيف العمومي يعرض لعقوبة ادارية كل من يعصى تعليمات الوزارة ٠ ولا أخفى عليكم ان التهديد اتى الثمار المرجوة في وقت قصير ٠

ـ درس آخر أكدته تجربتنا : فان البعض كان وما زال يقول بأن مشكل التعريب يحتاج الى وقت ، حقا نحن في حاجة الى مدة زمنية لتكوين جيل جديد يفكر ويعمل بالعربية، ولكن الواقع بين ان عامل الزمن لا يكفي وحده بل لابد ان يواكبه عزم وارادة وشروع في العمل لاننا لاحظنا ان بعض القضاة والمحامين والموظفين لم يبذلوا مجهودا في اللغة العربية منذ الاستقلال الا منذ أعلنا التعريب الشامل والكامل في آخر 1971 أى لم يفتحوا كتابا لتعلم لغتهم مدة 9 سنوات بعد التحرر من الاستعمار ٠

4) تعريب الادارة لا يطرح في الحقيقة صعوبات لا تقتحم لان العمل الادارى قسم الى حد جمل العمليات التى يقوم بها الموظف يوميا وتكرارا منحصرة في عدد قليل جدا ، وكل الادارات في العالم بسطت أعمالها بوضع أنماط ونماذج تغطي معظم النشاطات (المراسلات ، الطلبات ، الاجوبة ، تصميم مفصل للاحكام حسب انواعها ٠٠٠ الخ) ، وقد تيقنا من هذه الحقيقة من خلال عملية المطبوعات التى قمنا بها والتى أوصلتنا حتى وضع نماذج من عقود التوثيق ونماذج من الاحكام وهذا يوفر الوقت ويجنب التحرير ويسهل التعريب ٠

فاننا نعتقد بان التعريب تعريب الادارة المتعاملة مع الجمهور التى تشغل العدد الاكبر من الموظفين ليس فيه مشكل يذكر لان الاعمال الإدارية مبسطة ومنظمة ومجزأة ولان المشرفين عليها يتخرجون في الغالب من المدارس الابتدائية والثانوية التى تعد الآن للامتحانات المعربة أو المزدوجة لغويا ٠

أما الاعمال الادارية التى تتطلب ملكة في اللغة فهي اعمال التحرير والتشريع ويقوم بها عدد قليل من الموظفين نستطيع أن نوجه عنايتنا لتعريبهم بسرعة وبأحدث الطرق التعليمية ٠

5) والدرس الآخر الذى لقنته تجربتنا هو وهن الحجة التى يقدمها البعض وهي قلة المترشحين للوظيف العمومي بالعربية ٠ فنقول لهؤلاء الذين يعيشون بأبدانهم في سنة

1975 وبأفكارهم فى سنة 1935 : أفلا تعلمون أن عدد التلاميذ فى التعليم الابتدائى والثانوى يبلغ ثلاثة ملايين وأنهم سيخرجون باللغة العربية سواء من الاقسام المعربة أو الاقسام المزدوجة فاثر البلاغ الذى نشرناه أخيرا فى الجرائد الوطنية لتوظيف 400 شخص فى مناصب مختلفة بعد امتحانات ومسابقات تجرى كلها بالعربية تلقينا 7000 آلاف طلب سأترك الواقع التعليمى يتكلم واترك هذه الارقام تعطى الاشارات الضوئية .

6) وتجربتنا دلت فى الاخير على ان الموظفين والقضاة الذين كانوا لا يحسنون الا الفرنسية استطاعوا ان يتكيفوا مع الواقع والحالة الجديدة وقد أصبح الكثير منهم من أنصار التعريب ومن المشرفين على تطبيق التعليمات الصادرة فى شأنه والنتيجة هذه مهمة جدا لانها برهنت على امكانية التعريب دون أن نرتكب خطأ أو ظلما ازاء الذين لم يسعدهم الحظ بالتعريب السريع .

وخلاصة الدروس من عملية التعريب فى وزارة العدل مركزة فى هذه العبارات :

ايمان بالقضية وارادة وخطة واضحة وتتبع العملية مع ربط النظرية بالتطبيق والتصحيح فى اثناء العمل وملازمة اليقظة والصرامة .

وكل ثورة لا تسمى ثورة الا اذا استعملت وسائل استثنائية تختلف عن الاساليب المألوفة وتحمل فى طياتها فكرة المبادرة والاجتهاد وفى قلبها قوة العقيدة والايمان .

فسنواصل السعى حتى نحقق الاهداف التى رسمناها فمن اجتهد وأصاب له أجران ومن اجتهد وأخطأ له أجر واحد .

وسنصغى الى كل الملاحظات والانتقادات التى من شأنها أن تضمن الانتصار النهائى الابدى للغة العربية ، لغة القرآن ولغة هذا الوطن العزيز الغالى الذى ما أراده شهداؤنا ورفاقنا فى الكفاح الا عربيا مسلما تلتقى فيه فكرة العدالة الاشتراكية مع فكرة العدالة الاسلامية الخالدة .

في فرنسا

شبكات التخريب والتهريب تنبع من السلطة

تاليف : **بادريس شايروف**
عرض ونقد : **محمد الميلي**
مدير وكالة الانباء الوطنية





بعد مرور ثمانية عشر عاما على قيام الجمهورية الخامسة ، وبعد انقضاء أربعة عشر عاما على انتهاء حرب الجزائر ، ما يزال غلاة « الجزائر الفرنسية » يفكــــرون فى التخريب ، تخريب المؤسسات الجزائرية ، بفرنسا ، وتتبع الهجرة الجزائرية هناك باعمال العدوان والعنصرية وحتى التقتيل الاعمى أحيانا .

وقد عرفت الجزائر ، فى مطلع هذا العام ، تصعيدا فى موقف غلاة ارهابى « الجزائر الفرنسية » تمثل فى التخطيط لعدد من عمليات التخريب كان مقدرا لها ان تشمل جهات واسعة من القطر الجزائرى ، لكنها اكتشفت كلها قبل التنفيذ ، ماعدا واحدة هى التى نفذت فى مقر « المجاهد » اليومى ، والسؤال المطروح فى مثل هذه الحالة، هو : كيف أمكن لاجهزة الامن الجزائرية اكتشافهم بهذه السرعة ، ومن هى الجهات التى تكمن وراء هؤلاء المخربين ، ولماذا لم يكتشفوا بفرنسا ، رغم انهم ارتكبوا ـ على امتداد سبع سنوات ـ أكثر من 160 عملية تخريب ؟

لا ندعى اننا نستطيع ان نجيب عن هذا السؤال ، ولكننا نريد فقط ان نعطى صورة عن وسط فرنسى غريب تنتمى اليه عادة مثل هذه العناصر ، وهو وسط يقع على حدود أجهزة الاستخبارات وحدود اوساط اللصوص والقتلة · انها عناصر تنتقل بسهولة ، بين هذا وذاك ، متمتعة بغطاء رسمى أو شبيه بالرسمى ·

والصورة التى نريد اعطائها عن هذا الوسط الغريب ، نعتمد فيها على كتاب صدر بفرنسا فى آخر السنة الماضية ، أى منذ شهور قلائل عنوانه الحرفى هو : « ملف ب مثل باربوز » وقد صدر هذا الكتاب ضمن سلسلة تبدأ دائما بكلمة « ملف ·· » متبوعة بالحرف الاول من الموضوع الذى يخصص له الكتاب · وكتابنا هذا مخصص لهيئة استخبارات خاصة ، قامت بنشاطات متعددة فى أكثر من اتجاه ، خلال العهد الديغولى · وقد بذل مؤلف الكتاب ما لا يقل عن ثلاث سنوات من الجهود فى البحث والتنقيب عن جهاز الاستخبارات هذا ، معتمدا هنا على شهادة حية ، وهناك عن وثيقة صحافية ، وتارة على بيانات رسمية الخ ··· حتى توصل الى تقديم صورة واضحة عن هذا الجهاز الديغولى الغريب · وكلمة « باربوز » بالفرنسية مشتقة من كلمة « بارب » (أى اللحية) لان بعض من كانوا يختارون لحراسة الرسميين من بين اوساط معينة نظرا لخصائص بدنية معينة، كانوا ملتحين ·

بدايـــات الشبكـــة

عرفت شبكة الاستخبارات الديغولية هذه بعناوين واسماء مختلفة · وقد ولدت ، بصفة رسمية عام 1958 باسم « ساك » (S. A. C.) أو « مصلحة نشاط الاخـــلاق المدنية » ، ظهرت فى صورة جمعية مسيرة حسب قانون الجمعيات (الصادر عام 1901) ·

والواقع انها ترجع الى ما قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات ، لانها ارتبطت بنشـاط التنظيمات الديغولية السياسية مثل « تجمع الشعب الفرنسى » (الذى انشىء عام 1947) والذى كان يهدف الى تهيئة الظروف الملائمة كى يعود الجنرال دى غول الى الحكم · ومن بين الوسائل المعتمدة لذلك هو العنايـة بجميـع الميادـين الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية ، وضبط جهاز يوازى جهاز الدولة الرسمى ، حتى يتحرك عندما تجتمـع ظروف رجوع الجنرال ، وقد حرص التنظيم الديغولى على ان يضم اليه العناصر ذات النفوذ والتى تتمتع بمواقع هامة فى الميادين الاقتصادية والمالية والسياسية · اذ نجد مـــن بين الشخصيات المتعاونة مع هذا التنظيم مدراء بنوك وشركات بترولية بل وحتى السيد مارسيل داصو المشهور بصناعة الطيران الفرنسى · ومن هنا لم تكن مصادر التمويـل تنقص هذا التنظيم · ولنستمع الى شخصية تحتل اليوم موقع مسؤولية فى بنك أميركى بباريس ، تعطى بعض المعلومات عن جانب التمويل · تقول الشخصية المذكورة ما يلى :

« جمعت ثلاثة ملايين دولار فى لندن من طرف «المكتب المركزى للاستخبارات والعمل» (وهى مصلحة استخبارات ديغولية انشئت خلال الحرب العالمية الثانية) كانت خارج أى حساب رسمى ، ووزعت فى عدة بنوك بريطانية ، وخاصة بنك « مـورغن غارنتى تروست » و « بنك باركلاى » ، وكانت مهمتى الرسمية داخل بنك « مورغن » تتلخص فى زيارة فروعنا بأروبا الغـربية · وبمناسبة هذه الزيارات كنت أرســل الى فرنسا وسويسرا عملات صعبة أسلمها الى شخصيات موثوق بها تابعة لمصلحة أمن حركة «تجمع الشعب الفرنسى» · وكان خروج العملة من بريطانيا لا يصطدم بأية عرقلة رغم صرامة الاجراءات لاننا كنا نتمتع بغطاء المخابرات البريطانية · فقد كانت الصداقات الـتى تكونت خلال المقاومة السرية ما تزال قوية » · (ص 17 ــ 18) ·

ولكى نأخذ صورة عن أهمية تنظيم امن الحركة الديغولية فى الخمسينات يسوق المؤلف شهادة مفادها انه ـ أى التنظيم الامنى المذكور ـ كان يشمل ستة عشر الف شخص ، من بينهم من يعملون فى مصالح الدفاع الوطنى الفرنسى ٠

ويسجل المؤلف ان التنظيم السرى المذكور لم يكن يتشدد فى انتقاء العناصر ، طالما تتوفر فيها الشروط المطلوبة ، أى انه لم يكن الماضى يؤخذ بعين الاعتبار ٠ وبذلك وقع الاعتماد على عناصر كانت قد اشتغلت مع نظام فيشى أو مع سلطات الاحتلال الالمانى ، لكن فيما اذا كان العنصر المطلوب معروفا جدا فى منطقته بأنه كان يتعاون مع الاحتلال النازى ، فتزور له شهادة نضال ومشاركة فى المقاومة ثم يوجه الى مدينة اخرى لا يكون فيها معروفا ٠ اما شهادات النضال نفسها فقد كانت تطبع بالجملة فى بلجيكا ٠

وقد استعملت هذه الشبكة خلال حملة الانتخابات البلدية لمدينة مرسيليا عام 1947٠ يقول أحد عناصر هذا التنظيم ، بهذا الصدد ما يلى :

« كانت التعليمات الواردة من باريس قاطعة ، يجب ان ننتصر بكل ثمن ٠٠٠ فجمعنا الاصدقاء وأصدقاء الاصدقاء وكاشفناهم بالوضع : يجب ان تفسدوا الاجتماعات الانتخابية للاعداء بالعصى ، وفيما اذا لم يكن ذلك كافيا فاستعملوا الاسلحة النارية ٠ فاذا نجحنا فى الانتخابات فسوف نتكفل بتغطيتكم وبمستقبلكم ، وفيما اذا هزمنا فسوف نضمن نقلكم الى جهات أخرى ٠٠٠ وقعت عدة أضرار ، لكننا نجحنا » (ص 20) ٠

ويصف المؤلف بعد ذلك كيف بدأت محاولة التسرب الى الاجهزة البوليسية الرسمية والسيطرة عليها ، ويقول ان الذى قام بهذه العملية هو محافظ الشرطة « جان ديد » ٠ وقد كان دخل الى سلك البوليس فى عام 1936 وعندما قامت الحرب العالمية الثانية وجدته فى سلك البوليس السرى الذى عهد اليه بمراقبة نشاط الاجانب ٠ وقد كان هو الساعد الايمن لمدير الاستخبارات العامة ، « روقى » الذى اعدم عند تحرير باريس نظرا لتعاونه مع الالمان ٠ وكان « جان ديد » خلال هذه المدة يجمع الملفات والمعلومات والوثائق التى تمكنه من تجنب عمليات « التطهير » التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ٠ ونظرا لاشتهاره بعداء الشيوعيين فقد قبلت المخابرات الاميركية بالتعاون معه ٠ وفى عام 1947 انضم

الى حركة « تجمع الشعب الفرنسى » الديغولية ، وتعهد بتسريب العناصر الديغولية وسيطرتها على الاجهزة البوليسية • وقد اختار مساعدا له شخصا اسمه « دولارو » كان محكوما عليه بعشرين سنة سجنا لتعاونه مع النازيين ، فهربه فى سبتمبر 1947 ليصبح بعد ذلك هو رئيس البوليس الخاص بالرئيس الكونغولى « فولبير يولو » • الذى كان معروفا بعلاقاته وتبعيته لباريس •

امبراطورية جاك فوكار

بعد تعريف موجز بهذا التنظيم وأصوله ـ وهو موضوع الفصل الاول ـ يخصص المؤلف الفصل الثانى من الكتاب للتعريف بمهندس هذا التنظيم الذى وضع اسسه الاول وطوره ، وهو جاك فوكار ، وقد اشتهر اسم فوكار بصفة خاصة فى افريقيا السوداء ، عندما كان ـ من مكتبه فى رآسة الجمهورية الفرنسية ـ يصنع حكومات افريقية ، ويوجه خيوطها • فمن هو جاك فولكار ؟

بدأ حياته فى عام 1938 ـ وعمره آنذاك خمس وعشرون سنة ـ بانشاء شركة صغيرة للتوريد والتصدير • جند فى الجيش مع قيام الحرب فى عام 1938 ، وتم تسريحه من الجيش فى شهر جويلية 1940 فعاد الى الحياة المدنية بانشاء شركة للفحم • ولا يلبث بعد ذلك أن ينضم للمقاومة فى عام 1942 ، ليصبح فى عام 1943 على رأس شبكة واسعة للمقاومة وبعد أن يقدم المؤلف شهادات تؤكد غموض شخصية فوكار ، اذ يفهم منها انه كان فى نفس الوقت الذى يشتغل فيه مع المقاومة الديغولية ، كان يتعاون تجاريا مع الالمان مما مكنه من تحقيق أرباح كبيرة ، يسلط المؤلف الضوء على فترة التدريب التى قضاها فى جهاز الاستخبارات البريطانية فى اكتوبر 1944 ، ويسوق فى هذا الصدد شهادة أحد اساتذته الانكليز فى هذا التدريب اذ يقول :

« كان يبدو كما لو انه خلق ليتخصص فى الاستخبارات • كان الاول فى الترتيب • وكانت له مقدرة كبرى على تجميع عناصر المعلومات واستنطاقها ، مما يمكنه من التعرف بسرعة على نقطة الضعف فى جهاز العدو ، ويسمح له بان يضبط بسرعة حل مشكل معقد » (ص 66) •

طلب اليه الجنرال دى غول فى اكتوبر 1945 ان يترشح للانتخابات التشريعية ، فقبل ثم تخلى لفائدة جاك سوستيل الذى كان مسؤوله فى التنظيم الديغولى السرى ٠

وفى عام 1946 عاد الى نشاطه التجارى الاسبق ، فأنشأ « الشركة الفرنسية للتصدير والتوريد » ، وهى أولى شركات عديدة ستسمح بتمويل جهاز الاستخبارات الديغولى ، وقد تخصصت فى العلاقات مع اقطار ما وراء البحار ٠ وقد أصبح فى 1949 مكلفا ، داخل حركة « تجمع الشعب الفرنسى » باقطار ومحافظات « ما وراء البحار » ليصبح عام 1952 هو الامين العام للحركة الديغولية المذكورة ٠

وبعد ما ان تخلى دى غول عن الحكم بعد فشله فى فرض مشروعه الدستورى ، ظل جاك فوكار الى جنبه ، معتمدا فى تمويل جهازه السرى على الشركات التجارية التى ينشؤها هنا وهناك ٠

وقد أصبح دوره الاساسى يتلخص فى التهيئة لعودة الجنرال دى غول الى الحكم ، ومن ثم لعب دورا كبيرا فى حركة 13 ماى 1958 ٠ وبعد ان اصبح الجنرال دى غول رئيسا للجمهورية ، استقر فوكار الى جنبه كمستشار خاص مكلف بشؤون « المجموعة الفرنسية » ٠ وفى عام 1960 تم تعيينه أمينا عاما للمجموعة ٠

وقد انشأ فى 1959 شركة أخرى للتصدير والتوريد ، واعقبها بانشاء تسع شركات أخرى خلال السنوات التالية ٠ وقد تخصصت بعض هذه الشركات فى بيع الاسلحة والمعدات الحربية ، ولكى يتم تأمين تمويل جهاز الاستخبارات الديغولى السرى انشئت شركات أخرى وهمية ، حتى يتم نقل مبالغ العملة الصعبة عبر شبكات معقدة حتى لا تظهر العلاقة بين جهاز الاستخبارات والشركات التجارية الفوكاردية ٠ ولاعطاء صورة عن كيفية تنظيم هذه الشركات واهدافها وكيف تنسج خيوطها ، يضرب المؤلف المثل بنشاطها فى منطقة الخليج العربى فيقول :

« كانت الامارات العربية فى ساحل القراصنة بالخليج وشط العرب تتهيأ ، خلال سنوات 1968 ـ 1971 للحصول على الاستقلال التام فى عام 1972 ٠ وبعض هذه الامارات مثل ابو ظبى وعمان وقطر لها موارد بترولية ، أى مالية معتبرة ٠ وبعضها لها

موارد محدودة وعليها ان تكتشف وسائل أخرى • وتلك هي وضعية امارة الشارجة التى انشأت فى عام 1971 شركة طيران وبحرية بهدف مضاعفة القنوات التجارية ، وقد انشئت هذه المصلحة الرسمية للشارجة بمبادرة من « جان كلود سيغال » ، وهو أحد الرجال الذين يعتمد عليهم كريستيان كالفى الذى هو المسؤول عن القطاع المالى فى أجهزة فوكار • وقد كان كريستيان كالفى هذا ينتقل فى تلك الفترة بين أروبا واليونان ومصر والخليج ، وكان أحيانا يستعمل جواز سفر بريطانى باسم « ستيفان شاندلير » وأحيانا أخرى يستعمل جواز سفر سويسرى باسم « غاستون برنسى » ، ويواصل الكاتب وصف هذه الشركات الغربية التى انشئت بمجرد دفع ثلاثة آلاف دولار فقط اذ ان مؤسيسها لا يطلب منهم اقامة الدليل لاثبات رأس المال الذى يدعون انهم يخصصونه للشركة ، ثم يقول :

« أنشأت هذه الشركة فروعا لها فى أروبا والولايات المتحدة الاميركية ، باستعمال شبكة من الوكالات التجارية تمتد من أثينا الى ميامى ومن لندن الى روما مرورا بجنيف وزوريخ وباريس وبروكسل • وبما ان المقر الرسمى لهذه الشركة يوجد فى بلد عربى فان ذلك يسمح لها بان تستقبل استقبالا حسنا من طرف بلدان العالم الثالث • وهكذا بدأ تنظيم الميدان الخاص بفوكار •

فقد اقترن اسمه بجميع الاحداث السياسية الهامة التى وقعت فى افريقيا السوداء وفى بلدان أخرى من العالم الثالث • وقد قام السيد بيير مارى دى لام ••• وهو من أوائل مساعديه ، بعدة مهام لحسابه فى افريقيا السوداء فيما بين 1959 و 1969 • وقد غادر السيد بيير مارى دى لام • ••• تنظيم فوكار وتعرض بعد ذلك لمحاولة اغتيال مرتين ، المرة الاولى فى دوسيلدورف عام 1969 ، والمرة الثانية فى بال عام 1971 • وقد قبل أن يدلى بشهادته » (ص 70 ـ 71) •

ثم يسوق المؤلف شهادة هذا العون من اعوان فوكار الذى تخلى عنه والذى يصف فيها كيف وضع فوكار رجاله فى كل المناصب الحساسة فى المحافظات سواء فى فرنسا او فى أقطار « اوراء البحار •

وفى هذا الاطار يصف المؤلف الظروف التى تم فيها اغتيال الزعيم الكامرونى، فليكس موميى بسويسرا بأمر من فوكار ، وبمساعدة صحافى فرنسى كان يلعب على حبلين ، كما يشير الى ان فوكار هو الذى نظم محاولة اغتيال وهمية ضد الجنرال دى غول حتى يتـم تبرير أعمال العنف ضد منظمة الجيش السرى ، كما يتحدث باسهاب عن تدخلات جهاز فوكار فى شؤون افريقيا السوداء ، فيقدم شهادة لاحد أعوان فوكار السابقين يتحدث فيها عن تفاصيل العمليات التى ضبطت من أجل قلب نظام الرئيس سيكوتورى لانـه رفض التصويت بـ « نعم » فى استفتاء 1958 ·

وبعد استقلال الجزائر اصبحت افريقيا من اختصاص فوكار ، أى خارجة عن نطاق وزارة الخارجية الفرنسية · ويسلط المؤلف بعض الاضواء على نشاط تنظيم فوكار فى افريقيا فيقول :

« كان أحد أعوان فوكار فى الكونغو البلجيكى سابقا هو اندرى لاباى ، الذى ظهـر تورطه ـ بعد ذلك بسنوات ـ فى قضية مخدرات ، قد أصبح مسؤول الاستخبارات لدى سيريل أدولا رئيس وزارة الكونغو ـ كينشازا ـ وقد تولى آنئذ ، لحساب فوكار ، مراقبة عدة شبكات لتهريب الاحجار الكريمة (الديامنت) ···

ولم يكن الكونغو ـ برازافيل بمنجاة من شبكات فوكار · وطالما كان فولبير يولـو هو الذى يمسك بزمام الحكم هناك ، أى الى غاية 13 أوت 1963 فلم يكن هناك أى مشكل أمام شبكات فوكار · بل لقد أصبح الكونغو ـ برازافيل آنذاك قاعدة أساسية مـن قواعدها · فقد كان « صحافيان » هما اللذان يتوليان استقبال بريد الشبكة وتوزيعـه من خلال وكالة صحافية وهمية هى « هادلين بريس اجانسى » (صندوق بريد 2110 برازافيل) وكان كل من دانيال بوجى وجان مارى لوران يقومان بعدة مهام بين برازافيل، ابيدجان ، باريس وبون » (ص 76) ·

ثم ينقل المؤلف شهادة صحافى كان يشتغل فى وكالة الانباء الفرنسية ، وكان يعمل فى شبكات فوكار تحت اسم مستعار هو جيلبير شارقيل · وقد جاء فى هذه الشهادة مـا يـلى :

« ٠٠٠ كنا نتردد على مواعيد تضبط فى بون ، بألمانيا الغربية ، مع بيير جولى وهو متطرف بلجيكى يزودنا بالمرتزقة وبالخبراء فى حرب العصابات ٠ وكان أحد الامكنة المفضلة للقاءتنا حانة « ايفال بار » الذى كان صاحبه احد أعوان فوكار المقيمين فى ألمانيا الغربية ٠٠٠ » (ص 77) ٠

وقد نشطت اجهزة فوكار خلال حرب بيافرا الانفصالية (1967 ـ 1970) فساعدت الانفصاليين بالاسلحة ٠ وعندما فشل الانفصاليون فى بيافرا حاولت أجهزة فوكار الاستيلاء على بعض الوثائق التى تبرز مدى تورط فرنسا الرسمية مع زعماء بيافرا ٠ وقد توصل أحد أعوان فوكار الى استخراج هذه الوثائق التى كانت مودعة فى خزانة رجل صناعة ألمانى فى ابيدجان عاصمة ساحل العاج ٠ لكن تبين فيما بعد ان نسخا مماثلة كانت مودعة فى مكان أمين فى بنك من بنوك لندن ٠ وقد أصبح الغابون أحد القواعد الاساسية لتنظيم فوكار ، حيث ينتقل أعوانه فى صورة مستشارين تجاريين ورجال أعمال يعملون فى شركات خفية الاسم٠ وقد قامت ببناء مصنع تبريد فى ساحل العاج عام 1961، وزودت ايران بتجهيزات كهربائية ، ويسجل المؤلف ان احدى هذه الشركات وهى شركة « مارتمير » معتمدة بصفة رسمية لدى وزارة الدفاع الفرنسى لتقوم بصفقات أسلحة ومفجرات تبيعها للخارج ٠

ومن بين الاعمال التى تخصصت فيها أجهزة فوكار هى تزوير العملات الاجنبية ، وخاصة عملات العالم الثالث واغراق أسواق العالم الثالث بالعملات المزيفة ٠ ويتحدث المؤلف فى هذا الفصل عن شخصيات متورطة فى عمليات التزوير هذه ، مدراء بنوك وموظفون سامون فى ادارة المالية ، ومراقب عام بوليس الخ ٠٠٠ ولا تتورع أجهزة فوكار ، كى تضمن تمويل برامجها ، عن ممارسة تجارة المخدرات ، فقد ألقى القبض على أحدهم فى نيويورك عندما كان ينقل معه أربعا وأربعين كيلو غرام من الهيروين ٠

على ان نشاط فوكار لا يقف عند حدود افريقيا السوداء أو منطقة الخليج ، بل هو يتجاوز ذلك الى اميركا اللاتينية ، ففيما بين 1965 و 1968 عين اثنان من أعوان فوكان سفيرين فى بوليفيا والاروغاى ٠ ويوجه فوكار الى أميركا اللاتينية رجاله الذين «احترقوا»

في أوروبا وافريقيا ، وقد ربط بعض هؤلاء علاقات متينة ، في البرازيل ، مع الكوميسار المشهور « سيرجيو فلوري » رئيس « فرقة الموت » المعروفة ، ومن بين هؤلاء نجد « باتريك بيرتين » المقيم في ساوبولو · وقد انعقدت في منزل هذا الاخير (نهج غويرا ، 202 باسك دي سود) عدة اجتماعات حضرها الكوميسار الآنف الذكر وعدد من ضباط البوليس البــــرازيلي ·

ويساهم رجال فوكار هناك في محاربة الحركات اليسارية · ونجد « بيير بيران » في فانزويلا (حيث يقيم في شارع هندوراس ، بكاراكاس) ونجـــد « ماكس أورباني » و « هارولد روبينس » في غواتيمالا (شارع 4/61 الخ ··· وتوجد فروع لفوكار حتى في الولايات المتحدة الاميركية ، ومكتبه الرئيسي هناك يوجد بنيويورك ويشرف عليـه « راي كلارك » الذي يقول المؤلف ان اسمه الحقيقي هو « روجي آسيون » وأن البوليس الفرنسي يبحث عنه ، وانه يتنقل بجواز سفر ، يثبت انه اميركي من مواليد افريقيا ·

وعندما توفي بومبيدو ، في 1974 ، سعى فوكار الى نقل كل وثائقه الى مكان أمين ·

ايديولوجية المخابرات الديغولية

يخصص الكاتب فصلا للحديث عن ايديولوجية المخابرات الديغولية · فيذكر انها في مرحلة أولى ، بعد عودة دي غول الى الحكم ، كانت تتمثل أساسا في محاربة جبهة التحرير الوطني ، ويسوق المؤلف ، للتدليل على الروح التي كانت سائدة في 1958 ، فقرة مــن نداء وجهه المتطرف الاستعماري المعروف « أليكسندر سانغيناتي » جاء فيها على الاخص مــا يــلي :

« لقد نهضت فرنسا ، أكثر من ثمانية ملايين مسلم ، وأكثــر مـــن مليون فرنسي ذوي الثقافة المسيحية يدافعون عن قبورهم ومهدهم · يجب ان تساعدوهم انخرطوا في مصلحة الخدمة المدنية » (ص 103) ولهذا الغرض اقيمت مدارس لتكوين اطارات هــذا التنظيم الغريب ، استمرت تعمل بانتظام من 1959 الى 1963 · ويتلخص التدريب في هذه المدارس على التدرب على استعمال السلاح، وأستعمال الراديو واللاسلكي ، والشفرة والتخريب واستعمال المفجرات واضرام النار ، كما يشتمل على تعلم الجيدو والكراتي

والاستنطاق النفسى ، والاستنطاق بواسطة التعذيب ، والقتل · وهناك قسم نظرى فى هذا التدريب يتلخص فى التكوين السياسى ، مع التركيز على مناهضة الشيوعية ، وعلى أساليب التسرب ونشر الاخبار الكاذبة الخ ··· ويسوق المؤلف نموذجا للمناشير التى تعتمد فى هذا التكوين السياسى فيقول ان بعض هذه المناشير ينص على ما يلى :

« نريد ان نعتبر بان الحزب الشيوعى الفرنسى يمثل خطرا على الوطن يجب القضاء عليه · نريد تحطيم جهازه · ووسائله ونريد القضاء ان لزم الحال على قادته » (ص 107)· ويقول احد رجال هذا التنظيم فى مجال تأكيد دور « النخبة » على حساب الجماهير ، مما يبرز الطابع الفاشى للتنظيم :

« يجب ان نلاحظ بأن أقلية محدودة هى وحدها القادرة على تطوير الحضارة ، وهذه الاقلية تتميز بانها فردية وليست جماعية ··· ودور الدولة كما نتصوره هو اتاحة الفرصة للنخبة ان تنفصل عن الجمهور » (ص 115) ·

وجاء فى احدى منشورات التنظيم :

« نخضع كلنا لسلطة منظمة · ان رئيسنا هو الجنرال دى غول · وقد فوض سلطاته للامين العام ، فالاوامر التى تتلقونها من الآن فصاعدا من مسؤوليكم تعتبر صادرة عن الجنرال دى غول رئيسنا جميعا » (ص 117) ·

وقد خصص المؤلف عدة صفحات لوصف كيفية اختيار العناصر التى تنخرط فى التنظيم وخاصة تلك التى تعتمد فى محاربة جبهة التحرير · وهنا يسوق شهادة أحد هذه العناصر ، احتفظ باسمه سرا · وقد ادلى بهذه الشهادة للمؤلف فى عام 1973 ، وقد جاء فيها على الاخص ما يلى :

« فى صيف عام 1958 كنت بالسجن فى مرسيليا ، كان محكوما على بخمس سنوات· وكانت العدالة تستعد لمحاكمتى على مسالة أخرى بتهمة الاعتداء بالسلاح · اتصل بى محامى من مرسيليا سالنى فيما اذا كنت اقبل بالانخراط فى صفوف حركة سرية لمحاربة جبهة التحرير الوطنى مقابل ان يتم الافراج عنى · كان عرضا مغريا ، فهو أولا يسمح بانقاذى من وضعية صعبة ، ثم انه يمكننى من محاربة العرب الذى لم أحبهم فى يوم

من الايام · قبلت ، فنقلت الى « ايكس اون بروفانس » ثم الى سجن فى باريس هنـاك اتصل بى محام باريسى وقال لى : ان التنظيم السرى الذى أنخرط فيه هو فى الواقـــع بوليس سرى موازى للبوليس الرسمى ·

كان العمل المطلوب منا عملا مزدوجا : يتمثل أولا فى التسرب الى شبكات جبهـــة التحرير عن طريق التظاهر باننا يساريون متطرفون متعاطفون مع الجزائريين ، وبعـد ذلك نقوم بكل العمليات التى تحدد لنا والتى لا يستطيع البوليس الرسمى القيام بها · وخاصة التصفية البدنية لبعض العناصر ، وفى مقابل ذلك يطلق سراحى فورا ويمنـح لى مرتب ضخم زيادة على المنح ، وعند الانتهاء من مهمتى يصبح دفتر السوابق نظيفا ، وتتوقف التتبعات القضائية القائمة ضدى · بعد ثمانى وأربعين ساعة أصبحت حرا · كان شخصان بانتظارى فى حانة تدعى « على نخب الصحة » تقع فى مواجهـــة سجـن « لا سنتى » الذى كنت به · لم يكن على الا ان اقطع الطريق ، ذلك ان العمل يبدأ فى الحال · أعطى لى جواز سفر مزيف ، ورخصة سياقة مزيفة وبطاقة بوليس قديمة ورخصة حمل السلاح مع السلاح الذخيرة · ورقمى هاتف أحدهما يستعمل نهارا والآخر ليلا · وكنت اعمل مع أربعة اشخاص آخرين من بينهم ضابط مباحث عامة ، منحت له اجـازة مرضية بالمناسبة ، وكانت عمليات التسرب الى صفوف جبهة التحرير من اختصاص فرق أخرى · اما نحن فقد كان علينا ان نفتعل عمليات تصفية حسابات بين الجزائريين ، كما علينا ان نقتل بعض الناس · وكان ذلك عملا سهلا ، كنا نصل فى سيارة أو اثنتين ، الى الحى العربى « باب ايكس » فى مرسيليا ، أو حى باربيس فى باريس ، ونقف أمام مقهى يعين مسبقا ، ثم نطلق قنبلة أو اثنتين ونصحبها بطلقات رشاشة ··· وكان علينا أيضا ان نضطلع بعمليات أصعب ، مثل استنطاق بعض من يلقى عليهم القبض ، ومثل اخفاء جثث الذين يقتلون فى محافظة البوليس لكى نلقى بها فى نهر السين · وعندما نضـع ايدينا على عنصر من الجبهة مكلف بجمع الاموال نقتسم الغنيمة اخماسا ، فحتى الشرطى الرسمى لم يكن يتعفف عن أخـذ نصيبه ، وباختصار لقـد كان مسؤولونا عند كلمتهم ماعدا شيئا واحدا لم ينفذوه وهو تطهير سجل السوابق » (ص 31 ـ 32) ·

على ان مثل هذه الاعمال ليست هى المهام الوحيدة التى تقوم بها أجهزة فوكار ، فهناك جانب آخر يسلط عليه **المؤلف الاضواء فى الفصل السابع من الكتاب** ، وهو يتلخص فى تجميع المعلومات وكيفية استغلالها • ويتحدث المؤلف هنا عن شخص اسمه « شـــارل فانسوزينى » كان يشتغل فى المصلحة المضادة للجوسسة ، وكان هو الذى تولى تنظيم المخابرات الديغولية فى منطقة ليون • يقول المؤلف يصف كيفية تجميـــع المعلومات وتحليلها بعد ذلك ، ما يلى :

« أصبح (أى شارل فانسوزينى) هو الساعد الايمن لفوكار من جانفى 1962 حتى صيف 1974 ، وكان هو المسؤول عن تجميع المعلومات فى نطاق المخابرات الديغولية ، كان يقيم فى الطابق الرابع من العمارة الواقعة فى شارع سولفيرينو رقم 5 » (ص 200) ، وكان يستعمل معارفه فى جميع مصالح البوليس السرى ، يأخذ عنهم ما لديهم مـــن معلومات ويزودهم بالمعلومات التى تأتى عن طريق شبكات المخابرات الديغولية ، وكانت هناك عدة حانات يلتقى فيها من يتبادلون المعلومات • ويورد المؤلف هنا اسم الكوميسار جان كاى من المباحث العامة الذى كان له دور فى قضية اختطاف بن بركة والذى يشتغل الآن فى مصلحة البوليس الاقتصادى •

وبعد تجميع المعلومات ، يلتقى شارل فانسوزينى مرة فى اليوم مع جاك فوكار فى جلسة عمل تستغرق نصف ساعة تقريبا • اما مكان هذه الاجتماعات اليومية فهو يختلف حسب الظروف : فقد يلتقى الرجلان فى قصر الاليزى حيث يوجد مكتب فوكار بوصفه الامين العام لرئاسة الجمهورية مكلفا بالقضايا الافريقية والملغاشية ، أو فى البنايـــة المخصصة لمركز المخابرات الديغولية فى شارع ماجنتا • ويحضر عادة هـــذا الاجتماع شخص متخصص فى موضوع المعلومات المدروسة • وقد قبل احد الذين أتيح لهم حضور هذه الاجتماعات ان يدلى بشهادة يصف فيها كيفية دوراتها ، واسمه بريس لالوند وكان من مساعدى ميشيل ديبرى عندما كان رئيس حكومة على عـهد دى غول • وهـــو الآن يشتغل تاجر أسلحة لحساب شركة سويسرية ، يقول بريس لالوند ما يلى :

« كانت أول مرة أرى فيها جاك فوكار عن قرب • كان ينتظرنا فى مكتب بالطابـق الثانى من العمارة الواقعة فى شارع ماجنتا ، كان استقباله لنا باردا ، ولست أدرى هل

يرجع ذلك الى وصولنا متأخرين عن الموعد أو الى انه يريد ان يزرع فينا الهيبة • الانطباع الذى تكون عندى جعلنى لا أتصور انى امام موظف سام ، بل تصورت انى امام رئيس عصابة • كان يناقش جزئيات الملف بأدق تفاصيلها •• وقد كان اندهاشى كبيرا ، لان هذا الرجل عبارة عن دماغ اليكترونى ، فقد دعانى لاناقش معه مسائل بيع الاسلحـة من طرف البلدان الشرقية ، وكنت قد وجهت له ، عن طريق فانسوزينى قبل ذلك ببضعة ايام ، تقريرا مفصلا يقع فى مائتى صفحة مضروبة على الراقنة ، وأستطيع ان أؤكد انه هضم ما جاء فى التقرير ، والقى عليه اسئلة رجل محترف فى هذا الميدان دون أن يراجع أية مذكرة • وبعد ساعة من الحديث كسبنى واقتنعت ان العمل متعة مع مثل هذا الرجل الفعال حقا • طبعا ان خيبة الامل تستولى علينا بعد ذلك عندما نلاحظ انه يبتلع الرجال والتنظيمات » (ص 202) •

قضيـــة اختطـاف ابن بركـــة

وبما ان المخابرات الديغولية كانت على صلة بقضية اختطاف المهدى بن بركة ، فان مؤلف الكتاب يخصص لها فصلا خاصا • ويتعرض المؤلف لعدد من الاشخاص الذيـن شاركوا فى تلك العملية المشينة والذين ترددت أسماؤهم عدة مرات فى الصحافة العالمية خلال السنوات العشر الماضية • ومن بين هؤلاء شخص ألمانى يدعى « اوتوكارل دوبيو » الذى كان يرأس جمعية وهمية اسمها جمعية الصداقة الالمانية العربية • ويقال انه كانت له علاقات مع المخابرات المركزية الاميركية وكان يستعمل لاتصالاته رقما تيلفونيا تبين بعد التحقيق انه يوجد فى مقر اذاعة اميركا الموجهة الى أووبا الشرقية والتى يوجد مقرها فى ميونيخ بألمانيا الغربية • والتى تشرف على توجيهها المخابرات الاميركية • ويقـول المؤلف بان عدد الاتصالات التى تمت بين المهدى بن بركة وبين الالمانى اوتو كارل دوبوو قد بلغت فيما بين 1963 و 1965 عشرا على الاقل • وكان دوبوو هذا يرسل عن اتصالاته مع المهدى تقارير الى شخص يدعى « بول ويللس » يقيم فى بون ، وان نسخة من تلك التقارير توجه الى شخص يدعى « بول ايف ريو » يقيم فى طنجة ، وهذا الاخير أى بول ايف ريو هو الذى اتصل به البوليس السرى المغربى واجتمع به فى مقره بطنجة 53 نهج دى فينى (الكروم) فى نوفمبر 1964 وفى ماى 1965 • ويقول المؤلف ان دوبوو كان قد

قام آنذاك بعدة مهام لحساب جهاز المخابرات الديغولية الذى يشرف عليــه سو كــار ، فى الجزائر والكامرون والطوغو وانه اطلع فوكار على اتصالاته بالمهدى بن بركة ، وانه تلقى مقابل ذلك أكثر من ستين ألف دولار · ويقول المؤلف أيضا ان دوبوو تعهد باستدراج المهدى ين بركة الى ديسلدورف فى ألمانيا الغربية حيث كان من المقرر ان يتم الاخطاف ، وان ذلك كان مقررا تنفيذه فى شهر سبتمبر 1965 · ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، ففى أوت 1965 ألقت مصالح الامن الجزائرى القبض على دوبوو فى الجلفة · ولذلك وقع توجه المخابرات المغربية الى جورج فيغون وفيليب بيرنسى وانتوان لويز ، اما جـــورج فيغون فقد تردد اسمه فى الصحافة العالمية بما فيه الكفاية ، وقد كان معروفا ارتباطه مع المحامى بيير لومارشى المعروف باتصالاته بالمخابرات الديغولية · ثم يسوق المؤلف شهادة جيرار فيريكور الذى يعيش الآن خارج فرنسا يصف الجو الذى كان سائدا فى أجهزة فوكار عند الاعداد لاختطاف المهدى ، تقول الشهادة المذكورة :

« ··· كنا نعيش فترة جنونية · لان كل المصالح وكل احد يريد ان يسحب نحــوه الغطاء ، ومما زاد الامور صعوبة ان أحمد الدليمى كان قد عرض باسم أوفقير منحة ضخمة فى حالة نجاح العملية · فحسب شتوكى هناك مبلغ مليون دولار قد رصد فى بنـــك بسويسرا ، وقد كان الامل فى اقتسام هذا المبلغ الضخم قد شحذ همم الجميع ··· » (ص 325) ·

كما يسوق المؤلف شهادة شخص آخر اسمه « ليوتنان كاهور » حضر تنفيذ عمليــة الاختطاف ، فوصف دقائقها وكيف انه اعطى هو مبلغ ستين ألف دولار اقتسمها مـــع ثلاثة اشخاص هم ليفى ، وفيبرلاك وبيريسى ، ويقول كاهور ان فيرلاك قد هرب واختفى وان يريسى قد مات فى حادث سيارة بألمانيا الغربية فى جويلية 1970 وانه هو نفسه ، أى ليوتنان كاهور ، قد حاولت اجهزة فوكار ان تلصق به عدة تهم فألقى عليه القبض بايطاليا ويبدو ان فوكار أراد ان يمحى آثار بعض من حضروا العملية ، ويقول المؤلف انه سجل شهادة ليوتنان كاهور بينما كان فى سجن « مورات » بفلورانس فى ايطاليــا، ويضيف لذلك ان كاهور تمكن من الفرار من السجن الايطالى والتجأ الى البرتغال ، فى نوفمبر 1972 ، وان آثاره اختفت من ذلك الحين ·

ثم يواصل المؤلف متابعة نشاطات تنظيم فوكار فى ميادين أخرى ، مثـــل تجارة المخدرات وتنظيم عمليات الارهاب والاستفزاز ضد أوساط اليسار وتجارة الاسلحة ، وعمليات الاغتيال الى آخر القائمة ٠

ويختم المؤلف كتابه بعد ذلك داعيا الى تجميع أكثر ما يمكن من المعلومات عن امثـال هذه التنظيمات ، وان ذلك لا يجوز ان يبقى قاصرا على الاختصاصيين فقط ٠ فالدفاع الذاتى هو احسن وسائل المواجهة ٠

* * *

وباختصار فان هذا الكتاب يتوفر على معلومات قيمة تفيد كل الحركات الثورية وكل الانظمة التقدمية ، لانها ليس فقط تبرز حقائق وتعرى مسؤولين ، وتكشف عن ان منبع الفضائح والتخريبات يوجد احيانا داخل السلطة الحاكمة نفسها ، ولكن أيضا لانه يساعد على تبين الاساليب التى يشتغل بها الاستعمار الحديث سواء فى علاقاته الخارجيـــة أو الداخلية ٠

انه لا يجوز ان نستغرب وجود عناصر استعمارية ، ما تزال حتى الآن ، تحلم بارجاع عجلة التاريخ الى الوراء ، فى الجزائر أو خارج الجزائر ، فقد كتب انتوان أرغو ، احـــد كولونيلات 13 ماى 1958 ، فى خاتمة كتاب له صدر فى نهاية عام 1974 يعتز فيه بمـا اقترف من جرائم فى حق الجزائريين يقول ما يلى :

« انى لا آسف على شيء ٠٠٠ سوى على انى فشلت ، ولو ان المعركة تستأنف لعدت اليها من جديد » !

نعم فهناك عناصر استعمارية ما تزال تحقد على الجزائر المستقلة بكل قواها ٠ وهذه سوف تسعى دوما الى ان تستغل نقاط ضعفنا ، وتستمد منها تبريرا لنشاطها التخريبى ٠ والعبرة التى يمكن ان تستخلص من ذلك هى ضرورة الاعتماد على الدفاع الذاتى ، وتحويل اليقظة من مجرد شعار الى ممارسة فعلية حية واعتبارها مهمة كل احد وليست مهمـــة اجهزة الامن وحدها ٠٠٠ فالمعركة لم تنته بعد ٠

دراسات

فى أدب الرحلة عند العرب

بقلم : د. حسنى محمود حسين
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

ـ أ ـ

تمهيــــــد :



منذ دب الانسان على هذه الارض وهو يحاول اكتشاف ما يحيط به من أسرارها بقصد التعرف والسيطرة على ما يكتنفه من الحياة ، لا فرق فى ذلك من حيث المبدأ بين ارتياده بقعة تجاوره من نفس الغابة التى ياوى اليها أو غزوه غابة أخرى ، وبين ارتياده أطراف الفضاء أو غزو أجوازه البعيدة • ويوم يحط قدمه على سطح القمر(1) أو أى كوكب آخر سيبدأ يعيد سيرة أبيه الاقدم عندما حط هو الآخر بقدميه على سطح الارض ، وانتصب على ساقيه يذرع ، متوجسا ، ما حوله منها ، ولكن مع فارق الاداة العلمية ، واختلاف الوسيلة

(1) كتب هذا البحث قبل أن يطأ الانسان أرض القمر •

والامكانات التى تاتت له على مدى هذا التاريخ الانسانى ، الذى خط ذلك الاب الاقدم أول حروفه بتلك الخطوات الاولى فى رحلة الحياة الآدمية • وتوسع الانسان برحلاته على مدى الدهور ، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الارضية ، فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل ، فلجا الى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودنى اخرى على غرار ما فعل آحاد نابهون من بنيه يعدهم الزمان على أصابع اليد الواحدة • وجاء انسان القرن العشرين ليبدأ بالفعل تحقيق ما عجز عنه اسلافه بغير الخيال • وهكذا فان حياة الانسان رحلة دائمة لا تتوقف الا على تخوم الابدية ، ويوم يعجز عن افتضاض أسرار الحياة والاكوان حوله بالرحلة أو بالخيال فلسوف تكون قدماه تقتربان به من تلك التخوم ••• ولربما تكون رحلة من نوع جديد ! !

والرحلة فى هذا المفهوم أمر طبيعى يتعلق بحياة الافراد والامم ، ولا داعى للحديث هنا عن دور الامم السابقة من الفراعنة والفنيقيين واليونان والرومان وغيرهم فى مضمار الرحلات ، وانما نحن معنيون بالتوجه الى الحديث عن دور العرب فى هذا المضمار لنتعرف على تطوره واتجاهاته لديهم فى مختلف العصور •

أولا ـ الرحلات : أهميتها وعلاقتها بالعلوم وبالجغرافية خاصة : ـ

اذا قلنا ان فنا من فنون القول العربى يعرض فى مضمونه الى ناحية أو الى أخرى من نواحى الحياة ، فاننا نقول ان نمط الرحلات يتعرض الى جميع نواحى الحياة أو يكاد ، اذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافى وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الآداب والاديان والاساطير • فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم ، وهى بمجموعها سجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور • فالرحالة وهو يطوى الارض اثناء رحلته يغطى فى نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة من الحياة ، يشاهدها أو يسمعها احيانا وينقلها فى رحلته • ولا شك ان الرحالين يختلفون فيما بينهم فى دقة ملاحظتهم وفى درجة اهتمامهم وفى نوع هذا الاهتمام ، كما يختلفون أيضا فى درجة صدقهم وأمانتهم وفى تنوع فهمهم للامور تحت الظروف المتغايرة التى يخضعون لها • ومع ذلك ، فاننا ننظر من هذه الناحية الى الرحلات كمبدأ أو ككل ، مهما كان بينها من

اختلاف وتنوع فى الاتجاه والتقدير • ومن هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان : قيمة علمية ، وأخرى أدبية •

اما القيمة العلمية ، فقد تأتت لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها ، مما يدونه الرحالة تدوين المعاين فى أغلب الاحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته • واذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل للظاهرات المختلفة المتعلقة بميادينها ، ودراسة هذه الظاهرات وتفسيرها ، فان الرحالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات ليضعها بين أيدى الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع مثلا ، كل حسب اختصاصه • وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلجأ الى دراسة ظاهرات اختصاصه وتفسيرها • فان كان علم الجغرافيا مثلا يدرس ظاهرات سطح الارض الطبيعية والبشرية ، ويقوم منهجه فى ذلك على تسجيل هذه الظاهرات وتفسيرها وتوزيعها على سطح الارض ، فان الرحالة ، وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الارض ، انما يعمل فى خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الاقل ، اذا لم يتجاوزها الى الخطوة التالية لها فى منهج هذا العلم • فهو عندما يصف الممالك والبلدان والاصقاع والاقاليم ، والمدن والمسالك ، ويتحدث عن المناخ والطبيعة ، وعن ظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية ، انما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا ومعينا كبيرا للعالم الجغرافى الذى يدرس تلك الموضوعات • ومثل ذلك يمكن ان يقال فى الرحالة بالنسبة لباقى العلوم التى يتعرض لمجال دراساتها • ومن المعروف ان بعض المؤرخين والجغرافيين العرب يعتبرون رحالين ، اذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أى طريق آخر • وهذه العلوم المختلفة مرت بعدة مراحل قبل أن تصل الى ما هى عليه اليوم من دقة وضبط وتحديد ، وقبل أن تتخذ صفة العلم القائم بذاته بفضل تقدم العقل البشرى وادواته العلمية • فقد كان علم الجغرافيا مثلا يعتمد قديما الاسلوب الوصفى الادبى ، كما كان يستقى مواده من مصادر الادب والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والدين ، فاذا أصحابه يمزجون بين هذه العلوم جميعا ، حتى ويمزجون بينها وبين الخرافات والاساطير ، فأتت كتبهم محتوية على كل طريف ممتع • وحتى اليوم ، فان العالم

الجغرافي أو الباحث الاجتماعي ينـــزل الى ميـدان عمله ليرصد بعض الظاهرات التي تهمه من وجهة النظر الخاصة بعلمه وببحثه •

ومن هذه الناحية ، فان من المتفق عليه أن الرحالين العرب قدموا ، على مر العصور ، خدمات جلى فى دراسة أحوال البلاد العربية والاسلامية من مختلف نواحيها • ولم تقتصر افادتهم فى ميدانهم هذا على البلاد الاسلامية وحدها ، وانما تعدوها فى رحلاتهم واخبارهم الى بلاد أجنبية أخرى فى آسيا وافريقيا وفى أوروبا فيما بعد ، ولما يكن وصلها الاسلام ، فأمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الاولى خصوصا اذا قورنت هذه المعلومات بما كـان يعرفه العالم عنها فى العصور الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتأخرة لدى الاوروبيين• ولقد كان للرحالة العرب فى العصور الوسطى فضل كبير قدموه للانسانية كجغرافيين ، يتجلى فى حفظهم ودراستهم للمادة الجغرافية الهائلة التى أورثها العلماء اليونان مـــن امثال استرابون وبلينيوس وبطلميوس القلوذى وغيرهم ، للعصور الوسطى • ولا يقلل كثيرا من قيمة ما كتبه الرحالون العرب فى المادة الجغرافية ، ما خضعوا فيه للنظريـات الموروثة عن الاوائل (2) ، أو ما نقلوه من خرافات الشعوب وأساطيرها دون أن يحكموا فيه العقل وملكة النقد والتحليل التى يبدو أنها كانت ضعيفة لديهم فى غالب الاحيان مما جعل مثل هذه النظريات تأخذ طريقها الى أفكارهم مع أنها لم تــرق الى مستـوى تجربتهم العملية التى أسهموا عن طريقها بتقديم مواد جغرافية جديـــدة وذات قيمـة عظيمــــــة •

وأما القيمة الادبية فى الرحلات فتتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها الى عالم الادب ، وترقى بها الى مستوى الخيال الفنى • وبرغم ما يتسم بـه أدب الرحلة من تنوع فى الاسلوب من السرد القصصى الى الحوار الى الوصف وغيره ، فان ابرز ما يميزه اسلوب الكتابة القصصى المعتمد على السرد المشوق ، بما يقدمه من متعة ذهنية كبـرى ،

(2) كالظن ، على غرار اليونان ، بأن المعمور من الارض هو ربعها فقـط ، وذلك فى النصف الشمالى منها ، وكالاعتقاد باستحالة الحياة فى البلاد الشديدة الحـرارة أو القارسة البرودة ، وبوجود سلسلة جبلية تنتظم الارض من الغرب الى الشرق ، وبأن بعض الانهار (كالنيل) تسقط منابعها فى الجنة •

مما حدا بالدكتور شوقى ضيف الى اعتبار أدب الرحلة عند العرب « خير رد على التهمة التى طالما اتهم بها الادب العربى ، تهمة قصوره فى فن القصة » (3) • وقد أفـــاد أدب الرحلة ، بغنى موضوعاته ، فى صرف اصحابه فى غالب الاحيان ، عن اللـــهو والعبث اللفظى والتكلف فى تزويق العبارة ، ايثارا للتعبير السهل المؤدى للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه ، مما يفتقده كثير من الادباء والمحترفين فى بعض عصورنا الادبيـــة • ولا يعنى هذا ان الاسلوب فى هذا الادب قد تخلص من كل الصفات والعيوب الاسلوبية الاخرى ، فهو يعتمد السجع احيانا ، وهو ينحو منحى الجفاف والصرامة العلمية احيانـا الاخرى ، فهو يعتمد السجع احيانا ، وهو ينحو منحى الجفـاف والصرامة العلمية احيانا بشىء من الطراوة والاخضرار يبقيانه غضا وعلى شىء من اللين ، « ولقد أثار هـذا الادب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمى وتارة شعبى ، وهو طورا واقعى واسطورى على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة • لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها فى أدب أى شعب معاصر للعرب » (4) •

وبهذه الميزات والخصائص المتعلقة باسلوب أدب الرحلة وبموضوعه الشمولى الغـنى بما فيه من علم وأدب واسطورة يمكننا اعتباره نمطا خاصا من انماط القول الادبى ، قد لا يرقى الى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الادبية مثلا ، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير ان تضبطه معاييرها أو أن يخضع لمقاييسها •

ثانيا ــ دواعى الرحلات والتاليف فيها عند العرب : ــ

سنجعل الفتوح الاسلامية نقطة البداية فى هذا الحديث ، مع ان عرب الجاهلية كـان لهم رحلاتهم التجارية الى بلاد العراق والشام واليمن وغيرها ، ثم ان بعض الشعراء كانت لهم رحلاتهم فى داخل الجزيرة والى خارجها • ومع ان هذه الرحلات لم يـدون منها شىء أكثر مما ورد فى مضامين الشعر وكتب اللغة فيما بعد ، الا انه لا بد انها افادت العرب

(3) الرحلات سلسلة فنون الادب العربى ــ طبعة دار المعارف ــ القاهرة : 6 •
(4) اغناطيوس كراتشكوفسكى ــ تاريخ الادب الجغرافى العربى قسم I • ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم • (طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ــ القاهرة) : 24 •

فوائد عملية جلى فى فتوحاتهم التى انطلقوا فيها الى ماجاورهم من بلاد لهم بها سابق معرفة عن طريق هذه الرحلات وغيرها من مثل رحلات عبور البدو ... وجاءت عملية الفتوح رحلة أو رحلات فى ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا فى هذه الفتوح ، وخلقت ظروفا أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث : فقد وحد العرب البلدان التى فتحوها دينيا وثقافيا الى حد بعيد ، وتطلبت مسالة ادارتها التعرف التام عليها لضبط شؤونها المالية والادارية بتنظيم الادارة والبريد والخراج خصوصا وان ذلك يرتبط بالطريقة التى تم بها الفتح ليتقرر على أساسها مقدار الجزية والخراج ، ومن ثم تحمل المؤرخون من أصحاب السير والمغازى مهمة وصف هذه المدن وسكانها واحوالهم . وبتحدد الامور وتبلورها مع الايام ، استقل البعض بوصف المدن والاقاليم والتعريف بها وبطرقها وبخراجها . وكان متولو البريد وأشباههم أصلح الناس للقيام بهذه المهمة ، فلم يكن غريبا اذن أن يؤلف « ابن خرداذبة » كتابه « المسالك والممالك » تقريرا عن جباية الدولة العباسية ، وهو يومها متولى البريد والخبر بنواحى الجبل بفارس ، وحرره فى (سامرا) بعيد عام (230 هـ) . ثم كان كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر ، بين فيه الطرق والمسافات فضلا عن قيمة جباية المملكة ، وضمنه أخبارا كثيرة تتعلق بأحوال الدولة والبلاد المتاخمة لها . وفى هذه الفترة كان المسلمون قد علقوا بعلوم اليونان وكتبهم فتأثرت أبحاث العرب الجغرافية فى عهدها الاول بما وصل اليه اليونان من قبل ، فكان أثر بطلميوس على الجغرافيين منهم كبيرا ، فجاءت كتبهم تحمل آثاره بشكل واضح . « فابن خرداذبة ، نقل بعض كتابه عنه ثم أضاف اليه الخراج والطرق على ما ذكره هو فى مقدمة كتابه » (5) ، والخوارزمى فى كتابه « صورة الارض » خلف لنا خلاصة لجغرافية بطلميوس ، اذ « حذا حذوه ، واقتفى أثره ، غير انه جاء بكتاب جديد ممدوح مستحسن ... » (6) وبالاضافة الى ذلك فقد اقترنت بالحاجة الادارية حاجة دينية اقتضت وصف طرق الحج لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج بين البلاد والاماكن

---

(5) نقولا زيادة ـ الرحالة العرب (دار الهلال 1956) : 38 .

(6) جويدى ـ محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب (مجموعة محاضرات ألقاها فى الجامعة المصرية بين عامى 1908 ـ 1909) : 13 .

المقدسة فى الجزيره • ثم ان كثيرا من الحجاج والتجار قد وصفوا فى كتب خاصة الطرق والبلاد التى رأوها • ولا شك ان طلب العلم فى مراكز البلاد كان يقتضى رحلة طلابه من اطراف ومدن عديدة فى انحاء البلاد الى مراكز العلم فيها ، يساعدهم وحدة البلاد السياسية والدينية والثقافية • فكان ذلك أيضا احد اسباب الرحلة الداخلية ووصف المشاهدات وتاليف الكتب فيها ، كما كان عند البعض روح المجازفة والمغامرة على غرار رحلة الفتية المغررين (7) فى بحة الظلمات ، حتى انه ليظن ان من العرب من وصل الى أمريكا قبل كولومبوس •

ومن الطبيعى ان العرب لم يبدأوا فى تمثل الخبرات الخاصة بهم الا بعد رسوخ قدمهم وازدياد معارفهم العلمية • حتى انه « يمكن القول بان مصنفات المسلمين لم تنشأ فرعا متميزا بنفسه عن فروع التاليف الاخرى الا بعد عام 800 لميلاد » • (8) فعظمة الدولة فى ذلك الحين هيأت لهم آفاق الاتصال القوى مع غيرهم عن طريق السفارات والبعثات مما فتح لهم ابواب معرفة علمية جديدة عرفوا من خلالها اخبار مجاوريهم معرفة دقيقة • ومن اقدم من يذكرونهم فى هذا الباب سلام الترجمان الذى يقال ان الخليفة الواثق (842 ـ 847) ارسله فى بعثة الى بلاد الصين ليشاهد السد الذى بناه الاسكندر فى ديار ياجوج وماجوج ، وعادت البعثة لتقص على الناس اخبار الصين

---

(7) هى رحلة قام بها ثمانية رجال من ابناء اشبونه (لشبونه) فى القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى) ، غرروا بأنفسهم ، فطافوا فى بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) لمدة بضعة أشهر تقاذفتهم خلالها الاقدار والامواج من جزيرة الى أخرى • وبعد أهوال ومخاطرات عادوا الى بلدهم ، فاطلق عليهم الناس اسم (الفتية المغررين) ، يقصدون انه غرر بهم فى مجازفات ومغامرات غير مجدية • والمظنون (كما يقول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه ـ الرحلات ـ صفحة 44) انهم وصلوا الى بعض الجزائر فى المحيط الاطلسى ، ولعلهم وصلوا الى جزائر أزورا وكنارى •

لمعرفة المزيد عن هذه المرحلة انظر كتاب « المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس » ، المأخوذ من كتاب ، « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للشريف الادريسى • طبعة ليدن 1863 : 184 ـ 185 •

(8) دائرة المعارف الاسلامية مجلد 7 ـ مادة جغرافيا : 10 •

وعجائبها • (9) وكذلك فان هناك بعثات دينية كان لبعض افرادها دور فى ميـــدان الرحلات والكتابة فيها ، كالبعثة التى ارسلها الخليفة المقتدر عـــام 921 م الى بـــلاد البلغار حيث كان ملكها قد طلب بعثة دينية بسبب دخول كثير من البلغار فى الاسلام • ورأس هذه البعثة (ابن فضلان) ووضع كتابا وصف فيه تلك البـــلاد وذكر عـادات أهلها واحوالهم • ومع الزمن وبقوة الدولة الاسلامية بدأت العلوم والمعارف فى النضج عند العرب ، ومن بين هذه المعارف الجغرافيا الوصفية التى قامت على رحلة بعض المفكرين والادباء لسبب أو لآخر ، فاطلعوا خلال رحلاتهم على أحوال البلاد وشاهدوا حياة أهلها وعاداتهم ، وكتبوا فى مظاهر الحياة الطبيعية وغير الطبيعية • ومما تجدر الاشارة اليه ان غالبية هؤلاء الرحالة المؤلفين كانوا كتابا قبل كل شيء ، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصى يستندون به الى الواقع احيانا ، ويجنحون الى الخيال احيانا أخـــرى ، ويحفلون فيه بالقصص الممتعة التى تسمو به الى مرتبة الادب الفنى الصرف فى أغلـــب الاحيـــان •

ونحن اذا اردنا ان نعرض ملامح من هذه المؤلفات على مر العصور ، فاننا نجـــد ان القرن العاشر الميلادى يمثل من هذه الناحية فترة النضج التام ، فقد زخر بمصنفات مهمة بلغت أوج التطـــور الخـــلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها ، اذ « تم فى هذا القـــرن تشكيل ما يسمى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية ••• وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حدا كبيرا » (10) ، نذكر منهم ابن حوقل والمقدسى والاصطخرى وابا زيـــد البلخى والمسعودى الذى يعد أعظم الجغرافيين اصالة فى هذا القرن • وقد يفسر هـــذا النضج ، على الرغم من الضعف السياسى للدولة الاسلامية بنضج الحضارة الاسلاميـــة وتأصلها ، وبعدم فعالية هذا الضعف القائم على الانقسام الداخلى ، لانه لم يؤثر على وحدة البلاد الدينية والثقافية بخاصة • ويطلع علينا فى القرن الحادى عشر اسم ابى الريحان البيرونى ، الذى كان قد التحق بالسلطان محمود الغزنوى فى غزنة سنـــة 1017 م ،

---

(9) انظر خبر هذه الرحلة فى كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (طبعة مكتبة المثنى ببغداد) : 162 ــ 170 •

(10) اغناطيوس كراتشكوفسكي ــ تاريخ الادب الجغرافى العربى قسم 1 : 177 •

حيث قام بعدة رحلات علمية فى بلاد الهند التى قضى فيها نحو أربعين سنة ، ووضع كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » ، ومع ذلك ، فهو كتاب يستحيل « اعتباره كتابا جغرافيا بالمعنى الضيق للفظ ··· فالمكانة الاولى عنده تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة . وهو ينتمى الى طراز آخر من المؤلفات » (11) ، اذ هو اقرب الى مصنفات البحوث العقلية منه الى المصنفات الجغرافية .

وبعد القرن الحادى عشر ، وان ظلت بعض المصادر الادبية ، وخاصة الكتب التاريخية، تزودنا بالمعارف الجغرافية المعتمدة على المعاينة ، فقد أخذت الكتب الجغرافية الصرف يتميز طابعها أكثر فأكثر بالتنسيق الادبى للمواد الواردة فى المصنفات المتقدمة · وبدأ بعد ذلك نمط آخر ينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات · « ولم تدون الرحلات على هيئة كتب (المسالك) المعروفة لنا ، بل دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت فى الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر ··· وأول من وضع الاساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه ابو بكر محمد ابن العربى (468 ـ 543 هجرية ، 1076 ـ 1148 م) · وأصله من اشبيلية ولكن لم يلبث ان غادرها الى المشرق بعد زوال دولة آل عباد ··· وكان هدفه الدراسة (فطاف فى الشام والعراق والحجاز ومصر وعاد الى الاندلس) ··· اما وصف رحلته فمفقود ، وكان يحمل عنوان ـ الرحلة ـ أو ـ ترتيب الرحلة ـ ، وقد نقل عنه ابن خلدون والمقرى » (12) · وجاء ابن جبير بعد ابن العربى ليؤصل هذا الاتجاه فى كتابة الرحلة بصياغة أدبية عالية ، حتى انه ليمكن القول بان كتب الرحلات تبدأ من هذا العهد برحلة ابن جبير التى سنعرض لها فى هذا البحث بالدراسة والتحليل · وتلا ابن جبير فيما بعد بحوالى قرنين ابن بطوطة ليقدم فى ظروف خاصة نمطا جديدا من الرحلات يختلف عن سابقه ابن جبير ، فى انه نحا منحى الغرائب والخرافات فى رحلته .

---

(11) ن· م : 297 ـ 298 ·

(12) المرجع السابق : 255 ـ 256 ·

وكما سنرى ، فقد كان من أهم بواعث هذه الرحلات الحج وطلب العلم · وابتداء من القرن الثالث عشر يبدأ طابع الرحلة فى (طلب العلم) يطغى على نمط الرحلـــة ، كما نشاهد فى رحلة ابى محمد العبدرى ، وابى عمر عبد الله بن رشيـــد النشريسى · وفى هذا النمط من الرحلة يحتل الصدارة لدى صاحبها التعريف باساتذته وبالعلماء الذين التقى بهم ووصف المكتبات ودور العلم التى زارها ، ونحا بعضهم بهذا النمط من الرحلة منحى آخر ، استند فيه الرحالة على أساس ترجمة حياته الشخصية (أوتو ـ بيوجرافيا) والتعريف بنفسه ، وقد يتحول فيه احيانا الى معجم للسير يترجم فيه لشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم والى معرض لمختارات أدبية تعطى فكرة جيدة عن الذوق الادبى لعصره · واكثر من يمثل هذا الاتجاه عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه « التعريف بابن خلـدون ورحلته غربا وشرقا ·

وهكذا شهدت القرون التالية لابن جبير كثيرين من الرحالة الذين اغنوا الادب العربى وبعض العلوم العربية الاخرى بما كتبوه فى رحلاتهم من أمثال عبد اللطيف البغدادى وياقوت الحموى وابن سعيد والعبدرى فى القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة وابن خلدون ومحمد بن رشيد الفهرى الاندلسى ومحمد التجانى فى القرن الرابع عشر ، ثم الظاهرى والملك قايتباى فى القرن الخامس عشر · وحتى هذا القرن ظل العرب متفوقين فى ميدان الرحلات الى ان قامت حركات الاستكشاف الاوروبية ، وكان العرب قد منوا بفترة من التأخر امتدت ثلاثة قرون أو يزيد ، عم خلالها الضعف والجهل فى جميع ميادين الحياة ، وانصرف الكثيرون عن الحياة الى الزهد ، ولم يصلنا خلال هذه القرون شىء ذو بال مـن الرحلات ، فقد اقتصرت الى حد كبير على زيارة استانبول عاصمة الخلافة العثمانية ، أو على الحج وزيارة الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية · ومن أبرز هذه الرحلات رحلـــة عبد الله المراكشى العياشى ، ورحلة عبد الغنى النابلسى ورحلة على الجبيلى · وظـــل هذا الجمود العام يطبق على أدب الرحلة فيما يطبق عليه من حياة الامـــة العربية حتى كانت النهضة الحديثة ، ففتحت على اساسها أبواب أوروبا على البلاد العربية ، وراح الكثيرون من ابنائها يرحلون الى تلك البلاد طلبا للعلم أو العمل أو السياحة أو غيرها ، فبدأ أدب الرحلة ينتعش ، وبدأت زهوره فى التفتح من جديد ، وكان فيض عميم من هذا الادب فى

القرنين الاخيرين • ومن ابرز اصحابه فى القرن الماضى الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، وشهاب الدين الالوسى، وعبد الله فكرى، وأحمد فارس الشدياق، وسليمان البستانى •

أما فى القرن العشرين ، فقد زاد الاتصال وتعمقت آثاره ، ونضجت العلوم والتفكير أكثر مما كانا عليه ، وزاد الوعى واليقظة ، وكثر الرحالون من امثال محمد الخضر حسين ، والورتنانى والبتانونى ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وحسين فوزى ، وأمـــين الريحانى وكثيرون غيرهم •

رحلـــة ابن جبـــير :

هى رحلة قام بها أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الاندلسى ليحج بيـت الله الحرام ، فخرج من غرناطـة فى الثامن من شـوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة ــ ثلاث وثمانين ومائة بعد الالف ميلادية ــ ، وقد استغرقت رحلته مذ خرج من غرناطة الى حين عودته اليها سنتين وثلاثة أشهر ونصفا ، مـــر فيها عـلى مصر والديار الحجازية حيث بقى فيها بضعة أشهر ، وعرج بعد أداء الفريضة ، فى طريق عودته على بلاد العراق والشام ، ومنها سافر بحرا عن طريق صقلية فوصل بلاده فى الخامس عشر من محرم سنة خمسمائة وواحد وثمانين للهجرة ، ولا يهمنا ان نتابع ابن جبير فى طريق رحلته ذهابا وايابا ، فذلك مدون فى أخبار الرحلة وفيما كتب حولها ، وانما الذى يهمنا فى الحقيقة ان نسجل بعض الملاحظات والانطباعات عـن هذه الرحلة فى سياق مكتبـة الرحلات العربية • فزمن الرحلة كما يبدو من تاريخها وكما اشار صاحبها فى مصـــر والشام كان فى ايام احتلال الصليبيين لبلاد الشام ، أيام كان السلطان صلاح الدين فى مصر يعد ويعمل على صدهم وطردهم من هذه البلاد • وصاحب الرحلة كان رجـلا متفقها فى أواخر العقد الرابع من عمره ، فهو مولود فى سنة 540 هـ ، وكان قريبا من بلاط الحكم فى غرناطة ، اذ الحقه حاكمها أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن بكتاب ديوانه بعد ان لمع اسمه هناك• وهو يدون أخبار رحلته هذه على صورة مذكرات يومية ــ يستعمل فيها دائما التاريخين القمرى (مع السنة الهجرية) والشمسى (دون ذكـر السنة) ــ أراد ككاتب ان يحفظ فيها بعض صور هذه الرحلة التى قامت عليها شهرته الادبية بين

الاجيال التالية . وفى الغالب ، فان ابن خبير لم يكن ينوى نشر هذه الرحلة ولم يكن يتوقع لها هذا الذيوع ، والا كان وضعها فى كتاب متسلسل مطرد . ولربما كان تسجيله هذه المذكرات لمجرد اطلاع سيده بعد العودة على مشاهداته لبلاد المسلمين والديار المقدسة وانطباعاته عن أهلها خلال فترة غيابه عنه . ويؤيد هذا ما يقوله ابن الخطيب عن أبى الحسن الشارى من ان بعض تلاميذ ابن جبير هو الذى نسق هذه المذكرات وفقا لمراحل الرحلة (13) . فابن جبير ، كما يبدو ، لم يكن يخطر فى باله ان يكتب ادب رحلة بقدر ما كان ينوى ان يضع شبه تقرير يرفعه الى سيده ابى عثمان . ولكن طول الزمن الذى استغرقته الرحلة جعل صاحبها يستمرىء التدوين ويتوسع فيه ، ثم كان لغلبة الصبغة الادبية الواضحة على ابن جبير ، والتنسيق الذى أصاب هذه المذكرات أو هذا التقرير ان ارتفع به ، وعن جدارة ، الى مصاف ادب الرحلة القيم . ويزيد فى كف ترجيح هذا الرأى ان صاحب الرحلة قام بعدها برحلتين أخريين حج فيهما وزار الديار المقدسة ولم يكتب عن هاتين الرحلتين شيئا . وكان بامكانه ، لو توفر فيه روح الرحالة الاصيل ان يقارن بين أحوال البلاد وشعور المسلمين خلال السنوات التى فصلت بين زياراته الثلاث من سنة 578 وحتى سنة 614 هـ ، خاصة وكان صلاح الدين قد انتصر على الصليبيين واسترجع بيت المقدس ، وزارها ابن جبير وعلم الاسلام يرفرف فوقها ، ولكنه لم يفعل . ثم ان الشهرة التى نالها ابن جبير من وراء هذه الرحلة ، دون ان يعرف له اثر أدبى سواها ، قد تقوى هذا الزعم وتفسح له مكانا بين ما قيل فى هذه الرحلة . وعلى أية حال ، فليس المقصود انتقاص شىء من قيمة الرحلة سواء صح هذا الزعم أم لم يصح ، فلسوف تبقى فى ذروتها السامقة نموذجا لا ينازع على افضل ما كتب فى ادب الرحلة الخالص فى العصور الوسطى . ولعل فيما زعمته سالفا ، مع ما يتسم به ابن جبير من سمات شخصية ، اثرا فى تخليص رحلته من كثير مما صبغ رحلات سابقيه من تداخل واسع بين شتى الموضوعات ، ولذلك اتسمت بطابع أدبى أنقى ، فكانت أكثر آثار العصور الوسطى قيمة فى هذا المجال ، مجال أدب الرحلة ، لما امتازت به من اتقان وجودة ، ونفحات أدبية .

(13) د. حسين نصار . (محقق الرحلة) ـ طبعة مكتبة مصر 1955 ـ المقدمة : د ـ هـ .

ومن الملاحظ ان ابن جبير ، وان كان من رجـــال الديوان فى غرناطة ، لم يشـــر أدنى اشارة الى أنه عومل اثناء رحلته ، سواء فى معاملات السفر أم فى النزول والقيام ، معاملة خاصة أو رسمية ، فهو مـع صحبه ، كأى حـاج آخر ، يفتش كما يفتشون فى الاسكندرية ، بل انه يقدم عليه فيها (أحمد بن حسان) صاحبه فى الرحلة ليسأل عن أحوال المغرب ، فهل كان (أحمد) هذا مقدما فى الحـاج المغربى أكثر من ابن جبـير ؟؟ يبدو ان ابن جبير كان وقتها شخصا عاديا لم تقم له أية شهرة فى العالم الاسلامى ، ولم لا ، فرحلته لم تكن قد كتبت بعد ، بل لم تكد تبـــدأ !! وهذا على عكس ما نـــرى مع ابن بطوطة الشاب ، الذى يسجل لنا آيات تكريمه لدى السلاطين والامراء ، ويذكر كتب التوصية به من أحدهم الى الآخر ٠ وهكذا كان ابن جبير فى هذه الرحلة شخصا عاديا ، وانما يحكمه ، كما يقرأ من سطور رحلته ، كونه عالما فقيها يولى المساجد وقبور الصحابة والاولياء جل عنايته واهتمامه ٠ ففى كل بلد يحل فيه يشغل نفسه كثيرا فى احصـاء مساجده ووصف المشهور منها ، وفى زيارة قبور الصحابة والصالحين واطالة الحديث حولها ، ففى القاهرة يقف طويلا عند القرافة فيها ويعدد ما فيها من قبـور ومشاهد ٠ ويزور قبر الحسين ، ويقف امامه مبهورا لكثرة الطائفين حـوله وتقديسهم له ، فيعجزه التحرج الدينى من التعرض لوصفه ٠ وفى رأيى ان هذا التحرج الذى يشف من بـين سطور الرحلة عن وقار العالم وشىء من تزمت الفقيه حد من فيض الاحاسيس لــدى الاديب ، ان لم يكن شلها الى حد كبير ، فجعله يتحدث من خـلال عقل الرجـل المتدين وحسب ، فحرمنا مما كان ممكنا أن يفيض فيه الرحالة من وصف للطريق الطويل فى البر وفى البحر : فى مناظره ومشاهده وأناسيه المختلفى السحن ، المتباينى الاهواء ٠ وفى الحالات النادرة التى تعرض فيها ابن جبير لما يمكن ان يكون مجالا لوصف المشاعر واستثارتها ، بقيت مشاعره حبيسة رزانة الفقيه ، وطيبته المتدينة ، فهو يكتفى فى وصف البحر وقد سكن بانه « يخيل لناظره انه صحن زجاج ازرق » (14) ، ويتحدث عن مهارة النواتية فى التصرف بالمراكب بين الشعاب ، فيكتفى بالقول « ويدخلونها فى مضايق ويصرفونها خلالها تصرف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون فى

(14) + (15) الرحلة (طبعة مكتبة مصر سنة 1955) : 48 ٠

ذلك بعجب يضيق الوصف عنه » (15) • وليس هذا وحسب ، وانما تبدو هذه الاغلال التى يغل بها مشاعره عن الانفلات فى وصفه الطوافين حول قبر الحسين فى القاهرة اذ يقول « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك واحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين متوسلين الى الله سبحانه وتعالى ، ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الاكباد ، ويصدع الجماد ، والامر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم • وانما وقع الالماع بنبذة من وصفه مستدلا على ما وراء ذلك ، اذ لا ينبغى لعاقل ان يتصدى لوصفه ، لانه يقف موقف التقصير والعجز • وبالجملة فما اظن فى الوجود كله مصنعا أحفل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه (16).

وهذه الاحكام التعميمية تكاد تقترب فى عددها لدى رحالتنا من عدد الموضوعات التى تعرض لها ، وهى ان دلت على شىء فانما تدل على طيبة فيه ، وعلى سلامة طوية دفعتا به الى هذا الافراط والتعميم فى الاحكام ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون • فها هو ذا ، وقبل ان يصل مكة ويرى مقدساتها ، يحكم وهو لم يزل فى بداية رحلته بان لا مصنع فى الوجود احفل من قبر الحسين فى القاهرة مما يعجز عنه الوصف ، ويحكم بعدها بأن عدد الحجاج لا يحصيه الا الله ولم يوجد مثله فى أى عام آخر • ويطيل المكث فى مكة ، اذ يظل فيها ثمانية أشهر وثلثا من 13 ربيع الآخرة سنة 879 الى الخميس 22 ذى الحجة من نفس السنة ، ويستغرق وصف الاماكن المقدسة ومشاعر الحج فيها جزءا كبيرا من رحلته ، فيصف الكعبة والمسجد الحرام وصفا دقيقا مفصلا ، ولكنه وصف أصم يصلح لان يقيم به مهندس معمارى نموذجا أو خريطة لموصوفاته ، اذ هو للاسف ، خلو من شعور الواصف وأحاسيسه أو من أى تعبير لاحاسيس الناس فى هذا الموقف العظيم • وكذلك هو وصفه لكل المساجد والاماكن الدينية التى تعرض للكلام عليها فى المدينة أو فى دمشق أو فى حلب أو فى غيرها • يقول فى وصف جامع حلب « وهذا الجامع من أحسن الجوامع واجملها ، وقد أطاف

(16) المرجع السابق : 14 •
(17) الرحلة : 140 ـ 141 •

بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله أبوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها . وفى صحنه بثران معينان . والبلاط القبلى لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح وقد استفرقت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره ، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته . واتصلت الصنعة الخشبية منه الى لمحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصنعة الغريبة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف ، وقد قوس اعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والابنوس ... فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من ان يوصف » (17) . والمرة الفريدة التى تكاد مشاعره فيها تغلت من اغلالها يصف فيها جماعة السرو ، وهم قبائل من اليمن يعيشون فى جبال السراة ، لفتوا انتباهه فى صخبهم وكثرة ازدحامهم وهم يدخلون البيت العتيق ، وفى حركاتهم وتصرفاتهم أثناء الصلاة ، يقول « ... فازدحم السرو للدخول على العادة ، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف ، يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدما ولا تاخرا، الى أن يلجوا على أعظم مشقة، ثم يسرعون الخروج، فيضيق الباب الكريم بهم ، فتنحدر الفوج منهم على المعصد ، وفوج أخرى صاعدة فيلتقيان ، وقد ارتبط بعضهم الى بعض ، فربما حمل المنحدرون فى صدور الصاعدين ، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا ، الى ان يميلوا ، فيقع البعض على البعض ، فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا : فمنهم سليم ، وغير سليم ، واكثرهم انما ينحدرون وثبا على الرؤوس والاعناق » (18) . اما كيف يكون شعور النظارة وحكمهم على هذا المراى الهائل ، فابن جبير يسكت عنه ولا يفصح . وعن صلاة السرو أيضا يقول لنا « واما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الاعراب أظرف منها ، وذلك انهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد اثنتين والثلاث والاربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الارض قليلا ، وايديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا

(18) المرجع السابق : 147 .

جلوس للتشهد ، وربما تكلموا أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه وصاح به ، ووصاه بما شاء ثم عاد الى سجوده ، الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة » (19) • والغالب ان الوصف لديه يخلو من الحركة والحياة ، فلا يكاد يشى بشىء من نبض الشعور ، ونفث الحياة ، فما هو الا آلة تصوير ، تنطبع الاشياء على قلمه كما تنطبع صورها على عدستها • والحق فانه ماهر فى هذا ومجيد ، ولكنه مع ذلك يفقد كثيرا من عناصر الجمال فى الوصف الحى • ومن أحسن ما كتبه ابن جبير فى الوصف وصفه المدن والآثار والمدارس والمستشفيات • ومن ابرز عناصر الصنعة الادبية فى هذا الوصف افتتاحه الكلام على المدن المهمة خاصة بفقرة مجودة مجملة ، تتزين بالسجع والجناس ، اذ تلقى منه احتفالا كبيرا ، فيدبج فيها فقرة أو بضع فقرات فى عبارة أدبية أنيقة ، ولكنها ، على اية حال ، تظل داخل اطاره المخصوص فى الوصف • يقول مثلا فى وصف مدينة نصيبين « شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد فى نواحيه ، وتحف بها عن يمين لم يعهد فيما سلف ، يصعدون أفواجا حتى يغص الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدما ولا تأخرا ، الى ن يلجوا على أعظم مشقة ، ثم يسرعون الخروج ، فيضيق الباب الكريم وشمال بساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر وقد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفىء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانىء حيث يقول :

طابت نصيبين لى يوما فطبت لها   ياليت حظى من الدنيا نصيبين

فخارجها رياض الشمائل ، اندلسى الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتالق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد عليه ، فلا مطمح للبصر اليه لا تجد العين فيه فسحة مجال • ولا مسحة جمال » (20) •

---

(19) المرجع السابق : 114 •
(20) الرحلة : : 225 ـ 226 ، أنظر وصفه لدمشق وحماة وحلب وبغداد والاسكندرية والقاهرة •

وهكذا تراه فى مثل هذا الوصف ، كأنه طالب ناضج يكتب موضوعات فى الانشاء ، وهو فى ذلك انما يمثل الطابع العام للكتابة فى عصره • ومع هذا فان الوصف لديه يكون جزءا مهما من خصائص كتابته فى هذه الرحلة ، ينجح فيه على هذا المستوى الى حد بعيد• وفى رأيي ان النجاح الاهم الذى يسجله ابن جبير فى رحلته انما هو فى مجال الحياة الاجتماعية ، فهو ينظر دائما الى احوال الناس ومستشفياتهم ومدارسهم • وفى هذا المجال تتجلى قدرته على الملاحظة وتبرز ملكته فى النقد والحكم ، ولا غرو ، فهو على الاغلب ذو خبرات حياتية ناضجة بحكم علمه وسنه ، فلا يتحرج من اصدار الاحكام أو شبهها فى بعض الاحوال • ففى كلامه على أهل (عيذاب) وتحكمهم فى الحجاج وشظف الحياة التى يحيونها يقول « ••• ولاهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت • وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل اهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك • ويقولون : (علينا بالالواح ، وعلى الحجاج بالارواح) • وهذا مثل متعارف بينهم • فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها ، هذه البلدة ، والاولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها ، وان يكون طريقه على الشام الى العراق ، ويصل مع أمير الحاج البغدادى ••• وان طال طريقه بهذا التحليق فيهون عليه لما يلقى بعيذاب ونحوها » (21) ، فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل الى البيت العتيق ، والحياة فيها على قدر كبير من الشظف والمشقة ، ويصفها بقوله « ••• حسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش اشهى الى النفس منه ، فاقمنا بين هواء يذيب الاجسام ، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله : (ماء زعاق وجو كله لهب) » (22) • وبالاضافة الى هذه الحياة فيها ، فاهلها ألفوا بها عيش البهائم ، وهم أقرب الى الوحش منهم الى الانس ، وهم « أضل من الانعام سبيلا ، وأقل عقولا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها اظهارا للاسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى

(21) المرجع السابق : 44 • الجلاب : المراكب •
(22) المرجع السابق : 46 •

ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة ، الا طرفا يسترون بها عوارتهم ، واكثرهم لا يسترون · وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم » (23) · وكما كان في هذا الموقف مدفوعا بعقله وعلمه ، فلعن أهل عيذاب ، وجعلهم أضل سبيلا من الانعام ، ودعا الى اعلان مقاطعتهم بتغيير طريق الحاج عنهم ما أمكن ، فاننا نراه يقف بعاطفته موقفا آخر مختلفا من أهل جدة فيحنو ويشفق عليهم ، خاصة وان اكثرهم علويون ، « وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقا ، يستخدمون انفسهم في كل مهنة من المهن : من اكراء جمال ان كانت لهم ، او مبيع لبن او ماء ، الى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يحتطبونه · وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بانفسهن ، فسبحان المقدر لما يشاء · ولاشك انهم أهل بيت ارتضى لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا · جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت ، (الذين) أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (24) . وقد لا يكون هذا الموقف غريبا وخصوصا من مغربي يزور المشرق حاجا ، ولكن الغريب هو ما يصف به أهل بغداد من رياء ونفاق ، وطمع وضلال ، فهل كان حكمه فيهم صادقا يا ترى ، أو أنه صادر عن حالات فردية أخطأ في تعميمه عنها ، خصوصا وهو لم يقم فيها الا فترة وجيزة لم تتجاوز اثنى عشر يوما من يوم الاربعاء الثالث من صفر سنة 580 هـ الى يوم الاثنين الخامس عشر لنفس الشهر ، يقول فيهم بعد أن يصفها كما رآها في زمانه « وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الانفة والكبرياء ، ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء ، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده ، ان الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون ان لله بلادا أو عبادا سواهم ، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يغيرون في ذات الله منكرا ، يظنون أن أسنى الفخار في سحب الازار ، ولا يعلمون ان فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا ، وما منهم من يحسن له فرضا · فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ، لا تكاد تظفر

(23) المرجع السابق : 45 ·
(24) المرجع السابق : 50 ·

من خواص اهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل فى سورة التطفيف ، لا يبالون فى ذلك بعيب كأنهم من بقايا مدين قوم النبى شعيب • فالغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الانفاق ، لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق ، او يهش اليه هشاشة انتفاع واسترفاق ، كانهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق • فسوء معاشرة ابنائها يغلب على طبع هوائها ومائها ، ويعلل حسن المسموع من احاديثها وانبائها • استغفر الله الا فقهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين » (25) • وقد ساء ابن جبير بعض ما شاهده من شؤون الحكام والمسؤولين فى البلاد الاسلامية • فأعلن تذمره من بعض تصرفاتهم كتفتيش رجال الجمارك للحجاج ومحاسبة (مردة) أعوان الزكاة لهم على ما معهم من مال أو متاع دون نظر الى أحقية النصاب ، ومنهم من تجب الزكاة لهم لا عليهم • وقد نظر الى المسالة من وجهة نظر تشف عن شعور انسانى بالاضافة الى النظر الدينى حيث يقول « ••• وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها ان يطلع عليها ، اما استحقارا أو استنفاسا ، دون بخل بواجب يلزمها » (26) • ومما زاد فى سخطه ما شهده من ظلم الحكام المسلمين لرعاياهم وللحجاج المسلمين وفى الحجاز بخاصة (27) • وصور بعض جوانب من حياة المسلمين تحت حكم الافرنج من الصليبيين ، وضاعف من سخطه على الحكام المسلمين ما رآه من حسن الحال بين الصليبيين والمسلمين من أهالى البلاد تحت ايديهم ، فقال فى ذلك « وقد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لانهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : ان يشتكى الصنف

(25) المرجع السابق : 204 ـ 205 •
(26) المرجع السابق : 35 •
(27) كان أمير مكة مكثر بن عيسى بن فليته زعيم الشيبيين • حكم على فترتين من (571 ـ 572 ومن 584 ـ 593) يفرض مكوسا كثيرة على الحجاج لقاء السماح لهم بالحج ، ولما رفع ذلك عنهم بضمان السلطان صلاح الدين بتعويض الامير عن ذلك بمال وطعام كان الامير يرهن حسابه للحجاج فى مقابل وصول هذا العوض ، وكأنه وارث حرم الله بيده • ثم ان هذا الامير كان يرتشى فى سبيل تعيين حجاب البيت الحرام • ـ انظر الرحلة صفحة 52 وصفحة 142 •

الاسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعد له ، فالى الله المشتكى من هذه الحال » (28) ·

وللرحلة قيمة فريدة من هذه الناحية فيما يتعلق بتصويرها حياة المسلمين فى صقليه حيث عرج عليها فى طريق عودته وبقى هناك فترة يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية للمسلمين فيها · ولقد برز ابن جبير الفقيه فى هذه الرحلة فى حكمه على أحوال الحجاز أيام حكم امير مكة الظالم (مكثر بن عيسى) حيث يقول « فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها ، بالدماء المسفوكة فى سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية ، لما هم عليه من حل عرا الاسلام ، واستحلال اموال الحجاج ودمائهم » (29) ، حتى ليبلغ به الامر حد القول « فمن يعتقد من فقهاء أهل الاندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل · فراكب هذا السبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر ، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال ،فكيف وبيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سببا الى استلاب الاموال واستحقاقها من غير حل ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم ، تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عز المسلمين ، بسيوف الموحدين انصار الدين » (30) ·

ومع ما قد يكون فى احكامه هذه من غلو وقسوة ، الا انه كان متدينا مستنيرا الى حد بعيد ، فلم يكن متعصبا للدين تعصبا أعمى ، وان ظهرت بساطته فى كثرة لجوئه الى الله فى حالاته من الرضى والغضب ، والاعجاب والاستنكار والاطمئنان والفزع · ودليلنا على ذلك بعض ما يذكره من معتقدات شعبية تنسب كذبا الى كرامات دينية يأبى هو ان يصدقها أو يأخذ بها ، فيفسرها ويبين مواضع الخلل فيها ، حتى ليبلغ به الامر ان يقيس مع آخرين ارتفاع ماء زمزم ليدحض ما يشيع بين الناس على سوالف الازمنة من زيادة ماء زمزم سبعة اذرع لبركته · وكذلك لومه على من شهدوا زورا برؤية الهلال طمعا فى

---

(28) الرحلة : 292 ·

(29) + (30) المرجع السابق : 52 ○ غرر بمعنى هلاك ·

ان يكون العيد والوقوف فى عرفه يوم جمعة ، كأن الحج لا يرتبط الا بهذا اليوم بعينه » . ومثل هذا أمور كثيرة يعارض فيها المعتقد الشعبى السائد . ولكنه ، مع ذلك ، لا يسلم من بعض الهفوات التى لم يخطر بباله تفسيرها كأن يقول فى الحجـر الاسود « وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة ينعم بها الفم ، حتى يود اللاثم ان لا يقلع فمــه عنه ، وذلك خاصة من خواص العناية الالهية » (31) ، متناسبا قول عمر فيه (والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبله لما قبلته) ، ومتجاهلا او جاهلا بالفعل الحال النفسية التى يقبـل بها الحاج ذلك الحجر . وكذلك فان ابن جبير لم يسلم من تأثير الخرافات الشعبية من مثـل تصديقه بقاء أثر دم هابيل فى جبل قاسيون بدمشق ، « وقد ابقى الله منه فى الجبـل آثارا حمرا فى الحجارة ، تحك فتستحيل وهى كالطريق فى الجبل ، وتنقطع عند المغارة (مغارة الدم) ، وليس يوجد فى النصف الاعلى من المغارة آثار تشبهها » (32) . ومثل هذا ما قد يمثل امانيه الحقيقية فى انتصار الدعوة المؤمنية الموحدية ، هذه الامانى التي أعمته عن الخرافة التى تقول « ان بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء ، على احدهما تمثال ناظر الى جهة المغرب ، وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق . فكانوا يرون ان احدهما اذا سقط ، انذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا اليها على ديار مصر وسواها . وكان من الاتفاق العجيب ان وقع التمثال الناظر الى المشرق ، فتلا وقوعه استيلاء الغز (جنس من الترك ، ويريد صـلاح الدين وجيشه) عـلى الدولة العبيدية (الفاطمية) ، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم ان شاء الله . ولم يبق الا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ... ونمى الينا ان بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قـد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عبادة . والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، انـه على ما يشاء قـدير » (33) . واذا

(31) المرجع السابق : 65 .
(32) المرجع السابق : 263 .
(33) الرحلة : 53 – 54 .

عرفنا ان ابن جبير قد أشاد كثيرا بحكم صلاح الدين الايوبى ودعا له ، وعذره عن ظلم عماله بعدم معرفته بذلك وبانشغاله فى حرب الصليبيين ، ومجده كثيرا لعنايته بالحجاج بعامة وبالمغاربة بخاصة ، وهم وجدوا عطفا كبيرا منه طوال رحلته ، فاننا نعجب لهذا الموقف المتناقض الذى وقع فيه ، فهل يكون أضاف الخبر أو خطر بباله ان يضيفه بعد عودته الى سيده فى غرناطة ، أو أن الخبر زيد من بعض تلاميذه ؟ ولكن قد لا يكون بعيدا ان تعظيمه لصلاح الدين لم ينف حبه لسيادة أسياده الموحدين وطمعه فى حكمهم العالم الاسلامى ٠

بقى أن أشير أخيرا الى اسلوب ابن جبير فى رحلته ٠ يرى البعض ان « وصفه المفصل للابنية وان كان مملا للقارىء العادى ، فان اسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير ٠٠٠ اما عرضه العام فيستهدف الصنعة والاناقة ، وهو كثيرا ما يلجأ الى السجع الذى يعالجه بالكثير من المهارة دون ان يبالغ فيه او يضطر القارىء الى تكلف الجهد فى تفهمه ٠ كما يشحن كتابته بالاقتباسات الادبية والاشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوما للقارىء » (34) ٠

ويأخذ عليه الدكتور حسين نصار ، محقق الرحلة عدة مآخذ منها : عبارته العامية التى لا ترضى عنها اللغة الفصيحة ، ويرد ذلك الى كتابتها على صورة مذكرات ثم تنسيق هذه المذكرات فيما بعد على يده أو يد أحد تلاميذه ٠ ومنها كذلك اختلال الضمائر ، فهى لا تسير وفقا للقواعد العربية الفصيحة ، وانما على القواعد العامية وخاصة فى المثنى الذى يعامل كالمؤنث فى أغلب المواضع ٠ وكذلك عدم ترابط العبارات فى كثير من الاحيان ، حتى اضطر هو ، مثله مثل محققها السابق ، الى زيادة كثير من ادوات العطف لترتبط الجمل وتتضح معانيها (35) ٠

ومن الملاحظ ايضا ان ابن جبير يضمن كلامه كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ٠ وقارىء الرحلة يقع فيها أحيانا على كثير من الاستعارات والتعبيرات الادبية التى يصطنعها اصطناعا ، مثل قوله فى وصف أحد خطباء الحرم الشريف فى مكة « ٠٠٠ وفى

(34) كراتشكوفسكى : تاريخ الادب الجغرافى العربى قسم I : 301 ٠
(35) مقدمة الرحلة : هـ ٠

اثناء ذلك (حديثه) ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الالباب » (36) ، وفى عودة احدى خواتين الحاج العراقى الى مكة وفى أسباب ذلك « ... واجيلت فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون ، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون (37) . ويقول فى سفرهم من عكا وقد سكن البحر « فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الاربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين (38) .

ومهما يكن ، فان هذه الرحلة تحوى بعض المعلومات التى لا يستغنى عنها مؤرخ أو جغرافى أو أديب يريد ان يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الاسلامى ، وقد رفع بها صاحبها هذا الضرب من الصياغة الادبية الى درجة عالية مما حدا بالكثيرين الى عدها ذروة من ذرى ما بلغه نمط الرحلة فى الادب العربى . وقد أفاد منه فائدة كبرى الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المتأخرون عليه ممن اعجبوا بعبارته ، واكثر الشريشى تلميذه من اقتباسها فى شرح مقامات الحريرى ، واستعار منها المقريزى والمقرى والفاسى وابن الخطيب .

(36) + (37) + (38) الرحلة : 165 ، 167 ، 303 .

ابن باديس وعوامل نجاحه في أداء رسالته

احمد بن ذياب
أستاذ فى ثانوية فتح بالبليدة

ان صحة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق ، واستقامة العمل وهذا هو الاصلاح كله ـ مما يشترك فى الانتفاع به جميع المسلمين بل جميع بني الانسان ، وانما نذكر المسلم الجزائرى لانه هو الذى قدر ان يكون منا ، ونكون منه ـ كما يكون الجزء من كله ، والكل من جزئه ، فحاجته اشد ، وحقه اوجب ٠
(من افتتاحيات شهاب غرة المحرم 1355 ـ أفريل 1936)

تلك ـ أيها الاخوان الابرار ، والابناء الاطهار بعض الكلمات التي يمكن أن تكون مفتاحا لفهم شخصية المرحوم الجليل القدر ، العظيم الاثر فى ابناء هذا الوطن الغالى والاقطار المجاورة وهى كلمة مضى عليها منذ قيلت أربعون سنة كاملة ،

(*) محاضرة ألقيت فى 16 ربيع الثانى 1396 الموافق 16 أفريل 1976 بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ٠

ولكنها ما تزال معنا حين نعود الى انفسنا ، ونريد تحديد هدفنا ، اذ نجدنا مؤمنين بأن « صحة العقيدة » أساس كل بناء عظيم « مؤمنين » فى الكيان الشخصى ، أو النظـــام الاجتماعى ، وان استنارة الفكر هى المنطلق الثابت للرقى الحضارى ، وان طهارة النفس هى الضمان للتكافل بين الاقوام ، والتعاون بين الطوائف ، وأن كمال الخلق هو الذى يتوج تضافر الجهود ، وتكامل الطاقات ، وينجح المساعى ، ثم ان صحة العقيدة واستنارة الفكر ، وطهارة النفس ، وكمال الخلق جميعها تعمل متساندة مترافقة على تنظيم الاعمال وتوزيع المسؤوليات واختيار الألزم فالألزم ، والاحسن فالاحسن ، والاسمى فالاسمى وهو ما نسميه ـ أو ما سماه المرحوم ابن باديس « باستقامة الاعمال » ٠

فهل تكون هذه الكلمات القليلة مفتاحا لفهم شخصية المرحوم ابن باديس ؟ وهـل تصلح أن تكون منطلقا لدراسة أطوار حياته ؟ ومتى كانت الكلمات المحدودة ، أو الفقر المنتقاة من مقال أو المقتبسة من خطاب عنوانا صادقا لحياة حافلة بجلائل الاعمال ، عامرة بعظيم المساعى فياضة بالعطاء فى كل ميدان من ميادين العلم النافع ، والخلق الشافع ، والتوعية الجادة ، والغاية القاصدة ، وارادة الخير للخير ، وتحرى لجلال الحق ، وخدمـــة الوطن لقداسة الوطن والاعتزاز بالاسلام لانه الجامع بدستوره لكل تلك المبادىء ، والهادى اليها ، والمساعد على تحقيقها وازدهارها ؟ وكيف تستطيع ان تستوعب كل ذلـــك ؟ يقول بعض الكتاب ان شخصية الانسان تتكون من جوانب ثلاث : رأى الانسان فى نفسه ، وما يحسه فى وجدانه من طاقات ، ويتصف به من خلال ويأتيه من أعمال ، ومن رأى الناس فيه وما يشهدون به له أو عليه ، وما يكبرون فيه من مزايا ومحامـــد ، أو مواهب ومآثر ، ثم الواقع الذى قد يكون من يجامز الاثنين مع تعديل فى هذا ، أو ذاك ، أو تكميل وتوفيق بين الرايين ، أو الميزانين ٠

وابن باديس ـ اذا طبقت عليه هذه النظرية يخرج مهضوم الحق لان تواضعه ، وقلة التحدث عن نفسه ، وسعيه الدائب الى الكمال يجعله لا يعطينا الكثير من خصائص حياته وسر تصرفاته وجلال موافقه الا فى نطاق محدود ٠

أما الناس فقد ينصفه قوم لكنهم لا يستطيعون انصافه لان مكاناتهم لم تكـــن يوما لتدانى مكانته أو تقارب آثاره ومآثره ، والانسان عادة يغلب عليه طبعه الموهوب ، وتربيته

فى بيئته ، وفهمه لاحداث الحياة ، ومعاييره الخاصة فى النقد والتحليل ، وفى التفسير والتدليل ، فتأتى دراسته ، الى حد بعيد صدى لما فى نفسه وانعكاسا لما يراه ويعتقده هو ، ولكن الذى يسهل علينا تفهمنا له ، ودراستنا لعوامل نجاحه ، هو ما نعرف فى الرجل من صدق فى اللهجة ، وعناية بتصوير الواقع ، والتزام بمدلول الكلمة سواء فيما يكتب ويحبر أو فيما يلقى من دروس ، ويرتجل من خطب ٠

وابن باديس يقول عن اسرته بأن عناية أبيه به كانت ذات وزن « فهو الذى ربانى تربية صالحة ووجهنى وجهة صالحة ، ورضى لى العلم طريقة أتبعها ومتربا أرده ، وبرانى كالسهم وراشنى ، وحمانى من المكاره ، صغيرا وكبيرا ، وكفانى كلف الحياة صغيرا وكبيرا أفلاشكرنه بلسانى ولسانكم ما وسعنى الشكر ، ولاكلن ما عجزت عنه من ذلك لله الذى لا يضيع جزاء العاملين » مجلة الشهاب الخاص بختم القرآن يوليه 1938 ٠

وهذه الشهادة ـ أو هذا الاعتراف من ابن باديس يضع بين ايدينا مدى المساعدة العظيمة والتأييد المتواصل ، والتشجيع الذى ظل ينمو مع الايام ، وتتسع آفاقه على كل السنين ، كان فى مبدا الامر توجيها للسلوك ، وترغيبا فى العلم ، وانفاقا فى سبيل ما يساعد عليه ، حتى اذا احس الاب ـ والاسرة كلها من ورائه أن لابنه شأنا هان عليه بعد ذلك كل بذل مهما شق أو عظم فى سبيل ابنه ٠

والذى لا شك فيه ان الابن كان يحب اباه ، وكانت لذلك الاب آمال أوحى بها اليه ، فظل الابن شعر كأنه هبة لتلك الآمال ، أو وقف عليها ٠

والاب والابن معا يشعران أن فى احياء العلم أو فى السعى لتحصيله تكريما لماضى الاسرة الماجد ، وكسبا للصيت البعيد من جديد ٠

يضاف الى هذه الحقيقة حقيقة الاصل الماجد ، والميراث المتأصل فى النبل ، وما يشعر به كرام بنيه وأحراره من الزهو الذى يحتاجون معه الى اقامة الدليل عليه ، واثبات الحجة على انهم أهل لتحمل المسؤولية ، والمحافظة على الحسب منها وشرف النسب حتى يكونوا مثلما قال عبد الله بن معاوية حفيد جعفر الطيار ـ ض ـ عنهم فى اعتداده بنفسه ٠

لسنا وان احسابنا كرمت يوما على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل مثلما فعلوا

فالحافز الشخصي لابن باديس كان حافزا قويا لانه يشعر بالعزة ، ويحس في اعماقه نوازع النبل ، ومغارس الشرف ، ولانه في الوقت نفسه كان يجد الحماية والتاييد والتشجيع ·

وقد تعودنا من أبناء الاسر الكبيرة ـ اذا وجدوا العناية ـ أن يشقوا طريقهم في الحياة الاجتماعية بنجاح لانهم ألفوا هذه الحياة ، وسط الاسرة الكبيرة التي يوجد بين افرادها تفاوت في الحظوة ، وتنافس على التقرب من السائس لامورها أو المتحمل لمسؤولياتها ، ويكون هناك حب والفة بين أبناء هذه المرأة ضد أبناء تلك ، وميل من هذا العضو البارز فيها لتلك الفئة أو هذه ـ ان صح هذا التعبير · ـ

فما يكاد يشب الطفل حتى يكون قد ذاق معاني الحب والبغض ، وتذوق مرارة السخط ، وحلاوة الرضا ، وتفهم أسرار الكيد لذا ، والدفاع عن ذاك الى آخر ما يوجد في عوالم الاسر الكبيرة ·

ولكن الاسرة الكبيرة ـ مع ما فيها داخليا ـ تظهر شديدة التماسك في الخارج تدافع عن بنيها ، وتحفظ لهم كرامتهم وتتالب ضد من يتعرض لهم بالشر · أو يريدهم بمكروه وقد ظلت أسرة ابن باديس تحميه وتحيطه بالرعاية حتى مع فرنسا الاستعمارية ·

فأبوه هو الذي بذل وجاهته مبكرا حتى أعطيت له «الرخصة» للقيام برسالته التعليمية في الجامع الاخضر ولا شك ان وجاهة أبيه بين الاسر التجارية والفلاحية الفرنسية والاسرائلية ـ أو الرأسمالية القسنطينية عموما نفعت ابن باديس ، ودفعت عنه الكثير من البلاء على الاقل بالتغاضي والتسامح ·

كما أن وجود أخيه ـ بعد ذلك ـ في دار العمالة كان له وزنه في مساعدته على أداء مهمته ، والمضي فيها ، واذا كان ابن باديس ـ لما شب عن الطوق ـ لم يستطع أن يستغله أبوه ، ولا أخوه في صالح حياتهما الخاصة فلأن ابن باديس كان يعلم يقين العلم « ان لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وأن مرونته ، وليونة جانبه وكونه من الذين يألفون

ويؤلفون هو الذى مكنه من أن يصاول أسرته ، ويطاولها فاذا لم يستطع أن يقودها لصالح الشعب ـ كما يريد ـ وقف لها معارضا مصاولا دون أن يسمح للمصالة والمعارضة أن تنال من حقيقة الصلة المكينة بين الابوة والبنوة ، ولا بين الرباط الاخوى الوثيق الذى يصله بأخوته وعلى رأسهم الزبير الموظف السامى فى دار العمالة .

فابن باديس الذى وهب نفسه ، ووقف نشاطه على خدمة الاسلام والعربية والجزائر ، كان هو ابن باديس المستقل الشخصية ، القوى فى الحق وبالحق ، الماضى العزم فى اخلاص لربه أولا ولدينه ثانيا ، ولقومه ووطنه ثالثا ونترك أثر الاسرة لنعود اليه باشارة خفيفة اذا لزم الامر مرة أخرى .

أما العامل الثانى فهو عامل الثقافة الاسلامية العربية وهذا العامل يمكن أن يختصر فى أن الامة الجزائرية فى جملتها لم تكن قط مفرطة فى تمسكها بالاسلام ، أو مستسلمة للمستعمر ، وانما كانت تتقى شره وتداريه مضطرة عند اللزوم . لهذا نقول بأن الاسلام ـ أو الثقافة الاسلامية ـ تلقاها ابن باديس أول ما تلقاها فى أسرته ، ثم عن معلمه الاول للقرآن الكريم المرحوم محمد المداسى .

وقد تعرض باديس مرات خلال دروسه للسن التى حفظ فيها القرآن فكان يقول « انه حفظ القرآن حفظا جيدا وفى عمره أربعة عشرة عاما » .

ثم تتلمذ للاستاذ المرحوم حمدان الونيسى فكان له فيه أثر عظيم ، والذى يصفه بأنه العلامة الفقيه . وفى تونس تلقى دروسه فى الزيتونة المعمورة ، وأساتذة الزيتونة أكثرهم لا يهتم بالتلاميذ حتى يكون له أثر خاص أو يطبعهم بطابع يحمل بعض نوازعه وميوله لتحتفظوا له بذكريات . ولكن ابن باديس يذكر بالفضل أستاذين عظيمين علميا واجتماعيا هما الاستاذ النخلى ، والاستاذ الطاهر بن عاشور .

فاذا عدنا الى الاثر الذى خلفه هؤلاء الاساتذة فى ابن باديس امكن أن نلخصه فيما يلى حسبما كنا نسمع منه ، أو نقرأ له :

أما أثر الروح الدينية الاسلامية فى ابن باديس فيعود الفضل فيها للاسرة أولا ، ثم للمعلم القرآنى محمد المداسى ثم للاستاذ حمدان بن الونيسى ، ثم الاستاذ النخلى ،

أما التأثير الخاص فالاستاذ حمدان أوصاه بل أخذ عليه ما يشبه العهد أن يستكف عن الوظيف ، ولا يجعل منه غلا في عنقه ، وأما الاستاذ النخلي فقد ذكر له يوما ما يجده في نفسه من التبرم والقلق بأساليب المفسرين ، وتأويلاتهم الجدلية ، واختلافاتهم فيما لا ينبغي أن يقع فيه الخلاف فكان أن قال له النخلي :

« اجعل ذهنك مصفاة لهذه الاساليب المعقدة ، وهذه الاقوال المختلفة ، وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح » ·

ويعقب ابن باديس على اثر هذه الكلمة التي نجدها مسجلة في العدد الخاص بختم القرآن من الشهاب فيقول :

« فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها » ·

والذي يظهر ان ابن باديس في مطلع شبابه ، وفي عنفوانه لم يكن يهتم للغة العربية ، أو يعيرها كبير اهتمام الا بالقدر الذي يحتاج اليه في مصطلحات العلوم الفقهية، والعلوم اللسانية وكتب التفسير والاصول ، والحديث والتاريخ والتراجم حتى اذا كان في آخر مراحل تعلمه بالزيتونة صادف أن لقي ـ وهي يبحث عن المعرفة والازدياد من العلم ـ صادف أن لقي (الاستاذ المرحوم الطاهر بن عاشور) فتلقى عنده دروسا من ديوان الحماسة يقول عنها ابن باديس مسجلا وقعها في نفسه ، وتأثيرها في ذوقه ، وصقلها لملكتـه في العربية (وكانت من أول ما قـرأت عليه فقد حببتني في الادب ، والتفقه في كلام العرب ، وبثت في روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور ، وأحيت مني الشعور بعز العروبة والإعتزاز بها كما أعتز بالاسلام) انظروا « النص » في الصفحة 75 من الجزء الرابع من كتاب (ابن باديس حياة وآثـار) للدكتور عمار طالبي ، وأصل النص مقال نشر في جريدة البصائر ·

واذا نحن تاملنا مدلول هذه الكلمات العابرة من المرحوم ابن باديس علمنا ان الرجل بعد هذه الدروس أصبح عظيم الاهتمام بالعربية لا لانها تعينه على فهم القرآن الكريم ودراسته الآثار النبوية البليغة ، وتساعده على فقه اسرار اللغة العربية ، وانما لتكـون له ـ في الوقت نفسه ـ أداة طيعة لخدمة الاسلام ، وتقريب مبادئه ، وتسهيل ايصالـه

للنفوس وتحبيبه للقلوب ، وايناس الارواح المتعطشة بالكشف عن ينابيعه الصافية ، وموارده العذبة ، وحياضه النميرة • واذا كان ابن باديس يقول ـ فى جملة ما يقول ـ

« انى امرؤ جبلت على حب شيوخى وأساتذتى وعلى احترامهم الى حد بعيد، وخصوصا بعضهم » فمن هذا الخصوص هؤلاء الثلاثة الذين ذكرناهم فان الاحترام للاستاذ ـ فيما نعهد ـ يضاعف من سخائه بالعلم ، وجوده بالنصيحة ، ويستحثه على الاهتمام بالتلميذ، وما ينبغى له أن يعنى به ، وما يجب أن يتجنبه ، وهكذا كان التجاوب عظيما بين ابن باديس وأساتذته ولا سيما الشيخ حمدان بن الونيسى والشيخ النخلى والشيخ ابن عاشور ،

وكل من النخلى وابن عاشور كانا ـ أثناء عهد ابن باديس بالزيتونة ـ يعنيان بالروح الاصلاحية التى ينشرها فى الشرق يومئذ تلميذ محمد عبده الوفى الاستاذ رشيد رضا ، ويعلى شأنها فى سوريا هذه الحقيقة حقيقة الاصلاح الدينى فى اخريات مراحله بجامع الزيتونة ، حيث اتصل بابن عاشور اثناء تحضيره لنيل الشهادة العالمية كما اتصل بالنخلى بعد نيلها ، ويومئذ لم يعد فى حاجة الى سماع ما يقول الرجعيون عن الفكرة ، أو يحاولون به طمس معالمها • وقد عبر ابن باديس نفسه عن هذا الاتجاه حين قال :

« وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة ، واتصلت بالشيخين النخلى وابن عاشور حتى تحصلت على العالمية ووجدت لنفسى حرية الاختيار ، فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما فى حياتى العلمية أعظم الاثر » نفس المصدر المشار اليه سابقا •

والآن ماذا عن ابن باديس ؟ وأنى بلغ من سلم الثقافة ؟ وكيف نستطيع أن نقدر مستواه العام فى حقل المعرفة ؟ لقد قرأ ابن باديس سنوات اربعا بقسنطينة ثم سنوات أربعا بتونس كان فى اثنتين منهما معلما ومتعلما فى الوقت نفسه ، وهو يحمل الشهادة العالميـــة •

فهل يدل اسم الشهادة ـ وحده على مستواه ؟ ـ ومتى كانت الشهادة عنوانا على المستوى ؟ اللهم الا بمقدار الثقة بالمعهد الذى أعطاه ، وشهرة خريجيه • فاذا اردنا أن نعرف مدى ما يستطيعه تمليذ جاد عظيم الجد ، قد وفر له أبوه وأسرته كل ما ينبغى ان

يوفر له من عون مادي وافر ، وآخر معنوى الى حد بعيد · يجب أن نصغى اليه وهو يحدثنا عن مبلغ عنايته فقد سمعت منه ذات يوم بالجامع الاخضر ، وهو يريد أن يوحى الينا بما ينبغى ان نكون عليه فيقول :

« كنت أسهر الليل للدراسة والمطالعة مستعينا ببعض المنبهات لكنى حين أحس ان النوم أصبح يغالبنى ، ولم تعد المنبهات العادية تنفع فى دفعه عمدت الى (مطرح) اضعه على الارض وأضع مرفقى على حافته حتى اذا أخذتنى تهويمة من الوسن زل بى مرفقاى أو أحدهما فيلامس الآجر باردا فأستيقظ وأجدد مطالعتى أو مراجعتى حتى أفرغ منها» ·

فهذا العناء العنيف يبذله تلميذ بر بأبيه ، بر بأساتذته لابد أن يكون محصوله العلمى الادبى ، ومستوى ثقافته أعمق مما نصوره ، أو تشير اليه شهادته أو شهاداته ·

واذا كان مستواه العلمى قد أصبح مستوى محترما ، وكان العالم يومئذ يتهيأ لحرب كبرى ، ويتحفز لها ، وكانت نذرها تظهر فى الافق السياسى والاقتصادى والاجتماعى مكفهرة قائمة فلماذا لا يقوم ابن باديس برحلة « حج وحاجة » كما يقول الجزائريون ···

وكانت الرحلة التى لقى فيها جملة من العلماء الاعلام بما فيهم أستاذه الاول حمدان الونيسى ولقى فيها الشيخ محمد بخيت المطبعى الاول بالمدينة المنورة ، والثانى بمصر ·

وعاد ابن باديس وهو خبير بالكثير مما يجرى فى الشرق وما يؤمل للنهضة التى كانت نذورها الصالحة قد أخذت تنمو نموها الصالح فى الشام ومصر ، وما جاورهما ، فكان عليه أن يسهم فيها بالرسالة التى يستطيع اداءها فى الجزائر فهل أعد لها عدتها ؟ وكيف ينبغى ان تكون ؟ وما هى الوسائل التى يجب أن يستعان بها ؟

يقول ابن باديس :

« لا يستطيع ان ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه عقلا وروحا وبدنا لازمة له ليكون ذا اثر نافع فى الناس على منازلهم منه فى القرب والبعد » ·

ومن كانت هذه فكرته فلابد ان يكون لها وزن عملى فى حياته ولهذا لا نشك بل نتأكد ان ابن باديس حين فكر وقدر هداه تفكيره وتقديره الى وجوب المسارعة بنشر العلم ولا سيما منه ما كان متصلا بالثقافة الاسلامية العملية سلوكا وتهذيبا ، ومعاملة بين

الاسر الخاصة ، والمتساكنين عامة ، والى جانب الثقافة الاسلامية الواسعة بما فيها من تاريخ وحضارة يجب ان تتأصل الثقافة العربية ، ومن هنا جاءت مع الايـــام شعارات « الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا » ٠

والذى يلفت النظر أن حماس ابن باديس اللطيف الظريف الهين اللين كان شديدا فى الحق ، صلبا فى التمسك بما يرى انه الحق ، لهذا لم يطل العهد به فى الجامع الكبـير حتى اصطدم بالمفتى المولود بن الموهوب خشية من هذا على زعزعة مكانته فى الشعب ، وشهرته فى الاوساط الادارية ، وحصل له اذنا بالتعليم فى الجامع الاخضر ٠

وكانت هذه هي المحاولة الاولى لعرقلة ابن باديس ، والوقوف دون مشاريعه ٠

والاحرار اذا وجدوا أمامهم تحديات ـ مهما كانت ـ لم يهنوا ولم يحزنوا ، ولـــم يستسلموا أو ييأسوا ٠

وهنا ثارت حمية محمد مصطفى بن باديس فوقف الى جانب ابنه ، واستغل نفوذه فى الاوساط الادارية ، وحصل له اذنا بالتعلم فى الجامع الاخضر ٠

وبدأ ابن باديس عمله تجديدا فى أساليب التعليم تجديدا فى الكتب التى تختـــار ليتعلم منها التلاميذ ولكن بطريقة هادئة وادعة ليألفه الناس ، ويألف التلاميذ الخواص دروسه ، وليعرفوا قيمته ، والغاية التى يسعى بهم اليها ٠

وجاءت الحرب فكانت الاحكام العرفية ـ أو ما يشبهها ـ نفسها تستوجب الاسرار أكثر من الاعلان ، والمضى فى الخطة ـ دون دعاية ، ولا كثير تبشير بالمهمة السامية ٠

واثر نهاية الحرب ظهرت مساعى الامير خالد فى الحقل السياسى ، وكان للجزائريين دالة ـ أو منة ـ على فرنسا اذ كان شبابها وقودا للحرب ، وعاملا من عوامل الانتصار ، فهل تعطى فرنسا شيئا ما مقابل ذلك ؟ وهناك مبادىء الرئيس الاميركى « ولسون » التى كانت تدعو لحق الشعوب فى تقرير المصير فهل يسمع للجزائر صوت فى هذا الميدان فيخفف على الاقل من بعض الضغط والقوانين الاستثنائية ؟

كانت هناك مساع واسعة ، ولكن الاستعمار بذل ما استطاع حتى يفرق عن الامير خالد جميع صحبه ، ويلقى به فى المنفى بعيدا عن القطر الجزائرى أما ابن باديس فكان

فيما يظهر يأمل ويعمل ، ولكنه حتى الآن ما يزال مؤمنا بأن « العلم » هو الذى ينقص الامة الجزائرية بالدرجة الاولى وهو يرى :

« أنه لا أدل على وجود روح الحياة فى الامة وشعورها بنفسها ، ورغبتها فى التقدم من أخذها باسباب التعليم ذلك التعليم الذى ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ، ويسمو بشخصيتها فى سلم الرقى الانسانى ، ويظهر كيانها بين الامم » وأحسبنا كلنا مـــع عبد الحميد فى هذه الفكرة ، وقد تعتبر خيبة الامير خالد لم تكن لتقع بتلك السهولة لو أن الشعب متعلم واع ملتف حول زعيمه .

غير أن ابن باديس ـ وقد مضت عليه عشر سنوات فى تأديته لرسالته التعليميـــة أصبح يشعر بأن الموعد الذى يجب أن تساند فيه حركة التعليم صحافة حرة حية قـــد آن أوانه فهناك كثير من تلاميذه أصبحوا موزعين فى القطر من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه .

وهناك طائفة منهم أكملت تعلمها بتونس، أو هى على وشك الاكمال، وهم سيشاركون ـ ولا شك ـ فى التحرير والمراسلة والتوزيع والدعوة للمساندة ـ اذا لزم الامر .

وبدأ يكتب مقالاته فى بعض الجرائد الموجودة على علاتها ، ثـم بدا لـــه فسعى فى تاسيس جريدة المنتقد ثم خلفتها الشهاب فكان اختيار الاسمين وحده عنوان رسالتهما وكان ذلك سنة 1925 .

وهكذا يمكن لمثل ابن باديس أن يبتهل الى الله بمثل هذا الدعاء حين قال :

« نسأل الله أن يجعل فينا ما ينفع عباد الله ، وأن يجعل ما نعطى أكثر مما نأخذ ، وما نعمل أكثر مما نقول آمين يا رب العالمين » .

ودعاء الانسان ربه ـ فى الكثير الغالب ـ يحمل بين طياته أغلى الامانى ، وأعظـــم الآمـــال .

ويحتاج ابن باديس الى سند فى الجريدة أو المجلة ، والسند الذى يهمه ـ فى الدرجة الاولى ـ هو السند المعنوى العلمى الادبى ، وكان ان التقت العواطف والمشاعر فالتفت حين قرأ تلاميذه واحباؤه مقالاته فى المنتقد والشهاب فتشجعوا أو كتبوا .

ولم يكن ابن باديس ليقص فكان يزور بسكرة مرة ليلتقى بالشيخ الطيب العقبى العائد من الشرق منذ سنة 1920 ، وليجتمع بامثال المرحوم الامين العمودى ثم الاخوان الآخرين ممن كونوا فيما بعد أسرة « الاصلاح » ويزور ضواحى سطيف مرة أخــرى ليلتقى بأمثال المرحوم الاستاذ الابراهيمى ، وتأخذ الاهتمام بالمشاريع تتزايد وتنمــو خمائر فى الضمائر والقلوب والعقول وتلقى بها الشفاه فتناقش وتعدل وتبقى تترصــد الفـــرص .

ففى سنة 1924 كانت محاولة لتاسيس « جمعية الاخاء الأدبى » .

أما سنة 1931 فقد تاسست جمعية العلماء تحديا للاستعمار الفرنسى ، وردا عمليا على دعواه بأنه بعد قرن من الزمن وهو رابض فى التراب الجزائرى لم يعد له من سبيل للتفكير فى مغادرته .

وتاسيس جمعية العلماء صار ابن باديس عضوا عاملا فى هياته ، ولكنه الذى يتحمل المسؤولية الاثقل امام الدولة ، وأمام الاحزاب وأمام الامة ، ولكنه يبدى النشاط المتواصل فلا يعرف الكلل ، ولا يشكل الملل وانما يمكن ان يقال عنه ان احسن ما يصدق عليــه هو قولـــه :

« اذا نظرنا فى عمل الماضى الذى قدمنا ، انبعث فينا الرجاء والامل فيما نستقبل ، وأصدق الامل ما انبنى على عمل فنتقدم باذن الله للعمل فى سبيل ترقية المسلم الجزائرى داعين الى العدل والاحسان والالفة والرحمة بين جميع المتساكنين بهذا القطر، والى التفاهم والتعاون على ما فيه هناء وسعادة الجميع » « شهاب أفريل 1936 » .

وتمضى حركة جمعية العلماء قدما فى عهد ابن باديس معنية بالتعليم اولا ، والاصلاح الاجتماعى الدينى ثانيا ، وتوجيه لسياسة فى الاحزاب الوطنية من وراء مــرة ومباشرة أخرى .

وتجيء قضية المؤتمر الاسلامى فيعمل ابن باديس جادا على قتل « مشروع السيــد فيولات » الى الابد كما جاء فى تعبير الشهاب عدد المؤتمر لانه مشروع يفرق الامـــة ، ويشتت وحدتها ، ويصدع صفوفها .

وتقع (مؤامرة اغتيال المفتى ابن دالى) فيكون لابن باديس الى جانب مواقفه الاولى مواقف أشد صلابة ، وأمهر فى الجدال بالتى هى أحسن وقرع حجج المبطلين بثبات جاش ورباطه قلب ، ويقين المؤمن الصادق ٠

وقد مضينا طويلا ولم نتعرض للعوامل الباطنية ـ ان صح هذا التعبير ـ من ايمان عميق الى اعجاب بالشعب الى حسن تقبل الى استقامة نادرة وتدين شديد ٠

وبكلمة موجزة نقول ـ والله يشهد ـ بأن ابن باديس كان يتخذ القدوة الحسنة من سيرة رسول الله وسيرة صحبه فلا يحيد عن الصراط السوى فى كل ما يستطيع أن يصل اليه اجتهاده ، وتساعده عليه ظروفه ٠

واسمحوا لى يا أبنائى الاعزاء ، واخوانى النبلاء وبناتى الغاليات ان انهيت الموضوع وهو ما يزال يتطلب الافاضة ، ويستحق البيان ، ولكن لنؤجل ذلك الى فرصة أخرى ٠

وحسبنا الآن أن ننهى هذه الكلمة بل نقتطعها اقتطاعا لنتابع ابن باديس فى بعض الفقر من صائب أحاديثه ، وجليل حكمه وبليغ آرائه ، عسى أن تكون فيها العبرة والعظة بهذه المناسبة الكريمة ، ولعلكم واجدون فيها متاعا للتفسر ، وثمرة دانية للقلب ، ومنهاجا سويا لمستقبلكم الماجد بالعلم الحافل بالاعمال ، الصالح المصلح لبناء الوطن الغالى الحبيب ٠

فمن بين كلماته التى ينبغى أن تكونوا على علم بها قوله فى احدى التوجيهات للشباب :

أيها الشبان أرجوكم أن تأخذوا العلم بأى لسان كان وعن أى شخص وجدتموه ، وان تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب كما أخذه الاوروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصرانى وانتفعوا به ، وهم اذا انكر بعضهم اليوم فضلنا عليهم فذلك شأنهم ، أما نحن فلا ننكر من أسدى الينا الخير الخالص ، ونعترف له بالجميل ، ولا علينا فيمن « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ولا يكن فى صدرنا من حالهم حرج فصدورنا بالايمان بالله ، والثقة به أوسع ، وعقولنا أرجح ، ودِيننا أرحم وأكمل ٠ ج 4 ص 314 من آثار ابن باديس للدكتور عمار طالبى ٠

ومرة نصغى اليه يقول :

رزقنا الله القوة فى قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وأبداننا ، وأشعرنا الرحمة بأنفسنا وببعضنا وبغيرنا انه القوى المتين الرحمن الرحيم ·

وأخيرا نبتهل الى الله معه فى قوله :

« جمع الله قلوبنا على الحق ، وأقوالنا على الصدق ، وأعمالنا على العدل والاحسان والحمد لله رب العالمين » ·

روح الشريعة الإسلامية

وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي

للأستاذ/ محمد أبي زهرة
أستاذ الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة



-2-

وانه من المقرر فى الفقه حقيقتان يجب ذكرهما لمعرفة مدى العدالة الاسلامية ، ومدى المساواة العادلة :

الحقيقة الاولى : أنه اذا ارتكب الامام الاعظم ما يوجب حدا ، وجبت اقامته عليه ، ولم يخالف فى ذلك أحدا الا أبوحنيفة وحده، والقاضى يقيم حق الله عليه والا كان آثما ، لان القاضى نائب عن المسلمين وليس بنائب عنه ، وكونه مولى من قبله لا يجعله نائبا عنه ، اذ ان التولية لدى الاهلية تمكين من القيام بالواجب ، وليست أى نيابة له بدليل أنه لا يعزل بموته .

واذا ارتكب الوالى المولى من قبل الامام الاعظم ما يوجب حدا فانه بالاجماع يقام عليه الحد .

(*) محاضرة ألقاها المرحوم فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى بتيزى وزو المنعقد من 10 ـ 22 جمادى الثانية 1393 هـ ـ 10 ـ 22 يوليو 1973 م .

ونظرا لطول المحاضرة ننشرها على حلقات .

والحقيقة الثانية : انه قرر الفقهاء بالاجماع أنه اذا ارتكب الامام الاعظم أو عماله ما يوجب قصاصا وجب القصاص منه ، وعلى عامة المؤمنين ان يعاونوا المجنى عليه من القصاص فى غير هوادة ، لانهم أولياء دمه يشاركون ولى الدم فى الولاية اذا عجز عن الاخذ بحقه ، وذلك لما جاء فى قوله تعالى : « **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا** » .

فقرر الفقهاء بالاجماع انه فى حال اعتداء ولى الامر اعتداء يوجب القصاص قرروا أن لولى الدم المطالبة ، وقد فرضوا انه قد يعجز عن القصاص لنفسه ، فأوجبوا على المسلمين المطالبة بذلك حتى يحملوا القائم على الامر أن ينزل الى القصاص منه ، وفى ذلك تطبيق دقيق لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « **لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتاخذن على يدى الظالم ، ولتاطرنه على الحق اطرا ، او ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم** » .

هذا مبدأ ، لم يسبق به الاسلام ، ولا يمكن أن يلحق به قانون وضعى ، لان القانون الوضعى يستمد قوته مما تواضع عليه الناس ، وقد تواضع الناس على أن ذات الملك مصونة لا تمس ، ولان غير الملك من الرؤساء يتغلبون ، والتغلب تحكم بالغلب لا بالحق ، وحتى رؤساء الجمهوريات المنتخبون انتخابا واستباح فى عصورهم دماء الملونين مهراقا ، ولا ناصر لهم ، أما الشريعة فانها مستمدة من الله ، وحكم الله هو الحق .

العدل مع الضعفاء :

8 ـ الضعفاء فى كل القوانين الوضعية فريسة لا ناصر لهم ، فمرة يؤكلون باسم الملونين ، ومرة باسم العادات ، ومرة باسم الطبقات ، ومرة باسم الاشتراكية التى فرقت ولم تجمع ، ومرة باسم حماية المجتمع ، وجرت تطبيقات الاحكام ، ولو كانت عادلة على أساس ملاحظة المراكز الاجتماعية ، فمن كان ذا مركز اجتماعى يرفق به فى تطبيق القانون ، وعند محاكمته ينادى بأرفق العبارات ، ويكون

وكيله فى مثل مكانته ، أما الفقير والضعيف ، فانه يخاطب بأخشن العبارات ، وليس له وكيل يدافع عنه ، أو يحميه من الظلم الاجتماعى الذى يكون القاضى فى أكثر الاحيان فى عينيه غشاوة بسبب كثافته ٠

وهنا نجد الشريعة التى نزلت بالقرآن حامية الضعيف بامرين :

اولهما : ان القاضى الاسلامى قد رسمه عادل الانسانية بعد النبيين عمر بن الخطاب فى كتاب القضاء الذى بعثه الى أبى موسى الاشعري قال الفاروق فى كتابه : « سو بين الخصمين فى مجلسك وكلامك واقبالك واشارتك ، حتى لا ييئس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع قوى من ضعفك » ولا تنس الانسانية ان على بن أبى طالب ابن عم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وزوج ابنته سيدة نساء المؤمنين تخاصم مع يهودى أمام عمر الفاروق فسمع أمير المؤمنين كلام اليهودى ، ثم التفت الى على وقال : وما قولك يا أبا الحسن ؟ فقال تركت الخصومة ، فقال عمر لانى سويتك باليهودى ٠

قال امام المجاهدين ، لا بل لانك لم تسو بيننا ، لقد كنيتنى ، ولم تكنه ، والنداء بالكنية تكرم ، فكان المجاهد الاول بعد الرسول يرى أنه كرمه ، ولم يكرم خصمه ، فلم يسو بين الخصمين فى كلامه ٠

ولقد نص الفقهاء فى آداب القضاة على أنه يجب التسوية عند المقاضاة بين الخصمين فى الامور الاربعة التى رويت عن الفاروق ، حتى انه يروى ان الرشيد قد تخاصم امام الامام يوسف القاضى صاحب ابى حنيفة مع يهودى ، فأجلس الرشيد ولم يجلس اليهودى فاعتقدت انها ليست عدلا أمام الله ، فكان يستغفر عن ذلك ، ويعتذر بان الذى دفعه هو مقام الخلافة ، ونحن نقول انه ليس بعذر فما كان الرشيد بخير من على ، ولا بخير من عمر ، انما هو الباب الذى فتح ، ولم يغلق الى اليوم ، حتى صار أمر المسلمين بددا وفسدت الامة ـ **ثانى الامرين** ـ الذى حمت به الشريعة الضعفاء أنه جعلت عقوبة الضعيف على النصف من عقوبة القوى ، وكان الضعفاء فى العصر الاول هم الرقيق ، والاقوياء هم الاحرار وقد جعل القرآن الكريم عقوبة الاماء على النصف من عقوبة الحرائر ، وقد قال الله

سبحانه وتعالى فى الاماء : « **فاذا احصن فان آتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** » أى ان حد الزنىمائة جلـدة ، فيكون على الحرة مائة ، وعلى الامة خمسين وكذلك العبد ، وكذلك كل الحدود المقدرة ، فمن شرب الخمر ثمانون جلدة على الحر ، وعلى العبد يكون اربعين ، وحد القذف ، وهو الرمى بالزنى ثمانون يكون على الحر ، وعلى العبد يكون اربعين وهكذا ٠

وقد استنبط كاتب هذه السطور من هذه القاعدة أنه يجب ان تكون العقوبة على الضعفاء اخف من عقوبة الاقوياء فالوزير يجب ان تكون عقوبته أشد من عقوبة الخفير أو قائد السيارة ، وذلك عكس ما هو قائم الآن ٠

وذلك لانالجريمة والعقوبةتسيران سيرا طرديا مع الكبير والضعيف فى الشريعة فالجريمة تكبر بكبر المجرم ، وتضعف بضعفه ، والعقوبة تتبعها ، فتكبر بكبره ، وتضعف بضعفه ، وذلك لان الجـريمة مهانة انسانية ، والمهانة من المهين اجتماعيا وفى نظر الناس قرينة فتهـون بهوانه وهى من الكبير اجتماعيا كبيرة، فتكبر تبعا لمقامه ، هذا نظـر عادل رفيق بالضعفاء ولكنا نرى فى القوانين الوضـــعية ، أو فى تطبيقها على الاقل عكسا للمعقول ، وظلما للعقول ، وذلك لانالقوانين الوضعية هو القانون الرومانى ، ثم الاوضـــاع الاجتماعية التى اصطنعها الاقوياء فى المال ، أثر الجاه أو نحو ذلك من أسباب القوة ٠

ولنضرب لذلك مثلا للمفارقة بين حكم الله وحكم الرومان واتباعهم، قد رأيت ان الشريعة الاسلامية بنص القرآن ومضمونه تجعل عقوبة العبد فى الزنى وغيره على النصف من عقوبة الحر ٠

أما القانون الرومانى سيد قوانين هذا الزمان ، فانه يقول كمـا جاء فى مدونة جستنيان ان العبد اذا زنى بحرة قتل ، أما اذا زنى عضو الشيوخ ، فانه يغرم غرامة بسيطة ، (مدونة جستنيان ترجمة المرحوم عبد العزيز فهمى) ٠

وقد سكت القانون عن الحرة المزنى بها ما حـــكمها ، لم يعتبرها مجرمة وربما لو كانت هى التى همت به وأغرته ودفعته ولا حول ولا قوة الا بالله من ظلم الانسان للانسان ٠

العدالة الاجتماعية :

9 ـ لم يتجه الاسلام بهدى محمد صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، ونصوص القرآن الكريم الى اقتطاع أموال الاغنيـــاء ، ليذيب ما بين الاغنياء والفقراء ، كما قال ذلك بعض الذين تزعموا السياســة فى بعض البلاد العربية ، لان الغنى والفقر حقيقتان ثابتتان فى الوجود بمقتضى الطبائع الانسانية ، وان الثمرات تابعة للطاقة ، وان نظام الانتاج وتقدير الله تعالى لها دخل فى اثراء هذا ، وجعل ذلك فى قل من المال ، فان نتائج الاعمال كثمرات الغرس وكاثمار الزرع والقوى متفاوتة ، فهذا ينتج بقوة أشـــــد ، وذاك ينتج بقدر أقل ، وبذلك تتفاوت الثروة قلا وكثرة فى أيديهما ، ولا يمكن اتحاد القوى ، فلا يمكن اتحاد الثروة ، وقد يتحد الانتاج ولكن احدهما يسارع فيبيع فى وقت غلاء الاسعار ، وينتظر الآخر غلاء اكثر ، فيجيء كســـاد ، فيبيع بثمن بخس ، فيكون فى يد الاول ثروة ، وتكون يد الثـــانى خاليــة ٠

وذانكم اثنان يزرعان فى قطع من الارض متجاوران ، وتســـقى بماء واحد وتبذر فيها بذور واحدة وتسمد بسماد واحد ، ولكن تاتى آفة ، زراعية لاحدهما دون الآخر فيكون أحدهما ذا ثروة والآخـــر لا ثروة فى يده ٠

انه لا يمكن زوال ما بين الغنى والفقر بالاذابة كما يجـــرى على السنة الجهلاء بطبائع الاشياء وطبائع القوى الانسانية ، وما يجرى به الـــزمان ٠

والاسلام اذا اعترف بهذه الحقيقة الثابتة عالج الفقر ، فلم يجعله داء ينخر فى عظام المجتمعات ، بل عمل على سد حاجـــــة الفقير ، ومعاونته محبة ورحمة ، ففتح باب الصدقات المنثورة ، وجعل التعاون فى الاسرة قائما على المودة والتراحم فأوجب على الغنى فيها الانفاق على الفقير العاجز ، ونفذ ذلك بحكم القضاء ان لم تكف دعوة الرحمن٠

وأوجب على أهل كل حى أو قرية ان يتعاونوا فى سد خلة الفقير ، فقد جاء فى المحلى لابن حزم الفقيه السلفى الذى يأخذ بالمأثور : ان

على أهل كل قرية ان يتعهدوا فقراءها بالانفاق ، فاذا لم تكف الزكاة الفقراء كان عليهم ان يرتبوا لكل فقير فيها مطعما طيبا ، وملبسا كاسيا ، ومسكنا يؤديه هذا نص عبارة ابن حزم تقريبا .

وهذا نوع من التكافل الاجتماعى فى المجتمع الصغير ونراه قائما على التضافر والتكافل الاجتماعى .

وهناك باب من أبواب سد الفقر ، وهو باب النذور والكفارات ، فمن نذر أن يتصدق كان عليه بحكم ان يتصدق ، ويكون ذلك واجبا فى ذمته ، ودينا عليه حتى يؤديه ، وقد قال عليه السلام من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر ان يعصى الله فلا يعصه .

وكفارات الذنوب كلها بالصدقة ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفى الماء النار .

ومن أفطر فى رمضان ، وليس عنده رقبة يعتقها عليه اطعام ستين مسكينا ، ومن حلف على شيء ورأى خيرا منه وحنث ، فعليه اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ،وهكذا كانت كفارة الذنوب دائما الصدقة اللازمة على الفقراء ، وذلك لان اكثر المعاصى فيها اعتداء على المجتمع ، فكان حقا على العاصى ان يعوض المجتمع عما كان من اعتدائه عليه .

الزكاة والعدالة الاجتماعية :

٢٥ ـ ان ما تقدم اكثره عطاء فردى يتولى من وجب عليه اداؤه ، لمن يشاء من الفقراء أو المحتاجين أو جهات البر بشكل عام ، ولكن للدولة الاسلامية نظام يوجب جمع الزكوات الواجبة على القادرين الذين لهم أموال نامية تؤخذ الزكاة من نمائها أو عينها على حسب اختلاف الاحوال ، فيؤخذ من عينها من النقدين وهما الذهب والفضة ، وما يقوم الآن مقام الذهب من الاوراق النقدية (البنكنوت) ومن الارض من الثمار والزروع .

وان لمال الزكاة بيتا من بيوت المال قائما بذاته ، وذلك لقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ بن جبل عندما ارسله واليا على اليمن قال له فى شأن الزكاة (خذها من أموالهم وردها لفقرائهم) .

وقد عين القـــــرآن الكريم مصارف الزكاة ، فجعلها فى ثمانية مصارف ، ولم يترك لنبى أو حاكم أن يوزعها كما يشاء له الهوى ، بل قال سبحانه وتعالى فى شأن توزيعها :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » .

وجعل لها فى بيت مال الدولة حصيلة قائمة بذاتها ، وترى ان من بين الثمانية ثلاثة يجب التنبيه اليهم ، هم ابن السبيل ، وهو الذى له مال ولكن فى مكان قد انقطع عن ماله ، ولا ماوى ولا مطعم ولا ملبس ، فانه يجب ان يستضاف فى بيت مال الزكاة حتى يعود الى أهلـه .

والثانى فى الرقاب ، فانه يجب ان يشترى من مال الزكاة عبيد ليعتقهم بيت المال ، ليكونوا قوة عاملة فى الدولة ، بدل ان يكونوا أرقاء متدغمين فى غيرهم ليست لهم شخصية كاملة مستقلة .

والغارمون ، وهم المدينون بديون اســـــتدانوها فى غير اسراف ، وعجزوا عن السداد فى غير اسراف كتاجر استدان ، وعجز عن سداد الدين لهبوط فى الاسواق ، فانه يسدد عنه دينـه من مال الزكاة ، وهنا نقف وقفة قصيرة ، ونشيرالى أمرين :

اولهما : أنه لا يوجـــــد الى الآن فى أى قانون من قوانين العالم شيوعيا أو اشتراكيا أو رأس مالى ، وصل الى هذا النوع من التعاون الانسانى ، ولكن الشريعة الاسلامية بنص القرآن الحكيم أعلنت اليه منذ نحو اربعة عشر قرنا من الزمان ، فهـــل يعتبر المعتبرون الذين يتكلفون التطعم ، وعندهم خير من فى الوجود كله ، وانه فى الوقت الذى كان فيه القانون الرومانى فى بعض أوقاته يسترق المدين اذا لم يسدد دينه ، ويباع لياخذ ثمنه فى السداد .

فى هذا الوقت كان القرآن يوجب سداد دين المدين ليبقى قـــوة منتجة مثمرة ، ولا تنقطع ثمرات انتاجه عن الامة .

الامر الثانى : ان والى الصدقات فى افريقية فى عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز أرسل اليه يشكو من أن بيت مال الصـــدقات

اكتظ ، ولم يجد فقيرا يعطيه ، فأرسل اليه عمر بن عبد العزيز يقول : سدد الديون عن المدينين ، فسدد ، ولكن بيت مال الصدقات لا يذهب منه جزء حتى يعود الى الامتلاء اذ تترادف عليه الاموال .

فأرسل الى الحاكم العادل ، لقد سددت ديون المدينين ، حتى لم يبق مدين لم أسدد دينه ، فأرسل اليه عمر بن عبد العزيز ، اشتر عبيدا من عبيد المسلمين واعتقها .

العدالة الدولية :

١١ ـ بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للناس كافة وعد الجماعة الانسانية أمة واحدة ، ولقد جاء في القرآن الكريم : «**كان الناس أمة واحدة**» وقد قال تعالى : «**وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا**» وقد جعل القرآن الغاية من اختلاف الانسان الى شعوب وقبائل ان يكون التعارف دون التخالف ، فقال تعالى : «**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم**» ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : «**كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى**» ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : «**بعثت للاحمر والاسود**» .

فنظرة القرآن الكريم الى الناس ، على أنهم تجمعهم وحده الانسانية ، وان التعاون بين آحاد الانسان وجماعته أمر تحتمه الفطرة ، ويؤكدها الاسلام ، وان المعاونة واجبة بين الناس ولذا قال عليه السلام : «**الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه**» .

بهذه النظرة المتسامحة المتآخية هي نظرة الاسلام الى علاقة المسلمين بغيرهم من الاجناس والاديان ، فجميع الناس امام الله تعالى على سواء ، لا تنافر ولا تناحر ، واذا كان قد أباح الحرب ، فلمنع الفساد في الارض ، ولمنع الاعتداء ، فلا يعتدى قوى على ضعيف فكانت الحرب ، لأمرين : أولهما دفع الفساد ، وثانيهما منع الاعتداء ، وليعيش ابن الارض في سلام مع أخيه الانسان ، والسلام الحق هو الذي يقوم على العدل ودفع الفساد ، ولقد قال تعالى : «**ولولا دفع**

الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين » فكان دفع الظلم فى شريعة الفضيلة باعثا على القتال لمنع الفساد ، وليستقر الحق فى هذا الوجود الانسانى ، او ليعيش غير مستخذلولا مستسلم للباطل ، انه من وقت أن حسد قابيل أخاه هابيل ، لأنهما قدما قربانا لله فتقبل من احدهما وهو هابيل ، ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل ، فانفجر غيظا من رد قربانه قائلا : **لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك ، انى اخاف الله رب العالمين** » ... « **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فاصبح من الخاسرين** » .

ذلكم ولدا آدم ، فجاءت ذريتهما متناحرة متغالبة ، الشر يغالب الخير ، وكان على الخير اما ان يستسلم ليتحكم الشر فى الارض ، واما أن يغالبه ، ويكون النصر متداولا بين الحق والباطل ، ولذلك كانت الحرب وكان الانحياز فى الارض ، فصار لكل شعب اقليم ، وكان لابد أن يكون تنظيم فى العلاقات بين الناس من غير ان يجتث الشر اجتثاثا ، ومن غير أن يستحكم قانون الغابة ، ويكون السلطان للقوى الغالب سواء أكان محقا أم كان مبطلا ، كما نرى الآن فى الامم التى أوتيت المال والارض ، والعلم ، فكان ذلك شرا على الانسانية كلها ، وركب الشيطان رءوس حكامها ، حتى صاروا لا يبالون بفضيلة ولا حق .

ان شريعة القرآن هى شريعة الله تعالى وهى لا تقر الظلم ، ولا تخضع الحق للباطل ، بل يحق الله الحق بكلماته ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون

ولذا نظم الاسلام علاقة الدولة الاسلامية بغيرها ، ولعل ما اشتمل القرآن عليه من علاقات بين المسلمين وغيرهم هو أول تنظيم للعلاقات الدولية ، ومن هدى القرآن وأعمال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وسنن الصحابة فى الحروب ، والعهود تكون أول قانون دولى ، وجد فى العالم .

لقد جمع امام من أئمة الفقه الاسلامى ، وهو الامام محمد بن الحسن الشيبانى ما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما اتبعه

فيه اصحابه من بعده ، وخصوصا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى حارب وعقد العهود ، فى كتاب سماه السير الكبير ، وآخر سماه السير الصغير .

وتدارسهما أهل أوروبا ، وأخذ منهما علماء فى هولندا وكتبوا فى القانون الدولى ، ولكن كتب محمد بن الحسن ومن عاصره كالاوزاعى والقاضى أبى يوسف ، فيها القانون الدولى مستمدا من القرآن ، وقائما على الفضيلة ، والاخلاق الانسانية ، ولم يقم على مجرد العهود التى يمليها القوى ويمليها قانون الغلب ، لا قانون العدل والفضيلة .

12 ـ هذا وتقرر أن العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم تقوم أولا على أن الاساس فى العلاقلت هو السلم ، حتى يكون اعتداء على المسلمين ، اما بالوقوف ضد الدعوة الاسلامية ومصادمتها وفتنة المتدينين بالاسلام ، ثمحاربة الملوك الذين كانوا يحولونبين رعيتهم، والاسلام انما يحاربونهم لتكون الحرية الدينية بالتبليغ بالحق ، لا لحملهم على الاعتقاد ، فلا اكراه فى الدين ، انما ازالة هؤلاء الملوك ليتبين الرشد من الغى ، وبعد ذلك فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها .

هذا وان العلاقة من بعد ذلك تقوم على ثلاث دعائم كل يعتمد على الحق ، والعدل والفضيلة فى ذاتها أولها المودة التى توجبها المؤاخاة الانسانية العامة ، سواء أكانوا متقاربين أم كانوا متباعدين وسواء اتحد اللون أم اختلف ،وسواء اتحد الدين أم اختلف، مادام الاعتداء غير قائم ، ولم يقاتلوا المؤمنين ولم يظاهروا عليهم ، وهذا قوله تعالى: **« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون »** .

واذا لم تكن المودة متمكنة لاعتدائهم ، اذا كانوا يحادون المؤمنين فى دينهم يكون القتال كما قال تعالى : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** » .

فاذا كانت العداوة المعتدية تكون العدالة هى الفصل الحـــاكم ، ويكون على دولة الاسلام ان تعدل مع اعدائها ، فالعدالة لا تفرق بين عدو وولى فهما على سواء فى استحقاقها وقدذ كرنا من قبل فى هــذا البحث قوله تعالى : « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلـوا هو اقرب للتقوى** » ولذا كان رد الاعتداء بمثله لا يتجاوزه .

واذا لم يعتدوا بالفعل لم يكن لدولة الاسلام ان تحاربهم الا اذا تبيّن لها أنهم سيعتدون ، ويعدون العدة للاعتداء ، وللانقضاض على المسلمين ، وانه حينئذ لا يسوغ لدولة الاســلام ان تنتظـــر حتى ينقضوا ، فان الله تعالى يقول فى القرآن الكريم : « **يا ايها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات اوانفروا جميعا** » .

والدعامة الثانية ، هىالمعاملة بالمثل ، ما لم يكن رذيلة ، فبالسلاح الذين يحاربوننا به نحاربهم ، وبالمعاملة التى يعاملوننا بها نعاملهم الا أن تكون رذيلة ، فاذا كانوا يقتلون الشيوخ والنساء والاطفال لا نحاربهم فيها ، واذا كانوا ينتهكون حمى الفضيلة لا ننتهكها ، ولو فى ميدان القتال ، واذا كانوا يمثلون بالقتلى ، لا نمثل بقتلاهم ،ولقد مثل المشركون بجثمان حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأدال منهم ، ولم يمثل باحد منهم ، لان حرب الاسلام لاقامة العدل ، والفضيلة ، لا لمجرد المغالبة ، واظهار القوة كما يفعل الوحوش الامريكان وغيرهم فى هذه الايام .

13 ــ واذا انتهت الحرب لا يقول الاسلام ويل للمغلوب كما يقول ساسة اليوم الذين يحكمون الوحشية فى سياستهم ، بل يقــول : « **لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم ، وهو ارحم الراحمين** » كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للذين أخرجـــوه من داره ، وفتنوا اصـــحابه فى دينهم ، ومثلوا بعمه وحبيبه حمزة بن عبـد المطلب .

والدعامة الثالثة في علاقة دولة الاســـــلام بمخالفيها ـ الوفاء بالعهد ، فان الوفاء بالعهد دعامة العلاقة الدولية الفاضلة ، وهو من العدالة التى لا تستقيم العلاقات الانسانية الا بها ولقد شدد الاسلام فى الامر بالوفاء بالعهد ، فقال تعالى: «**وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعـد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمـة انما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهـدى من يشاء ، ولتسالن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل اللـه ، ولكم عذاب عظيم** » ، وان هذا النص الكريم يشير ، بل يؤكد ثلاثة معـــــان :

اولها : ان العهد الذى يوثق باسم الاســــلام هو عهد الله ، فمن ينقضه فانما ينقض ميثاق الله سبحانه وتعالى .

ثانيها : ان العهـــــد فى ذاته قوة وأمن للمتعاقدين . والوفاء به يكسب قوة ، ولذلك شبه من ينقضه بالحمقاء التى تغزل غزلا ، وتفتله وتقويه ، ثم بعد احكامه تنقضه جزءا جزءا ، وفوق ذلك عن نقضـه ذلك لتقدم بعد ثبوتها ، والعهد كذلك ، لانه تثبيت للسلم ، والسلم قوة ، ونقضه اضعاف لهذه القوة ، وقد رأينـــا الدول التى تنقض العهود وتسميها أوراقا غير ملزمة تزول ، وفى وقت الحاجة لا تجـد من يثـق بها .

وثالثها : من المعانى التى تدل عليها الآيات الكريمات انه لا يصح أن تكون الزيادة فى أرض الدولة ، وقوة السلطان فيها ســببا فى نقض العهد ، ولذا ذكر من بواعث الغـدر الباطلة ان تكون أمة هى اربى من أمة ، أى أن تكون أكثر عددا ، وأوسع أرضا واقوى سلطانا من امة اخرى .

وان القوة التى تكون بسبب باطل تؤدى الى الضعف لا محـالة ولأجل هذا شدد القرآن الكريم فى أن تكون العلاقات الدولية قائمة على العدالة ، ومنها الوفاء بالعهود .

وانه لا يجوز نقض العقد ، لأى سبب الا أن يكون السبب مشتقا من العهد نفسه ، بأن ينقضه العدو ، ولا يستمسك به ، كما نقض المشركون عقد الحديبية ، وكما نقض يهود المدينة عهودهم مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عهدا بعد عهد ٠

وان القرآن الكريم لا ينتظر الاعداء حتى ينقضوا العهد ، ويخونوا امانات المؤمنين ، بل انه ، يترقبهم ، ويحذرهم ان قامت امارات تدل على الخيانة ، أو ظهرت بوادرها عليهم ببطلان العهد الذى هموا بأن ينكثوه أو عدوا العدة لنكثه ، ولذا قال تعالى : « **واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء** » أى سويا بينك وبينهم . فان العقد لا يوفى من جانب واحد ، بل لابد ان يوفى من الجانبين لانه رباط لا يكون الا بين طرفين ٠

هذه هى الشريعة الاسلامية ، اشرنا فى هذه العجالة الى أساس العلاقات الدولية ، لو نفذت فى هذه الايام لرفرف السلم فى العالم، وما كانت الحرب الا بين المفسدين ، وما دخل العادلون الا لمنع الفساد فى الارض ٠

الرأى العام الفاضل :

14 ــ ذكرنا ان الاسلام يبنى تنظيم المجتمع على الكرامة الانسانية، أولا ، وعلى العدالة ثانيا ٠ والمجتمع الفاضل دعامته هذان الامران ، ولا يتكامل فضيلة الا اذا ساده الخلق الطيب ، واختفت فيه الرذائل واستترت ، وعاشت فى ظلام ، فان الظلام يقتلها ، وان النبى صلى الله تعالى عليهوسلم دعا الى اخفاء الرذائل ، فى قوة ، فقال : يا معشر الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات ، فاستتر فهو فى ستر الله ، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « **ان من أبعد الناس عن الله منازل يوم القيامة المجاهرين** قيل ومن هم يا رسول الله ؟ قال **ذلك الذى يعمل عملا بالليل قد ستره الله تعالى عليه ، فيصبح يقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله** » ٠

ولذا كان الرأى العام الفاضل النزيه فهذا الانماء ، ونرى الاسلام الى تكوينه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو خاصة الامة الاسلامية ، واساس قوتها اذا أخذت به ، كما قال تعالى:« **كنتم خير**

امة اخرجت للناس تامروون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله » وترك هذا الفرض الذى حرض عليه القرآن الكريم فى كثير من آياته المحكمة لهو الطريق لغناء الامم ، وما ضعفت شوكة المسلمين ، وتفرق جمعهم ، وصاروا نهزة المفترضين الا ان سكتوا عن ذلك وتركوا ذوى القوة والجاه ،والحكم منهم من غير ناطق بالحق متقدم للجهاد به ، فصاروا عبرة المعتبرين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

وان البناء الاجتماعى الفاضل لابد ان يسوده الحياء ، بحيث يخفى الشخص رذائله ، ويظهر محاسنه ، لان اظهار الفضائل دعوة اليها ، واخفاء الرذائل استحياء من الله والناس يحمى الناس منها ، ولذا دعا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحياء،فقال الحياء خير كله ، وقال لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء ، ويقول من لا حياء فيه لا خير فيه ، ويقول ان مما توارثه الناس من كلام النبوة الاولى ، اذا لم تستحى فاصنع ما شئت ٠

وهكذا شرع الاسلام للامة ما يحمى مجتمعها من الرذائل ان تسيطر ، وأن الفرق بين المجتمع الفاضل وغيره ، ليس بمقدار عدد الرذائل فيه ، ولكن بمقدار سيطرة الفضائل ، ولو كان عدد الرذائل كثيرا ، لان الفضيلة اذا سيطرت وجهت ، وطهرت ، وطهر المجتمع بها ، والرذيلة اذا سيطرت دنست المجتمع كله ولو كثر عدد الفضلاء فى ذات انفسهم ، وقد وجدنا فى عصرنا مع سيادة الظلم امة كانت حريصة على طهارة الرأى العام فيها ، فكانت تغمض العين عن الرذائل قلت أو كثرت مادامت في الظلام ، فاذا ظهرت حاربتها ، وقاومتها بعنف شديد ٠

وجدنا هذه الامة الآن آلت الى انهيار ، اذ يعلن كبراء فيها معاصيهم ، ويكتفون بوصف انفسهم بالصغاير ، فضلوا ونسوا ان اعلان معاصيهم تحريض على المعاصى ٠

الكسب الطيب :

15 ــ تكلمنا فيما هو قوام الانسانية ، وما به يتكون المجتمع الفاضل ، واخذنا الاحكام من القرآن والسنة مباشرة ٠

والاسلام لم يكتف بذلك التنظيم الاجتماعى الانسانى العام ، بل تكلم فى اسباب الرزق الحلال ، والكسب الطيب ، وقال الله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل ، الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا انفسكم ، ان الله كان بكم رحيما ، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما ، فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا »** ، بهذا النهى الحكيم من رب العالمين كان تنظيم المال وعقوده ، وأشار سبحانه الى أن أكل المال بالباطل يقتل به الامة نفسها ، وقد جاء اليهود من هذا الباب ، فيسروا أكل المال بالباطل بين المسلمين ، وقتلوها ، اذ حكموا المادة فيها فماتت وتفرقت ، واستطاعوا ان يسيطروا عليها .

والاسلام ككل تنظيم اقتصادى المتبع له فى جملته وتفصيله بحده يقسم الكسب الطيب الى ثلاثة انواع :

كسب بالزراعة . وهو حلال لا ريب فيه . وقد من الله تعالى على عباده فقال : « **كلوا من طيبات ما كسبتم ، ومما اخرجنا لكم من الارض**» .

والثانى الكسب بالتجارة : والكسب بالتجارة أشار اليه القرآن الكريم فى الآية التى تلوناها : « **يا ايها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل** » الآية .

وان التجارة حبب فيها الاسلام وقد تولاها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وذلك لان التجارة لكل الاموال من أرض تنتج أنواعا الى أرض لا تنتجه فتجعل ابن الارض ينتفع بخيرات أرض فى كل أرض تنتج خيرا ، ولقد قال عليه السلام الجالب مرزوق ، والمحتكر خاطىء ، والجلب هو الاستيراد من الاقطار الاخرى ، ويقول بعض الاقتصاديين من المسلمين الاولين نقل المتاجر من الاقطار لا يفعله الا ذوى الاخطار من التجار .

وانه فى هذا تتعرض المتاجر للمخاطر ، ولا يقوم عليها الا من يريد أن يكسب بالتعرض للربح والخسارة كالغرم بالغنم .

والطريق الثالث هو العمل . والعمل هو الاصل فى الكسب وقد حث النبى صلى الله عليه وسلم على العمل ، وحبب فيه وقال

عليه السلام : «**خير ما أكل ابن آدم ما كان من عمل يده ، وان نبى الله تعالى داوود كان يأكل من عمل يده** » .

وكرم الله تعالى عمل اليد لكيلا يحقره أحد ، وتتعاون الامة كلها بالعمل ، وهكذا .

تهيئة الفرص :

16 ــ وان الاعمال متفاوتة فى ذاتها اوسعها عمل اليد ، واعلاها عمل الفكر ، وبينهما درجات . وقد استنبط منها المسلمون من آثار الصحابة والتابعين ، ومن قبلهم هدى سيد المرسلين توزيعا عادلا للقوى الانسانية ، كل فيما يستطيعه ، وان ذلك التوزيع تنظمه الفطرة وهو شيء من القوى التى وهبها الله لعباده ، وهى متفاوتة ويكون عمل كل امرىء بمقدار مواهبه وبمقدار استعداده .

لقد قرر الشاطبى مستنبطا من فقه الصحابة والتابعين وهدى سيد المرسلين أن الاعمال التى تسند لذوى القدرات تكون على حسب الفروض الكفائية ، وتكون التربية لتهيئة الناس على الفروض الكفائية ، كل بحسب مقدرته وطاقته ، فيكون لكل ذوى طاقة فكرية وبدنية فرض كفائى يناسبها ، وتقوم به ، وتؤديه .

17 ــ وقبل ان نخوض فى بيان ذلك نشير الى معنى الفروض الكفائية ، فنقول ان الفروض كما اوجبها الاسلام فروض عينية يجب على المكلف ان يقوم بها كالصلاة والزكاة والحج لمن استطاع اليه سبيلا أن يقوم به ولا يغنى عن واحد قيام غيره به ، فلا تغنى صلاة واحد عن آخر ، وكذلك من صومه ، وكذلك الزكاة لمن وجبت عليه ، والحج لمن استطاع اليه سبيلا .

وهناك فروض لا تجب على الآحاد بل تجب على الجماعة ، وتتضافر على تحقيقها وتتعاون فى ايجاد من يقومون بها ، كالجهاد وكالقضاء ويقول الامام الشافعي الفروض الكفائية واجبة على العموم والخصوص ، فالطب مثلا فرض كفاية ، وهو واجب على العموم ، وعلى الخصوص ، فهو واجب على الامة بأن تعد طائفة من بينها للتخصص فى الطب وان تعين لكل نوع منه طائفة معينة .

ثم بعد تعيين هـــذه الطائفة المتخصصة يكون الطب واجبا على الخصوص على هذه الطائفة التى خصصتها الامة ·

ويكون الوجوب على هؤلاء قريبا من الوجوب العينى ، لانه لا يتعين طبيب لكل مريض ولكن بلا ريب يكون الوجوب على الاطباء هـــو الافضل فى الوجوب بعد تعيينهم ·

وكذلك الهندسة وكذلك القضاء ، وكذلك الجهاد ، لابد ان تتضافر الامة على تربية طائفة لقيادة والجنـــدية ، وتدريبهم ، وتمدهم بكل الاسباب ، ويكون الفرض عليهم أولا ، ولا يكون الجهاد على الكافة الا اذا دخل العدو أرض الاسلام فى أى جزء من اجزائها القاصى والدانى. فكل شبر من أرض الاسلام لكل مسلم حصته شافعة فيه ، فعليه ان يرابط لحصته ، وكما قل صلى الله تعالى عليه وسلم « **كل مسلم على كثرة من كثور الاسلام لا يؤتى الاسلام من جانبه** » ·

17 ـ على ضوء هذه الاشارة الموجزة الى مقام الفروض الكفائية ، ومقدار الوجوب فيها قد قرره الشاطبى بانيا على كلام الشافعى فيه وكلام الشافعى فى فرز من هدى النبى صلى الله تعالى عليه وســـلم ويأخذه عنه الصحابة والتابعون ، بعد نصوص القرآن الكريم ·

قرر الشاطبى فى التربية الاسلامية فى الجـــزء الثالث من كتابه الموافقات أنه يجب ان تبنى التربية على أساس تهيئة الجميع للفروض الكفائية كل على حسب طاقته ·

قرر أن يكون التعليم على ثلاث مراحل :

1) المرحلة الاولى ، وتكون عامة لكل الشباب ، يعلمون فى هذه المرحلة فروض الدين ، وأحكامه واللغة العربية ، ويحفظون القرآن الكريم أو جزءا منه ويعلمون به شؤون دينهم كما اوجب الشـــافعى ويعلمون فيه السباحة والرماية وركوب الخيل للجهاد ، ويعلمون حمل السلاح ، ويدربون على النضال كما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى به فى تربية شباب الصحابة ، وكما كانوا يفعلون ، ومن اجتاز هذه المرحلة بتفوق انتقل الى المرحلة الثانية ، ومن لم يجتزها بتفوق ، وقف عند ذلك الحد ، وهو حينئذ يقف عنـــد فرض كفائى يجب على الامة تحقيقه ، وهو القيام بالاعمال اليـــدوية ، ومن عمال يدويين ، ومن جنـــد يحاربون ليس لهم الا قوتهم البدنية بها يدافعون ·

2 ـ المرحلة الثانية ـ وهى المرحلة المتوسطة تكون من المتفوقين فى المرحلة الاولى اجتازوها بتفوق ، وبرعوا فيها ، وفى هذه المرحلة يتجهون نحو التفنن المحدود ، ويعلمون أصول الصناعات ، ويدربون على الاعمال الفنية ٠

ومن اجتاز هذه المرحلة بتفوق انتقل الى المرحلة الثالثة مرحلة التخصص الكامل أو ما يكون طريقا الى الكمال ٠

ومن لم يجتزها بتفوق ، وقف عند مرحلة تحتاج اليها الفروض الكفائية التى تحتاج اليها الامة ، فالامة تحتاج الى ممرضين ، ومساعدى صيادلة ومهندسين ، وكتبة للديوان وغير هؤلاء ، وهؤلاء يكونون ممن وقفوا عند هذه المرحلة وتحتاج الى عمال فنيين مدربين مهرة ، وغيرهم ، وهؤلاء يكونون ممن وقفوا عند هذه المرحلة ، فحيث وقفوا كانوا يستطيعون القيام بفروض كفائية ، الامة محتاجة الى أنواعها ٠

والمرحلة الثالثة أو التالية ـ هى التى تتكون ممن يبقون فى المرحلة السابقة ، وهذه مرحلة التخصص ، وفيها يتخرج كبار القواد ، والعلماء والفقهاء ، والمهندسون والاطباء ، وهذه المرحلة فى حقيقتها مراحل ، ولكن مراحلها تكون بالجهود الذاتية ، فمنهم من يربى نفسه فى القيادة حتى يكون كخالد بن الوليد ، ومنهم من يربى نفسه بالفقه ، حتى يكون كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ومنهم من يربى نفسه فى القضاء حتى يكون كعثمان التبتى وعبد الرحمن بن شبرمه وابى يوسف القاضى ، ومنهم من يربى نفسه فى الطب ، حتى يصير كابن سينا ومنهم من يربى نفسه فى الهندسة حتى يكون كأبى الريحانى البيرونى ، ومنهم من يربى نفسه فى العلوم الرياضية حتى يكون كأبى بكر الخوارزمى ومنهم من يربى نفسه فى علوم البيان، حتى يكون كالجاحظ ، وابى هلال العسكرى والزمخشرى ، وهكذا يتجهون نحو القمة ، حتى يصلوا اليها ٠

18 ـ وان خلاصة هذا الكلام تنتهى الى ان التربية كما قررها الشاطبى مستنبطا من عمل النبى والصحابة والتابعين ، كبناء الهرم٠

وقاعدته أوسعته وهى تشمل المرحلة الاولى ، وهى شباب الامة كلها، ثم يضيق من بعد القاعدة حتى يصل الى المرحلة الثانية ، ثم يذهب فى الارتفاع حتى يصل الى المرحلة الثالثة ٠

والمرحلة الثالثة تضيق وترتفع حتى تصل الى القمة ، وفى القمة يكون العدد قليلا ، وهؤلاء هم العباقرة الذين تبنى عليهم الحضـــارة الانسانية فى كل فروعها ، وأنواعها ٠

وقد يقول قائل ، ان هذا كلام أقرب الى اصطلاحات العصـــور الحديثة فهل كل هذا شرعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونفذه الصحابة ؟

ونقول فى الاجابة عن ذلك ان المراحل ذكرت بعضها تقريبـا فى كتاب الموافقات للشاطبى وواضح أنه اقتبس اصلها من كلامالشافعى فى الرسالة الا صولية ; فكـلام الشـاطبى تفصيل لمعنى الخصوص والعموم بالنسبة للتكليفات الكفائية ، وهو توضيح لقديم ، وليس ذكرا لجديد والشافعى ، وهو العالم بالقرآن ، وامام السنة وناصرها أخذهما مما درس من فقه الصحابة وفقه السنة ، واذا كانت الاسماء لم ترد على السنتهم ، فالحقائق قد ثبتت باقـــوالهم وافعالهم ، وما اتبعوه فى سياستهم العلمية ، والحربية ، وتنظيم الدولة ٠

وعدم ذكر هذه الاسماء ، وجريانها على السنة الصحابة من تقسيم المراحل ، وذكر واجبات كل مرحلة وما تنتهى به واليه لا يدل على أن وقائعها لم تكن موجودة ، بل انها موجـودة ، وان لم يقف السلف الصالح بالاسماء عنى بالوقائع ٠

(يتبع)

نشـــاط المركز الثقافى الاســلامى

نظم المركز الثقافى الاسلامى خلال الاسابيع الاخيرة سلسلة من المحاضرات بالعربية، قـــام بها أساتـــذة متخصصون جزائـــريون ومستشرقـــون ، وتنـــاولوا فيهـــا مواضيع متنوعة ، منها التاريخية والحضارية ، ومنها الفلسفية والدينية والثقافيـــــة ، ومنها الادبية واللغوية والفنية ، وهى كالتالى : ـ

ـ دولة بنى برزال الجزائرية بالاندلس ، للشيخ سليمان داود بن يوسف ، بحاثـة جزائرى ، ألقاها يوم الاثنين 9 صفر 1396هـ ، الموافق 9 فيفرى 1976م ،

ـ أرسطو وأثره فى الفكر الاسلامى ، للاستاذ نافع النومان ، من الجمهورية العربية السورية ، ألقاها يوم الاثنين 23 صفر 1396 هـ ، الموافق 23 فيفرى 1976 م ٠

ـ نظرية الدولة الاسلامية فى آراء الفلاسفة العرب المشارقة والمغاربة ٠

ـ المناظرة بين المنطق الفلسفى والنحو العربى فى عصر الخلفاء ، للمستشرق الالمانى الدكتور جيرهارد أندرس ، أستاذ اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى جامعة بوخوم ـ بجمهورية ألمانيا الاتحادية ـ ، ألقاها يومى الخميس والجمعة 27/26 صفر 1396 هـ ، الموافق 27/26 فيفرى 1976 م ٠

ـ تطور مفهوم الثقافة فى العالم العربى ، للمستشرق الالمـــانى الدكتـــور فولف ديتريش فيشر ، أستاذ اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى جامعة ارلنجن ، بجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ألقاها يوم الثلاثاء 1 ربيع الاول 1396 هـ ، الموافق 2 مارس 1976 م ٠

ـ أهمية الاحتفال بالاعياد الدينية والوطنية ، للاستاذ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ، ألقاها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، يوم الاثنين 7 ربيع الاول 1396 هـ ، الموافق 8 مارس 1976 م ٠

ـ عوامل النهضة والانهيار فى الاندلس ، للدكتور محمد الشريف قاهـــر ، أستاذ الادب العربى بجامعة الجزائر ، ألقاها يوم الاثنين 14 ربيـــع الاول 1396 هـ ، الموافق 15 مارس 1976 م ٠

ـ الثورة الجزائرية فى شعر سليمان العيسى ، للسيد أحمد بن ذياب ، أستاذ بثانوية ـ فتح ـ بالبليدة، ألقاها يوم الاثنين 21 ربيع الاول 1396 هـ، الموافق 22 مارس 1769 م.

ـ مواقف من كفاح الشيخ الفضيل الورتلانى ، للاستاذ على مرحوم ، مفتش التعليم الابتدائى والمتوسط سابقا ـ ، ألقاها يوم الاثنين 28 ربيع الاول 1396 هـ ، المـــوافق 29 مارس 1976 م ٠

والملاحظ أن هذه المحاضرات ستنشر فى مجلة الاصالة فى المستقبل ٠

حول جواز تعويض الهدي نقدا

محمد المامون القاسمي الحسني
المدير المساعد للتوجيه الديني
ـ الجزائر ـ

أمام تزايد عدد الحجاج سنة بعد اخرى ، وتفاديا لضياع قيمة الذبائح التى توارى فى التراب دون الاستفادة منها ، مما يفوت على الامة الاسلامية مقصد الشريعة من هذا الهدى ،

أجمع أعضاء لجنة الافتاء المركزية التابعة لوزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية ، اثر الاجتماعات التى عقدوها يومىي 6 و 7 جمادى الثانية 1395 هـ الموافق لـ 16 و 17 يونيو 1975 م ، على وجوب مضاعفة الجهود الهادفة الى تنظيم عمليات ذبح الهدى ، خلال موسم الحج ، بالاكثار من المذابح ، وتوفير ذباحين مهرة ، واقامة ثلاجات حديثة ، وتأسيس مصنع للتصبير والتعليب ·

وفى حالة تعذر هذا التنظيم ، وافقت اللجنة ، بأغلبية أعضائها ، على جواز دفع ثمن الذبائح نقدا ، لفقراء المسلمين والمساكين ، بمكة المكرمة والبقاع المقدسة ، وفى سبيل الله عموما ·

تعليق على مقال للصحافى السعودى السيد رضا محمد لارى رد فيه على المجلس التأسيسى لرابطة العالم الاسلامى الذى أفتى ببطلان الفتوى الجزائرية المتعلقة بجواز تعويض الهدى نقدا ، ونشرته صحيفة عكاظ الصادرة بتاريخ 1395/12/27 ·

ورغم أن هذه الفتـوى كان المقصود منها ، بالدرجة الاولى ، الحجاج الجزائريين ، فان المجلس التأسيسى لرابطة العالم الاسلامى ، قد تعرض لدراستها ، خلال اجتماعاته فى موسم حج 1395 هـ ، ورفض جواز تعويض الهدى نقدا ، بحجة أن الاسباب الداعية اليه لم تـعد قائمة ، وان التنظيم الذى دعت اليه لجنة الافتاء الجزائرية قد تحقق ، وأصدر المجلس هذا القرار متجاهلا استمرار الوضع المزرى الذى يسود تأدية هذه الشعيرة الدينية ، الامر الذى حدا بالسلطات السعودية الى الاتفاق مع شركة أجنبية أعدت أفرانا بمنى تحرق فيها الذبائح بمجرد ذبحها حتى تتلف قبل تعفنها • وهذا الاجراء لا يعدو أن يكون حـلا سلبيا لانه لم يحفظ أموال المسلمين من التبذير ، ولم يحقق ، بالتالى ، مقصد الشريعة من الهدى •

ومما يؤكد هذا الرأى ، استمرار ظهـور تعليقات وملاحظات تطالب جميعها بايجاد حلول ناجعة للقضاء على ظاهرة التبذير هذه والاستفادة من هذه الاموال التى تبدد دفنا أو احـراقا •

ومن هذه التعليقات ما كتبه السيد رضا محمد لارى أحد كبار الصحافيين السعوديين ، فى جريدة عكاظ ، احـدى كبريات الصحف السعودية ، الصادرة بتاريخ 1395/12/27 ، حيث أكد على أن « أكثر من مليون رأس من الغنم يدفن فى أرض منى ، ويضيع هدرا دون أن ينتفع به أحد » •

ويرى كاتب المقال « أن فى هذا خـلافا بين الاصـل الفقهى والصور التطبيقية لـه ، وهو ، بالتالى ، تناقض بين التصرف بالذبح ودفنه ، وبين وجود أفواه جائعة من الاخـوان المسلمين ، نتيجة سوء تطبيق الشريعة ، وبسبب الفهم الخـاطىء من قبل الحـاج للمناسك الواجبة عليه لاداء فريضة الحج ، حيث يتصور الحاج أن عليه أن يسيل دما استكمالا للحج ، وبالتالى ، أخذ يمارسها دون قناعة بها ، وكأنها حكم اسلامى لا يستطيع مخالفته ، والا أصبح حجـه باطـلا » •

وقد دعا الكاتب الى دراسة الفتوى الجزائرية بجد ، وتعميم حكمها لسـائر المسلمين حيث قـال :

« وبعد وضوح الصورة بأبعادها الحقيقية تبـين لى الاساس الفقهى الذى استنـد عليه علماء وفقهاء الجزائر فى اصدار فتواهم بجواز الدفع المادى للراغب فى الذبح على اعتبار أنه يمثل نوعا من أنواع الصدقة المقدمة لفقراء المسلمين ••• واعتقد أن لهذه الفتـوى مبرراتها وجوانبها المنطقية البراقة مما يدعونا الى دراستها بجدية أكبر من قبل المتخصصين فى العلوم الدينية لاصدار فتوى عامة تنطبق على كل المسلمين لنمنع اهدار أموالنا كما حدث فى موسم الحج الاخير وفى غيره من مواسم الاعوام السابقة •• ويتضح حجم الخسارة التى حققناها هذا العام من كلمة الاستاذ عبد الله عريف التى قرر فيها أن أمانة العاصمة عاجزة عن توفير العدد الكافى من الجزارين لسلخ وحفظ مليون رأس مذبوح فى فترة محـدودة للغاية • فلو تصورنا متوسط ثمن الرأس المذبوح 400 ريـال (400 دج) وأخذنا بتحـديد الاستاذ العريف بمليون رأس ذبحت فقط ، لكان معنى ذلك أننا أهدرنا أربعمائة مليون ريال كان في استطاعتنا ، لو استثمرناها بواسطة البنك الاسلامى مثلا لاطعام الفقراء من المسلمين.

لقضينا على المجاعة العالمية ككل ، خصوصا مع استمرار حصول هذا البنك على مبلغ مماثل بشكل ثابت كل عام » ٠

وختم الكاتب مقاله بقوله :

« انها مشكلة تبحث عن دراسة فورية وجادة ، خصوصا ، وأن أحكام الشريعة لا تشترط ضرورة الذبح ، وانما تهدف الى اطعام الفقراء والمساكين ، (فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) » ٠

ونحن اذ نشكر الكاتب السعودى على حثه على دراسة الفتوى الجزائرية بجد ، ودعوته الى تعميم حكمها لسائر المسلمين ، نذكر بأن هذه الفتوى كانت خاصة بالحجاج الجزائريين ، وأننا لم نقصد تعميمها بقدر ما قصدنا الى اثارة البحث الجاد فى هذه القضية الهامة التى تشغل بال الامة الاسلامية فى مجموعها ، لايجاد حلول ملائمة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية ، وفى نطاق قوانينها ، وتراعى المقاصد العامة لها ، مع عدم اغفال تقدم الحضارة المادية فى هذا العصر ٠

«موسم الحج بين الامس واليوم»

هذا وقد اطلعنا على مقال للدكتور محمد أبو شهبة بعنوان : « موسم الحج بين الامس واليوم » نشره فى مجلة « التضامن الاسلامى » السعودية بتاريخ ذو الحجة 1395 هـ والمحرم ، الموافق لـ ديسمبر 1975 ٠ تعرض فيه الى عدة مشاكل تتعلق بموسم الحج ، وفى مقدمتها مشكلة الذبائح ٠

وننشر هنا الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع ٠ من باب تعميم الفائدة ، والتاكيد على ضرورة تكاتف الجهود لايجاد حل لها :

« ٠٠٠ وأذكر أنى اقترحت فى ذلك المقال الاستفادة من ألوف الذبائح التى كانت تذهب لحومها هدرا ، ويكون مآلها الى التعفن والفساد ، ثم الحرق أو الدفن فى الارض حتى لا تكون سببا لانتشار الأوبئة والامراض ، وذلك بعمل مصنع لتجفيف ما فضل عن حاجة الفقراء والمساكين ، وما اكثره !! ثم توزع على الفقراء والمعوزين أثناء العام ، أو توزع على فقراء الحجاج الذين لا يقدرون على شراء اللحم، ومن ثم لا يطعمون اللحم أبدا، أو ان طعموه فقليلا أو أقل من القليل مع أن اللحم من الاطعمة التى لا يستغنى عنها الجسم ، والا أصيب بالهزل والاعياء ، والامراض ٠ وليس من شك فى أن الاسلام يدعو الى صحة الابدان كما دعا الى صحة الاديان ، قال عز شأنه : « وكلوا ، واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » (الاعراف ــ 31) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ٠٠ » رواه الامام مسلم ٠ والقوة تشمل القوة فى الدين ، والقوة فى العقل والتفكير ، والقوة فى الاجسام ، والضعف على الضد من ذلك ــ الى غير ذلك من الاحاديث ٠

على هامش

رحلة المرحوم "أبوزهرة" إلى المغرب

د. فاروق منصور
مدير لمجلة : الاذاعة والتلفزيون
ـ القاهرة ـ

كان المرحوم محمد ابو زهرة أستاذا لى والذين عرفوا هذا العالم الجليل عرفوا منه كيف تكون الاستاذية ؛ أبوة حانية ، ومودة خالصة ، وعطاء سخيا وتوجيها أمينا ، ورعاية صادقة ، وبرا موصولا • ان محمد أبى زهرة الذى كان عملاقا في مواقفه جسورا فى نضاله ثوريا فى سلوكه كان طفلا بريئا فى عواطفه يحب بلا حدود وتجد فيه رقة متناهية تدمع عيناه لابسط شيء ويشتد غضبه لمجرد احساسه بأن انسانا ما قد جرح فى كرامته أو عجز عن رد ما وجه اليه من اهانات •

ويكشف أسلوب الشيخ أبى زهرة ـ طيب الله ثراه ـ الذى كتب به رحلته تلك والتى اعادت مجلة الاصالة نشرها فى العدد 28 يكشف عن طبيعته الصادقة الرقيقة وانفعالاته السريعة لمجرد احساسه بأن شيئا ما قد وقع بطريقة خاطئة أو متعارضا مع الدين •

واذكر الآن كيف التقيت به ـ رضى الله عنه ـ وقد عاد من رحلته تلك وكيف قص على مشاهداته ولقد علق عليها تعليقات كثيرة نشر بعضها فيما كتبه عن رحلته تلك ولم ينشر

البعض الآخر وبالطبع لـن افشى حديثا دار بينى وبينه فليس ذلك مـا اعتاده الرجل منى حيا ولن يحدث وهو فى جوار ربه ولكن فقط وجدت أن من الخير خدمة للحقيقة وتسجيلا للتاريخ أن أضيف الى ما نشره ـ طيب الله ثراه ـ فى حياته موقفه الذى لم يذكره لانه لم يكن من عادته أن يمتدح نفسه أو يثنى على تصرفه بل كان يؤدى ما يؤمن أنه الحق وانــه يخدم الاسلام ويعلى من شأن المسلمين وكرامتهـم ·

ان جهاد الشيخ محمد أبو زهرة ملحمة كفاح بطولية رائعة يجب أن تسجل وأن تعيها الاجيال خاصة شباب المسلمين الذين يتعرضون اليوم لاخطار شتى ويواجهون كل يوم ما يهز معتقداتهم أو يكاد أن يضعف معنوياتهم مما يجعلهم بحاجة دائمة الى القدوة توضع أمامهم والى المثال الحى الذى يذكرهم بما يجب ويدلهم على الطريق ويوجههم الى ما يجب ان يفعلون ·

واعتقد أن الامانة يجب أن يحملها كل قادر وان تاريخ أمثال الشيخ أبى زهرة يجب أن يلقى العناية ولقد قررت من قبل ووعدت ـ وأسأل الله أن يوفقنى للقيام بما وعدت ـ وعدت ان اكتب تاريخ الرجل كاملا ومواقفه الرائعة وقد عرفت منها الكثير وعايشته فى لحظات كان اعزلا الا من ايمانه يواجه قوى كثيرة شريرة وعاتية ·

وهذا ما جعلنى اهدى اليه كتابى « آداب القرآن » الذى نشرته عام 1974 بعد وفاته بقـــولى :

« الى روح أستاذنا الجليل فقيه القرن العشرين الداعية المصلح والمجاهد المسلم، والمؤمن القـــوى « محمد ابو زهرة » ·

الذى علم فعمل بعلمه · ورأى فجاهر برأيه · وآمن فجاهد بايمانه · امتحن فصمد ، وابتلى فصبر ، وناضل فانتصر لله وبالله ·

تحية له ، واعترافا بفضله ، فقد علمنا أن الايمان سلوك ، وان العالم قدوة ، والعلم امانة ، والوفاء شريعة ، واعطانا كأستاذ علما نعتصم به ، واسمى قيم نحرص عليهـــا ، وانبل عواطف يجب ان يحسها الانسان ويعيشها ليكتمل ايمانه ، وتكمل انسانيته ·

نعاهده ان نفى بالعهد ، فنكمل الرسالة ، ونمضى بعده على الطريق فليرحمه اللـه ، وليتقبل جهاده ، ويثيبه خيرا » ·

اما ما اود ان اشير اليه الآن متعلقا برحلته الى المغرب فهو الموقف الذى رفض فيـــه ان يتحدث باسم العلماء امام الملك المغربى فهو موقف اتخذه لاسباب وقد ترتب عليه بعض النتائج او بمعنى ادق تعرض الرجل ـ رحمه الله وتقبل جهاده ـ بسببه الى بعض المتاعب ·

قال لى ــ رحمه الله ــ لقد رفضت أن اتحدث نيابة عن العلماء واثناء المقابلة الملكية لان حديثى سيكون حديثا رسميا وباسم جميع العلماء الذين جاءوا الى المغرب هذه واحدة ، أما الثانية فان المتحدث هو الشيخ محمد أبو زهرة ومعنى هذا أن علماء الاسلام يقرون ما يجرى في المغرب وان محمد ابى زهرة الذى يدعى الغيرة على الاسلام والدفاع عنه ويتصدى لمقاومة المنحرفين فى مصر يقر الانحراف فى غير مصر ويقبل ان يقيم ملكا مسلما لابيه معبرا بملايين الجنيهات ٠

ان واجبى ان اقول له لا يا صاحب الجلالة ! الاسلام لا يقبل هذا منك ولو كان والدك حيا لما قبله منك ولو استطاع ان ينطق من تحت التراب لقال لك انفق هذه الاموال لخير شعبك او لاعداد جيش يدافع عن القدس ويعيد الارض السليبة ٠

هل كان ممكنا ان اقول له ذلك فأغضبه وأسيء الى العلاقة بينه وبين مصر ، وهل كان واجب الضيافة يسمح به وهل لو قلته سيغير قولى من الامر شيئا ؟ لا أظن ٠ لذلك نصحت وابديت انتقادى لمن قابلتهم بغية اصلاح الحال والعمل على ما فيه خير الاسلام ٠

وتوقف قليلا ثم قال : ما رأيك يا مولانا ؟

اجبت : حسنا ما فعلت لقد كنت الشيخ أبو زهرة جريئا وذكيا قال : هل يرضى هذا حكومة مصر ؟ هل يرضى هذا الذين يجلسون على مقاعد السلطة ويوجهون الامور ؟

ثم أجاب بالطبع لم يرضهم ، لقد جاءنى السفير المصرى فى المغرب (آنذاك) ليسألنى لماذا رفضت الحديث امام الملك انه تكريم لمصر ان يتحدث عالم منها فثرت عليه وقلت له انه **عار لمصر أن يبارك عالم منها ما يجرى فى المغرب وانه عار لمحمد أبى زهرة أن يثنى على ملك أو حاكم يرى فى تصرفاته ما يسىء لدين الله أو يتعارض مع الاسلام ان واجبى ان أبصر بالخطأ وأنبه اليه وليس واجبى أن أؤيد الظلم وأقر الفساد ٠**

اذا كنت سأتحدث سأذكر ما أراه خيرا وأحمد ما أجده صوابا وانتقد ما أراه ضارا بالاسلام والمسلمين فهل يفيد هذا ؟

اذا كان الامر كذلك فأقوم الآن بالحديث امام الملك ٠ قال الشيخ أبو زهرة ــ رحمه الله ــ فسكت السفير وهو غير راض بما قلت وغير مقتنع به وعندما عدت الى مصر وجدت أن الامر قد علم وان فى تصرفى ما يغضب المسؤولين ٠ فنحمد الله ان اعاننى على طاعته وساعدنى على اغضابهم ما دام ذلك من أجل الحق ٠

ومضى يقص على تفاصيل لا داعى لذكرها وحدثنى يومها حديثا مريرا عما فعلــــه يهود المغرب يوم الخامس والعشرين من يونيو عام 1967 وكيف بلغ النفوذ الصهيونى فى بلد مسلم عربى حتى استهانوا بمشاعر الناس ولم يبالوا بالشعب العربى الجريح حتى فى أرضه العربية بالمغرب ٠

هذه خواطر سريعة وذكريات أثارتها فى النفس تكرم مجلة الاصالة الجزائرية مشكورة بنشر رحلة أستاذنا الامام التقى النقى محمد أبو زهرة رحمه الله وأثاب كل من أحيى ذكراه خيرا ووفق الله المسلمين الى الخير وجمعهم على الحب والتآخى والسلام ٠



جــولــة بــين المجــلات

اعداد : **د. م. بالحميسى**

تصدر حاليا باروبا وخارجها عدة مجلات جامعية متفاوتة الحجم ، مختلفة الاتجاهات تحت اشراف مستشرقين ومؤرخين وادباء وتناول باستمرار قضايا عربية واسلامية من شتى الجوانب ؛ الحضارة ـ الفقه ـ علم الكلام ـ التاريخ ـ السياسة ـ الادب الخ ...

وتخضع هذه المجلات فى غالب الاحيان ـ الى طرق البحث العلمى والمنهجية المعاصرة وقد اعتمد فيها الكتاب ـ وهم عادة اساتذة جامعات ـ على تخصصهم وطول ممارستهم لمسائل معينة وعلى عثورهم الموفق على الوثائق الهامة التى تلقى أضواء جديدة . كما لجأوا الى المقارنة بين المصادر والدراسات المعمقة أينما وجدت فأقدموا بدون ملل ، على احياء علوم ، وبعث فنون ، وتسطير خطط ، وأعادوا النظر فى قضايا تخلى عنها المسلمون منذ زمان وأقبلوا على نشر مخطوطات نادرة ـ وما أبرعهم فى اصطياد مثل هذه النفائس .

ومن أجل هذا كله تحلى معظم الدوريات بسمعة أدبية مرموقة واغترف من محتواها الدارسون وذاع صيتها فى المشرق والمغرب ؛ لهذا رأينا من المفيد أن نقدم لقراء « الأصالة » الكرام ـ فى هذا الركن الذى عنوناه « **جولة بين المجلات** » نبذة عما يصدر بباريس وغيرها **لاطلاعهم على ما** يهتم به الغربيون والبحاثون العرب المعاصرون من مسائل مختلفة تحتل الجزائر قسما كبيرا منها سواء فى ميدان التاريخ ، أو الثقافة ، أو تراجم الاعلام أو النضال وأحسن دليل على ذلك ، العدد الاخير (الذى اتصلنا به) من مجلة « تاريخ المغرب الاسلامى والبحر الابيض المتوسط» التى تصدر «باكس آن بروفانس» بفرنسا فانه

خصص امهات المقالات لما يعنى بلادنا قديما وحديثا : فالاولى للاستاذ آدام من جامعة باريس بعنوان : التحول الثقافى بالمغرب (الكبير) فى عهد الاستقلال ، متسائلا هل الظاهرة راجعة الى «المشاقفة» والتأقلم الثقافى الذى يفضى الى رفع مستوى الشعب أم هى مجرد حملة تقربه من ثقافته الطبيعية • ويلى هذه الدراسة صفحات عديدة (حوالى 40 صفحة) لبوايى محافظ أرشيف اكس حول رحلة الاب هيرولت الى المغرب الاوسط فى منتصف القرن السابع عشر وقد ضمت هذه المذكرات أوصافا وانطباعات ووجهات نظر تساعد على فهم بعض الحوادث جرت بالمغرب •

والمقالة الثالثة للاستاذ لوفو من جامعة « اكس » أيضا عنوانها : « الشنوى » منذ تصفية الاستعمار فوصف المؤلف هذه الناحية المجاورة لمدينة شرشال وتعرض للحالة الاجتماعية بها أيام الاستعمار واثناء الحرب التحريرية وبعد 1962•

ويقتصر تقديمنا هذه المرة على ثلاث مجلات فرنسية نلخص لكل واحدة دراسة لها علاقة بالجزائر أو تتخذ موقفا يخالف المألوف فى قضية من القضايا •

1) جاء فى مجلة «أرابيكا» Arabica (1) بقلم ماى شواتزميلير دراسة بعنوان الظروف التى ألف فيها ابن مرزوق (الجد الخطيب التلمسانى) كتابه الشهير بالمسند •

فشمس الدين أبو عبد الله محمد بن مرزوق شخصية بارزة فى عالم الادب والسياسة بالمغرب فى القرن الرابع عشر ـ وقد أثر تأثيرا بعيدا فى معاصريه ولعب دورا لا يقل عن دور ابن خلدون ودور ابن الخطيب.

وعلى القارىء ان يعود الى ما خصه به معاصروه من تراجم ومصنفات (يحيى ابن خلدون : بغية الرواد ، عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر ، ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ـ المقرى نفح الطيب الخ •••) •

ها هى خمسون سنة تمر منذ ان عثر المستشرق ليفى بروفانسال على مخطوط المسند فى مكتبة الاسكريال (باسبانيا) وقد نشر هذا العالم اجزاء من الكتاب تتقدمها دراسة حول المؤلف وانتاجه • ثم انقطع الاعتناء بابن مرزوق الى أن ساعد الحظ على اكتشاف مخطوطات أخرى بالمغرب نتمنى أن تنشر يوما. ومع هذا بقيت جوانب كثيرة من المسند غامضة من بينها : ظروف التأليف وتاريخه •

ويحاول صاحب المقالة أن يرفع الغطاء على هذا الجانب

1) مجلة الدراسات العربية ـ باريس • يحتوى عدد 1975 على مقالة لجمال بن الشيخ : الموسيقيون والشعر ـ مدرسة اسحاق الموصلى وابراهيم بن المهدى ـ ومقالة لـ ر ـ ق الخورى : طه حسين وفرنسا •

فيقول : بما أن مخطوط الاسكريال لم يذكر تاريخ التصنيف فقد ذهب ليفي بروفانسال الى افتراض سنوات 1359 ـ 1361 معتمدا على ان هذه المدة توافق عهد السلطان أبى سالم (760 ـ 762 1359 ـ 1361) .

وكان ابن مرزوق ملازما للعاهل مقربا عنده فمن الممكن جدا أن يخصص ابن مرزوق « المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا ابى الحسن » تخليدا لأبيه .

غير أنه يوجد بالمخطوط المذكور صفحات تبين عكس ذلك وتجعل تاريخ تأليف المسند يتأخر بسنوات . ومثال ذلك : « وان تنصر مولانا أبا فارس نجله الاوضى الخليفة المرتضى ... » وجاء فى باب آخر : « قد قدمت فيما أسلفته ملازمة المولى المرحوم أبى سعيد للعباد أيام حصر تلمسان ومجالسته للشيخين والدى وعمى رحمة الله عليهما ... » .

ومجمل القول ان ابن مرزوق صنف المسند تعظيما لابى الحسن لكى يلفت اليه نظر ابنه ابى فارس راجيا منه المساعدة التى تخفف من محنه الكثيرة (2) وتقصر مدة منفاه بتونس . وأبو فارس هو السلطان عبد العزيز المرينى الذى حكم من 767 الى 774/1366 ـ 1372 وقد عرف بالحزم والشجاعة . وكان ابن مرزوق يعيش فى ضيق واغتراب مكتفيا بالتدريس بجامع الموحدين . وعندما غارت جيوش بنى مرين على تلمسان قدم ابن مرزوق بواسطة كتابه المسند مطلبين :

1) استرجاع دخل أملاكه بفاس ويروى ابن خلدون وابن الخطيب بتفصيل قصة هذه الثروة .

2) أن يصاحب ابن مرزوق المصاحف القرآنية التى يبعثها السلطان الى المشرق غير أن هذا الاخير أبى مفارقة الفقيه ... فيكون اذا احتلال تلمسان سنة 772/1370 هـ واغتنام فرصة وجود عبد العزيز بها من الدوافع التى حملت ابن مرزوق على انهاء المسند متمنيا بذلك التخلص من ورطته بتونس .

2) المجلة الثانية التى طالعناها أخيرا هى « استوديا اسلاميكا » Studia Islamica الصادرة بباريس (3) .

---

2) راجع ترجمة ابن مرزوق فى دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الجديدة .

3) يحتوى العدد ان 50 و 51 على دراسات اسلامية وافية : مقالة لـ د قنارى حول مسألة طالما شغلت علماء الاسلام عنوانها هل الله [سبحانه] يريد القبائح لعباده ؟ وقد استعرض الكاتب ـ فى حوالى مائة صفحة نظريات أهل السنة وحججهم وقابلها بنظريات المعتزلة ، متجولا بالقارئ فى امهات الكتب التى يتعذر الوقوف عندها .

والمقالة الاخرى الجديرة بالاطلاع هى للاستاذ فهمى جعدان (من عمان) عنوانها : مكانة الملائكة فى اللاهوت الكونى عند المسلمين . دخل بنا فى عالم الجن والانس وطاف بنا بين السماوات والارض معتمدا على الكثير من الآيات القرآنية والتفاسير القديمة والتأويلات الحديثة .

ومن بين المقالات التي وجدناها دراسة للاستاذ رشيد ابن أبي شنب في أصول التمثيل عند العرب ·

لقد عودنا الغربيون في حديثهم عن النهضة الثقافية عند العرب في القرن 19 م · ان يرجعوا الفضل كل الفضل للادب الفرنسي والانكليزي وخاصة في نشأة التمثيل عند العرب · فلولا موليير وراسين وكورناي – في زعمهم – لما استطاع مارون النقاش أو أديب اسحاق أو نجيب الحداد شيئا من الابداع والابتكار ·

والمقالة هذه رد على هذه النظرة وبيان ان التمثيل العربي اغترف مواضيعه من الادب العربي والفولكلور العربي وقد أوحت قصص الف ليلة وليلة الكثير من الروايات ·

يقول الاستاذ ابن أبي شنب : «كتب مرارا ان التمثيل العربي وارد من أروبا وأنه اكتفى منذ نشأته بنقل وتكييف مسرحيات شكسبير وكورناي وغيرهما وهذا خطأ · فمنذ فجر النهضة ومنشطو التمثيل – في سعيهم لتحبيب هذا الفن الأدبي للجمهور ولتسليته – يقدمون روايات تتفق وذوقه للمغامرات وميله لكل ما هو عجيب · فاقتبسوا مواضيعهم لا من الآثار الأجنبية ولكن من الانتاج العربي الفصيح والشعبي ·

وكانت الف ليلة وليلة مصدر الوحي الممتاز لما يوجد فيه من أحاسيس وأساطير وغريب وخيال وحيل وتحليلات ···

فلا يوجد عند العرب كتاب يجعلنا نعيش – أحسن من مسامرات شهر زاد – تلك العصور الذهبية والأيام السعيدة التي خلدت دولة العباسيين عامة وعهد هارون الرشيد خاصة · وهذه هي أهم الأسباب التي دفعت الكتاب العرب الى البحث عن مواضيع قصصهم ومسرحياتهم قبل كل شيء في تلك الليالي الحافلة بالاحداث ···

وقد وجد فيها مارون النقاش ما يكفيه لتأليف « أبو الحسن أو المغفل » و « هارون الرشيد وأنس الجليس » و « وخليفة الصياد » البطل فيها هو الخليفة هارون الرشيد ·

كما تصدى لها أحمد أبو خليل القباني فكتب « ناكر الجميل » و « الشيخ الوضاح ومصباح وقوت القلوب » وهارون الرشيد والامير غانم » ···

والغاية من هذه الروايات هي استجابة لرغبة الجماهير وارضاء ذوقها ، تلك الجماهير التي كانت تعاني ما تعاني من قساوة الاحتلال الاجنبي فتجد في التمثيل ذكريات لذلك الماضي المجيد ولتلك القيم الاسلامية الطاهرة التي تتمثل في عنترة أو مجنون ليلى أو ولادة أو هارون الرشيد ···

وكانت الف ليلة وليلة منجما لا يفنى وعينا لا تنضب يتهافت عليها الكتاب من كل فن فتدر عليهم بالمواضيع الشيقة ·

ومن بين هؤلاء الكاتب المصرى محمود واصف الذى اقتبس روايته « هارون الرشيد » من قصة « خليفة الصياد والقرود » .

فالقول بان مصدر التمثيل عند العرب هو الادب العربى خطأ لان كثيرا من الكتاب العرب ما كانوا يقرأون الفرنسية أو الانكليزية ولان الجماهير العربية ـ فى الماضى بصفة خاصة ـ كانت لا تتذوق ـ وهذا طبيعى ـ الا ما ينجم من تراثها ويصنع من طينها ويتلائم وأذواقها .

3) وجاءتنا مجلة « المغرب ـ المشرق» (عدد 70 ـ ديسمبر 1975 الصادرة هى الاخرى بباريس) .

بمقالة للاستاذ أركون حول الملتقى التاسع للفكر الاسلامى الذى انعقد بتلمسان من 10 الى 19 جوليت 1975 .

ـ يتوفر الاستاذ أركون على دراسة تقدر ، فى مظهر من مظاهر الاسلام المعاصر المتمثل فى ملتقيات الفكر الاسلامى التى تنعقد باستمرار فى بلادنا .

وبعد استعراض قصير لمهام وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية منذ 1970 فى ميدان الدين والتربية والثقافة وللدور الاساسى الذى يناط بالاسلام بقصد اعلاء مكانة الشخصية الجزائرية العربية الاسلامية بمحاربة الانحيار والتعصب وضروب التشويه والسكوت المفروض من قبل المثقفين الاستعماريين . ومن جهة أخرى تأهيل هذه الشخصية لمقاومة التيارات الكثيرة المغالية فى حب التجديد وفى الاعتماد على العلم وحده مع نبذ الانتفاع بطرق المعرفة الاخرى وعلى الوضعية والمادية ...

وكل ذلك يلقى ضوءا جديدا على المفهوم الاجمالى لبناء الهياكل الوطنية العزيزة على الرئيس بومدين وبذل الجهود لارساء قواعد ووسائل للاقتصاد الحديث (الثورة الزراعية ، التصنيع) .

ويلخص صاحب المقالة مراحل الملتقى والمواضيع التى نوقشت فيه مذكرا بالنقاط التى تعرض لها الدارسون ببجاية .

وما من شك ان استعراض هذه المواضيع سيثير معارضة بعض الناس (كالذين تأثروا بالتيار الثقافي الماركسى) أو يثير احتقار الاخرين (كالذين يعتمدون فى كسب المعرفة على العلم وحده ونبذ كل ما عداه من طرق المعرفة) ويواصل الكاتب قوله واصفا هذه الملتقيات بأنها تلقى أضواء جديدة على مشاكل كل العالم الاسلامى المعاصر وعلى مصاعبه ومطامحه وآماله ويضيف ان للبلدان الممثلة فى الملتقى تشاركا عميقا فى الافكار كما تدل على ذلك ، التوصيات التى تبناها المشاركون . ويسهل الوصول الى النتيجة ، الشبه التام فى اللهجة ومنهجية استخلاص العبر من التاريخ . ثم يخلص الكاتب الى الحديث باسهاب عن تعريف الانية

والأصالة ويلاحظ ان اللفظين identité و Authenticité هما أضيق فى التعبير عن مفاهيم لفظى الانية والأصالة ويذكر ان مفاهيم هذين اللفظين مشتركة بين ايديولوجيات النضال فى بلدان العالم الثالث لمجابهة الهيمنة السياسية • ويلح الكاتب على صعوبة التوفيق بين مفهوم الاصالة النابعة من الوحى ونزول القرآن وبين التفتح فى العالم المعاصر أو بعبارة أخرى يستقى العلم عند المسلمين من القرآن اما البحث عن العلم – فى العصر الحديث – فهو يرفض كل علم سابق للتجربة •

وقد استلفت انتباه الكاتب شىء وهو أن المجتمعات البشرية كلها فى المغرب العربى تشترك فى عين المصير الوطنى الذى تعيشه على أساس التراث العربى الاسلامى •

والمشاركون فى ملتقيات الفكر الاسلامى على اختلافهم فى السن والثقافة والوظيف والمرتبة الاجتماعية يتجهون الى هدف واحد هو تفهم ما حدث للمسلمين وتبيين أسباب رقيهم وعوامل انحطاطهم والبحث عن حلول جديدة جريئة لمشاكلهم •

وعلى منبر الملتقى تعرض بحرية تامة كل المشاكل والآراء وتقترح كل الحلول على اختلاف انواعها ونزعاتها ويقدم الملتقى فرصة للتعبير عن الافكار والمفاهيم والاتجاهات وحرية التعبير مضمونة رسميا بصوت الوزير الذى تندد بالتصلب والجمود لان الاصالة تنافى التعصب والمحافظة المتطرفة والتكرار العقيم والانطواء على النفس وليس معناها أيضا اغلاق الابواب والنوافذ •••

هذا ويشير الكاتب فى آخر مقالته الى ما نشره من كتب ودراسات فلسفية اخلاقية اجتماعية حبذا لو نقلت أو نقل بعضها الى العربية وخاصة ما يهم قضايا الساعة مثل الاسلام والتطور الاقتصادى أو الاسلام وتجديد العلوم الانسانية •

هذا المشهد الفكرى فى تلمسان

وكتب الاستاذ صفوان قدسى ، رئيس تحرير مجلة « المعرفة» السورية الذى شارك فى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى بمدينة تلمسان مايلى :

سوف أحاول فى هذا العرض السريع لوقائع الملتقى التاسع للفكر الاسلامى الذى انعقد فى مدينة تلمسان الجزائرية بين العاشر والتاسع عشر من شهر تموز الماضى ، ان اتجاوز النظرة النقدية التقويمية ، وأن اكتفى بدلا من ذلك بعرض الوقائع على النحو الذى جرت عليه . وأنا أعرف مسبقا بأن النظرة النقدية

يمكن أن تسهم فى استكشاف ملامح هذا المشهد الفكرى الكبير الذى شهدته مدينة تلمسان ، والذى شارك فى صنعه نخبة ممتازة من المفكرين والكتاب العرب ، وفى المقدمة منهم الاستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية في جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية الذى بذل جهودا ربما كانت تبدو فى بعض اللحظات فوق طاقة البشر ، والذى كان يتابع وقائع الملتقى يوما بيوم، وساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة ، والذى ضرب المثل فى الصبر ، والجلد ، وتحمل المشاق الجسام ·

احاول أن أقول ان النظرة النقدية التقويمية تشكل الاساس الذى يمكن أن تقوم عليه آية محاولة لاستكشاف ملامح هذا المشهد الفكرى كذلك فان هذه النظرة النقدية تملك مقدرة اثارة حوافز للحوار حول مسائل فكرية بالغة الاهمية تعجز النظرة التسجيلية عن اثارتها · غير أن هذه النظرة النقدية تبدو مستحيلة ما دامت الابحاث موضوع هذه النظرة النقدية بعيدة عن متناول القارىء ·

ولقد فكرت فى نشر القسم الاعظم من هذه الابحاث التى القيت فى هذا الملتقى الفكرى لكنى امتنعت عن ذلك لسببين ، الاول هو أن هذه الابحاث لا تتسع لها مجلة المعرفة ، بل أن نشر هذه الابحاث يحتاج الى ثلاثة مجلدات على الاقل ، وهو ما حدث بالنسبة للابحاث التى قدمت فى الملتقيات الفكرية السابقة التى شهدتها الجزائر فى السنوات السابقة ، والتى نشرت فى مجلدات صادرة عن وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية في الجزائر . والسبب الثانى هو ان مجلة « الأصالة » التى تصدرها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية لابد وأن تقوم بهذه المهمة ، قياسا على السنوات الماضية عندما كانت تنشر فى كل عدد تصدره مجموعة من الابحاث التى ألقيت فى آخر ملتقى للفكر الاسلامى · ولا أظن أن من حق مجلة المعرفة أن تدخل فى منافسة مع مجلة الأصالة التى هى أحق منا بنشر ما تراه مناسبا في هذه الابحاث (I) ·

وبعد أن يستعرض الكاتب برنامج محاضرات الملتقى يقول :

هذا عرض سريع للابحاث التى قدمت الى الملتقى التاسع للفكر الاسلامى والتى تغطى النقاط الست التى انعقد الملتقى من أجل بحثها ومناقشتها ، وهى أبحاث تتصف بقدر كبير من العمق والجدية ، برغم تفاوت مستوياتها · وقد اسهمت المناقشات التى جرت على

(I) لقد عمدت الزميلة « المعرفة » على نشر محاضرة الدكتور زكى نجيب محمود التى القاها فى ملتقى تلمسان المشار اليه دون ذكر المصدر والمناسبة ·

هامش الملتقى فى اضاءة جوانب عديدة من هذه الابحاث ، وذلك على الرغم من أن بعض هذه المناقشات خرج على الابحاث موضوع المناقشة ومضى الى مناقشة مسائل لا علاقة لها بهذه الابحاث بشكل من الاشكال، كذلك فان بعض من أسهم فى هذه المناقشات كان يسعى الى لفت الانظار وكسب تصفيق الطلبة الذين حضروا الملتقى. غير أن هذا كله لا يغض من قيمة هذه الابحاث التى لاشك أن أصحابها بذلوا جهودا طيبة فى اعدادها ٠

فى نهاية جلسات الملتقى ، شكلت ست لجان لصياغة التوصيات فى ضوء الابحاث التى ألقيت والمناقشات التى جرت حول هذه الابحاث ، وانتهت هذه اللجان الى توصيات أقرها المشاركون فى الملتقى بالاجماع ٠

وفيما يختص بالنقطة الاولى ، مساهمة تلمسان الزيانية فى الحضارة والفكر الفكر الاسلاميين ٠ أسباب ازدهارها وعوامل انهيارها ، فقد جرى اقرار توصية تقول بضرورة العناية بالمعالم التاريخية لمدينة تلمسان ، وباقامة متحف يستطيع المتجول فى ردهاته أن يتعرف على الحضارة العريقة التى صنعتها هذه المدينة ٠

وفيما يتصل بالنقطة الثانية : موقف اسطنبول وباقى العالم الاسلامى من سقوط الاندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الاوروبى للعلم الاسلامى عموما ، فان الملتقى أقر توصية تدعو الى النظر فى الكتب المدرسية التى تبحث فى تاريخ الدولة العثمانية وفى موقفها ازاء سقوط الاندلس ، وذلك بالاستناد الى الوثائق التاريخية التى تميط اللثام عن حقيقة ناصعة فى وضوحها وهى ان الدولة العثمانية ، شأنها فى ذلك شأن مصر وامارات المغرب العربى لم تبذل جهدا يذكر لنجدة آخر مسلمى مملكة غرناطة ومنع الاندلس من السقوط فى أيدى الفرنجة ٠

وفيما يتعلق بالنقطة الثالثة : هل كان الشعر فى الاندلس سببا فى انحلال اخلاقها ، أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس ؟

فقد جرى اقرار توصية تبرىء الشعر الاندلسى من تهمة مسؤوليته عن انهيار الاخلاق ، وبالتالى عن انهيار الوجود العربى فى الاندلس ، وتعتبر هذا الشعر ظاهرة حضارية شاركت مع غيرها من الظواهر الحضارية الاخرى سلبا أو ايجابا ٠

أما التوصيات المتعلقة بالنقطة الرابعة المتصلة بعلاقة الآداب والفنون بالاخلاق ، فانها تنص على عودة الادباء والفنانين الى الجدية والى وعى رسالتهم فى المجتمع ، والى تجنب كل ما من شأنه ان يبث الميوعة والانحلال ٠

وكانت توصيات النقطة الخامسة المتعلقة بالعدالة

الاقتصادية والاجتماعية فى الاسلام ، تشير الى عناية الاسلام بالثروة واعتبارها وسيلة من وسائل استمرار الحياة الكريمة ، والى اعتبار الحقوق فى الاسلام مقيدة بمصالح الجماعة مما لا يجيز لاى كان ان يتعسف فى استعمال هذه الحقوق اذا كان هذا الاستعمال مضراً بغيره ·

أما النقطة السادسة والاخيرة ، وهى النقطة الخاصة بمقصد الشريعة من الحج والطريقة التى يؤدى بها اليوم ، فقد نصت التوصيات المتعلقة بها على ان مقاصد الحج قد حجبها الجهل عن عيون بعض الحجاج مما يوجب العمل على توعية الحجاج بهذه المقاصد وبطرق اداء الحج ·